

الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز



10.9.2015

رواية

تشياما ندا نجوزي أديتسي

زهرة الكركديه الأرجوانية

ترجمة: أحمد دهدي

زهرة الكركديه الأرجوانية

رواية

تأليف: تشيماماندا نجوزي أديتشي

ترجمة: أحمد هريدي



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠١٢

د. أحمد مجاهد	رئيس مجلس الإدارة
د. سهير المصادفة	رئيس التحرير
محمود عبده	مدير التحرير
وردة عبد الحلیم	سكرتير التحرير
د. مدحت مستولى	التصميم الجرافيكى
صبرى عبد الواحد	الإخراج الفنى
على أبو الخير	

اديتش، تشيما ماندا انجوزى.

زهرة الكركديه الأرجوانية: رواية/ تأليف تشيما

ماندا انجوزى اديتش، ترجمة: أحمد هريدى. -

القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٢.

٤١٦ ص؛ ٢٢ سم.

٩٧٨ ٩٧٧ ٤٤٨ ١٤٠ ٦ تدمك

١ - القصص النيجرية.

أ - هريدى، أحمد. (مترجم)

ب - العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠١٢ / ٢١٣٨٧

I. S. B. N 978 - 977 - 448 - 140 - 6

ديوى ٨٩٦، ٣٢

• الكتاب: زهرة الكركديه الأرجوانية

Purple Hibiscus

• تأليف: تشيماماندا نجوزي أديتشي

Chimamanda Ngozi Adichie

• ترجمة: أحمد هريدي.

• يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من
المؤلفة للهيئة المصرية العامة للكتاب.

• جميع حقوق الإصدار باللغة العربية محفوظة للهيئة
المصرية العامة للكتاب فى مصر والخارج.

• جميع الحقوق الأخرى محفوظة للمؤلفة:

Copyright © 2003 by Chimamanda Ngozi Adichie

Published by arrangement with algonquin

Books of Chapel Hill, a division of workman

Publishing company, Inc., New york.

• الطبعة الأولى ٢٠١٢.

• طبع فى مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

مقدمة

ربما لأن القضايا والمشكلات التي أفضت إلى حرب بيافرا (١٩٦٧ - ١٩٧٠) لاتزال بعيدة عن الحسم هو ما دفع الروائية النيجيرية «تشيماماندا أديتشى» إلى كتابة رواية تقاوم بها خطر النسيان الذي قد يهدد ذاكرة النيجيريين حول أحداث حرب أزهدت أكثر من مليون روح بشرية.

ربما ما دفع «تشيماماندا» إلى قراءة الكثيرة من الكتب التي تتحدث عن تلك الحرب، وإلى التحدث مع الكثيرين من النيجيريين الأكبر سناً الذين عاصروها، ثم إلى تأليف رواية تبتعد عن الحقيقة الواقعية التي توصلت إليها بقدر اقترابها من الحقيقة في صورتها الانفعالية، هي الدموع التي كانت تنثال من عيني والدها عندما كان يتحدث إليها عن فقد أبيه في الحرب.

شكلت قصص والد «تشيماماندا» عن حرب بيافرا

العمود الفقري لأبحاثها التي قامت بها في مرحلة الإعداد لتأليف رواية تدرك أهمية بيافرا بالنسبة لتاريخ نيجيريا، وبالنسبة لكاتبة الرواية التي نشأت وكبرت في ظل أجواء النفي والسجن ومشاهد العنف والتسلط فضلا عن مفردات الصراع بين التقليدي والقبلي من جانب وبين الحدائث والبيروقراطية من جانب آخر، وهو الصراع الذي تشهده نيجيريا وغيرها من دول العالم الثالث.

في أول مقابلة أجريت معها بعد فوزها بجائزة الأورانج البريطانية، تحديث «تشيماماندا» إلى صحيفة «الجارديان» موضحة أنها من خلال كتابتها لرواية عن حرب بيافرا أرادت أن تظهر مدى عدم فهم الغرب لإفريقيا وقدر الخطأ الذي يرتكبه الغرب الذي ينظر إلى إفريقيا على نحو يفتقد إلى العدل، حيث اعتاد الغرب أن يأتي إلى إفريقيا وفي ذهنه تصور مسبق ثابت وصورة ذهنية لا يحيد عنها.

«تشيماماندا أديتشي» التي تقاوم في كتاباتها الصورة التقليدية سابق التجهيز في الذهنية الغربية عن إفريقيا باعتبارها معسكراً ضخماً للفقر واللاجئين ولمرضى الإيدز.. تقول «تشيماماندا» لصحيفة الجارديان البريطانية من الصعب على فهم أن تأتي «مادونا» من الولايات المتحدة الأمريكية لكي تتبنى طفلاً أفريقياً؟.. إن الأمر ليس بهذه السهولة.. أن يتبنى أحدهم طفلاً أو يعرض صوراً لأطفالنا

والذباب يملأ أعينهم، فهذا تبسيط غير جائز ولا يليق بإفريقيا التي اعتادت وسائل الإعلام الغربية أن تظهرها وكأن كل شخص فيها يموت من الجوع، وهذا بالطبع ليس حقيقياً، لذا علينا أن نتعرف على الوجه الحقيقي لإفريقيا.

على العكس من التقرير الذى بثته قناة السى إن إن التليفزيونية الأمريكية حول الكونغو وفيه أوقفوا الكنفوليين فى الخلفية وجاءوا برجل بلجيكى تصدر المشهد، ذكروا أنه خبير فى شئون الكونغو ليتحدث عن الكونغو.. طلعت علينا «تشيماماندا أديتشى» برواية عن وطنها نيجيريا الذى لا يكاد يعرف عنه شيئاً منذ حصوله على الاستقلال - سوى الانقلابات وجرائم القتل والسرقة، فى محاولة منها للعثور على صوتها الإفريقى الخاص وعلى صوت ثقافة إفريقيا وطقوسها وأساطيرها.

فى روايتها «زهرة الكركديه الأرجوانية» تسمعنا «تشيماماندا» ربما صوت الثورة والتمرد المفعم بالحيوية فى نيجيريا متمثلاً فى القناة الصغيرة «كامبيلى» وشقيقها «جاجا» وأمهما، الذين يقومون بعف التمرد ضد استبداد سلطة الأب، حيث مكان «تشيماماندا» ربما صوت الثورة والتمرد المفعم بالحيوية الذين يقومون فى نيجيريا متمثلاً فى الفتاة الصغيرة «كامبيلى» وشقيقها «جاجا» وأمهما الذين يقومون بفعل التمرد ضد استبداد السلطة الأب، حيث مكان إقامتهم فى حى راق بإحدى المدن الصغيرة فى

الجنوب الشرقى من نيجيريا وداخل منزل كبير تحيطه الجدران والأشجار العالية، وفى فترة سابقة أحد الانقلابات العسكرية.

على إثر نشوب انقلاب عسكري يتورط الأب المتسلط المستبد، الذى يمتلك مصنعاً وصحيفة فى مشكلات سياسية ترغمه على ارسال ابنته «كامبيلى» وابنه «جاجا» إلى إحدى المناطق البعيدة، حيث تقيم عمتهما الأرملة ووالدها العجوز، وبعيداً عن سلطة الأب تشعر الفتاة «كامبيلى» بالتححرر من القيود المفروضة عليها، وتعيش حياة جديدة تسمح لها بالتحدث إلى الآخرين بحرية وبمشاركتهم الضحك والشعور بالبهجة، ووسط أجواء الاحتفالات بالحياة التى تغمر منزل العمه «أفيوما» الأستاذة الجامعية تشرع «كامبيلى» فى إقامة علاقة طيبة مع جدها العجوز «الوثنى» على غير رغبة من والدها ذى الانتماءات الكاثوليكية المتطرفة، وعلاقة أخرى عاطفية مع قس شاب.

مع تغير المشهد السياسى تفقد العمه «أفيوما» وظيفتها بالجامعة، وتجد نفسها مضطرة إلى الوقوف ضمن الصفوف الطويلة أمام نافذة بالسفارة الأمريكية للحصول على تصريح للسفر هى وأطفالها إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وبعودة «كامبيلى» و«جاجا» إلى منزل والدهما، يحدث الصدام بين الأب المتسلط وبين ابنته «كامبيلى» عندما اكتشف عمق علاقتها بجدها «الوثنى»، وأيضاً ابنه «جاجا» الذى بدت عليه

علامات التمرد، ويكون الإيذاء الجسدى هو عقاب الأب الذى أوصل «كامبىلى» إلى المستشفى، ولم يكن أمام الأم التى نشب القهر أظافره فى روحها إلا أن تعتمد إلى قتل الأب بالسم، وهى التهمة التى لاينقذها منها إلا ادعاء ابنها «جاجا» ارتكاب الجريمة ودخوله السجن.

منذ صدورها فى أكتوبر عام ٢٠٠٣ حظيت رواية «زهرة الكركديه الأرجوانية» على الفور بتقدير نقدى كبير، وأدرجت فى عام ٢٠٠٤ على القائمة القصيرة لجائزة الأورانج البريطانية، وفى العام نفسه، حصلت على جائزة الكومنولث لأفضل كتاب أول لكاتب، وفى عام ٢٠٠٧ حصلت روايتها «نصف شمس صفراء» على جائزة الأورانج البريطانية، كما حصلت «أديتشى» أيضاً على جائزة «كين» للإبداع الإفريقى أو البوكر الإفريقية.

لماذا تحظى كتابات «تشيماماندا أديتشى» باهتمام ملحوظ داخل بلادها وخارجها؟... ولماذا توقع الروائى النيجيرى «شينوا أتشيبى» لـ «تشيماماندا» المولودة فى نيجيريا فى ١٥ سبتمبر ١٩٧٧، وبعد سبع سنوات من انتهاء حرب بيافرا أن تحقق نجاحاً فى مجال الرواية النيجيرية والإفريقية؟

هل لأن روايتها تكشف عن الوجه الحقيقى للحياة فى وطنها نيجيريا وبصورة خاصة الوجه المشوه. يفعل مشاهد الاستبداد السياسى والمشاهد التى أفرزتها الحرب، والتى لا تكاد تفارق ذاكرة الإنسان

النيجيري؟.. أم لأنها تولى شخصياتها عاية فائقة لكى تظل حبة متطورة وقريبة دائماً من مركز الأحداث فى النسيج الروائى.

«كريستوفر هوب» المحرر الثقافى بصحيفة الديلى تلجراف البريطانية وصف الروائية «تشيماماندا» بأنها صوت جديد مفعم بالحيوية يولد فى إفريقيا موضحاً أن روايتها «زهرة الكركديه الأرجوانية» عابرة للحدود لأنها قصة تتعلق بالحب فى زمن الحرب والاضطرابات الانتهاكات ولأنها رواية تعالج بصورة جميلة قصة تمرد يجتاح ففتاة صغيرة تواجه سلطة مستند غاشمة.

فى لقاء أجرى معها بأحد المواقع الثقافية على شبكة الإنترنت تحدثت «تشيماماندا» عن شخصياتها الروائية قائلة «أنا أرسم شخصيات لها دوافعها دون أن تكون واعية على الدوام بهذه الدوافع. وهو أمر اعتقد أنه صحيح بالنسبة لنا نحن البشر، فضلاً عن أننى لا أريد إثارة ضجر فرانى بالكشف عن جميع أفكار شخصيات روايتى».

ما يثير قلق «تشيماماندا» دوماً، من خلال ما تصریح به فى المقابلات التى تجرى معها.. «ليس لأننا تعلمنا التفكير بالانجليزية، وإنما لأن نظام تعلمنا يقلل من قيمة ثقافتنا، إلى جانب أنه لا يجرى تعليمنا فى نيجيريا كتابة لغة الإيجبو، وأن الآباء النيجيريين المنتمين إلى الطبقة الوسطى لا يكتثون كثيراً عندما لا يتحدث أبناؤهم لغة «الإيجبو». وما أثار استياء «تشيماماندا» التى تعيش الآن وتنتقل بين نيجيريا

والولايات المتحدة الأمريكية أنها أثناء دراستها للماجستير فى الكتابة الإبداعية بجامعة جونز هوبكنز فى ولاية بالتيمور الأمريكية، أخبرها استاذ بالجامعة أنه لم يصدق روايتها الأولى «زهرة الكركديه الأرجوانية» لأنها سردت أموراً مألوفة بالنسبة إلى بما يعنى أنها كتبت رواية عن أفارقة من الطبقة الوسطى، الذين يملكون سيارات ولا يتضورون جوعاً ومن ثم بالنسبة إليه. لم تكن تلك أفريقيا الحقيقة من وجهة نظره.

تقول «تشيما ماندا» التى كتبت أيضاً رواية «نصف شمس صفراء» عن إفريقيا المليئة بأفارقة من الطبقة المتوسطة الذين رفض أستاذ الجامعة أن يصدق بوجودهم: «هناك من ينسون أن أفريقيا يوجد بها عدة طبقات اجتماعية وكأنه غير مسموح للأفارقة أن يوجد بينهم طبقية، وكما يوجد بها الفقراء يوجد كذلك الأغنياء.

عندما وجه إليه السؤال.. هل تلاشى شيئ من غضب «تشيما ماندا» بعد كتابة روايتها عن حرب بيافرا التى فقدت فيها أجدادها الذين أهدت الرواية إلى ذكراهم؟... أجابت «كانت الدموع تملأ عيني وأنا أبلغ والدى خبر فوزى بالجائزة.. دهشت من انفعاله وهو الرجل المتحفظ الهادئ الذى لا يتأثر كثيراً بالفرح والحزن... بدأ فى غناء أغنية وطنية.. كنت أعتقد أنه سيقول، أحسنت صنعاً لكننى وجدته وقد انخرط فى الغناء والرقص.. وانخرطت أنا فى البكاء».

احمد هريدى.

أحد السُّعَف

لحظة أن ألقى بابا بكتاب القديس بقوة في اتجاه جاجا في حجرة الطعام، وكسر التماثيل الصغيرة داخل رف الخزانة الخشبية، بدا الأمر وكأن كل شيء في المنزل أخذ في الانهيار. لم يكن شقيقى جاجا قد ذهب إلى القديس، ولم يتناول القريان الريانى، وكنا قد عدنا للتو من الكنيسة. وضعت ماما سعف النخل الأخضر المرطب بالماء المقدس على طاولة المائدة، وصعدت الدرج لكى تغير ملابسها قبل أن تقوم فى وقت لاحق بصنع صليبان من السعف الأخضر، لتعلقها على الحائط بجانب إطار مذهب يحيط بصورة فوتوغرافية لأفراد العائلة، ولتظل صليبان السعف هناك فى مكانها حتى أربعاء الرماد، أول أيام الصوم الكبير، وعندئذ نأخذها إلى الكنيسة لإضرام النار فيها وتتحول إلى رماد.

اعتاد بابا فى كل عام ارتداء عباءة رمادية طويلة كبقية الذين نذروا أنفسهم لخدمة الكنيسة، والمساعدة

فى توزيع رماد صلبان السعف، بقيامه بالضغط بإبهام يده المغطاة بالرماد على جبين كل شخص بالصف الذى يتحرك أمامه ببطء والحرص على ترك أثر رماد الصليب ظاهراً على الجبين، أثناء قوله: من التراب وإلى التراب نعود.

يحضر بابا قداس الكنيسة، ويجلس فى الصف الأول من صفوف المقاعد الطويلة، عند الطرف المجاور للممشى الأوسط، وإلى جانبه تجلس ماما وجاجا وأنا، ويكون هو أول من يتناول القريان الريانى، ساجداً أمام المذبح الرخامى، ومغمضاً عينيه بشدة تجعل قسمات وجهه أميل إلى الانقباض والالتواء، ثم يخرج لسانه إلى أقصى ما فى وسعه، وبعد انتهائه من تناول القريان يعود إلى مقعده ليراقب بقية حشد المصلين المتوجهين إلى المذبح وهم يفعلون الشيء الذى علمهم إياه الأب بينيديكت، الذى بالرغم من استمراره فى عمله بكنيسة سان أجنيز لمدة سبعة أعوام، إلا أن حشد المصلين لا يزالون يطلقون عليه "قسيسنا الجديد"، وربما لم يكونوا قد أطلقوا عليه هذا الوصف لو لم يكن قسيساً أبيض البشرة.

لا يزال الأب بينيديكت جديداً فى لون وجهه الذى لم يتحول إلى شىء من السمرة، بالرغم من لفح الرياح الجافة شديدة الحرارة المثقلة بالغبار لسبعة مواسم متتالية فى نيجيريا، وفى أنفه البريطانى الذى لا يزال كسابق عهده صغيراً وضيقاً ومضغوطاً، وهو الأنف الذى جعلنى منذ أول ظهور له فى إنوجو فى شدة

القلق من عدم تمكنه من التقاط ما يكفيه من هواء يحفظ له حياته.

كان الأب بينيديكت قد غير بعض الأشياء فى الأبرشية، مثل إصراره على تلاوة الصلوات باللغة اللاتينية فقط، وعدم قبول لغة الإيجو فى الصلاة، والاستعانة بالتصفيق بالأيدى فى أضيق الحدود، حتى لا ينال التصفيق من جلال ومهابة القداس، لكنه سمح للترانيم المصاحبة لجمع الصدقات بأن تنشد بلغة الإيجو، وهى الترانيم التى وصفها بالأغاني الوطنية، وعند نطقه كلمة "الوطنية"، كان قد طوى شفتيه المستقيمتين عند زاويتي فمه إلى أسفل مكوناً الحرف لا فى وضع مقلوب.

ودائماً يستشهد الأب بينيديكت بأقوال البابا أولاً ثم بابا ثم يسوع المسيح، ويستعين ببابا فى الإتيان بأمثلة من الكتاب المقدس، كقوله فى يوم أحد السعف: عندما نهدي ضيائنا للناس فإننا نعكس بذلك انتصار السيد المسيح. وفى يوم آخر قال: انظروا إلى الأخ إيوجين.. كان من الممكن أن يختار الشئ نفسه الذى اختاره كبار رجال المال والأعمال فى بلادنا، أو كان فى إمكانه الجلوس فى المنزل دون أن يفعل شيئاً بعد الانقلاب، حتى لا تتهدد أعماله التجارية من قبل الحكومة.. لكنه لم يفعل ذلك، بل جاهر بقول الحقيقة فى صحيفة "ذى ستاندرد"، حتى لو أدى ذلك إلى أن تخسر صحيفته الإعلانات.. لقد تحدث الأخ إيوجين دفاعاً عن الحرية، فكم منا وقف ليناصر الحقيقة؟..

وكم منا عكس فى تصرفاته انتصار السيد المسيح؟

قالت جموع المصلين بصوت غير عال: "نعم.. باركه الله"، ثم أصاخوا السمع وعم الهدوء المكان، حتى أن الأطفال كفوا عن البكاء، وكأنهم بدورهم أرادوا سماع ما يقال، تماماً مثلما يحدث فى بعض أيام الأحد، عندما يستمع المصلون جيداً إلى الأب بينيديكت، حتى وإن تحدث فى أشياء يعلمها كل فرد منهم، مثل حديثه عن تبرعات بابا السخية للكنيسة بصناديق النبيذ المستخدم فى القربان، وبأفران جديدة لإعداد خبز القربان، وبجناح جديد لمستشفى سان أجنيز الذى يوليه الأب بينيديكت أهمية كبيرة. فى تلك الأثناء كنت أجلس وركبتاى مضمومتان معاً وإلى جانبي جاجا الذى يبذل جهداً لكى يبدو وجهه خالياً من أى تعبير، ومن أى أثر لكبرياء، لأن بابا دائماً يؤكد لنا الأهمية البالغة لفضيلة التواضع.

عندما أنظر إلى وجه بابا، لا أجد فيه أثراً لتعبير أو انفعال، وهو ذات الوجه الذى بدا فى الصورة الفوتوغرافية التى التقطت له عندما أثير من حوله جدل كبير عقب قيام منظمة العفو الدولية بمنحه جائزة حقوق الإنسان، وهى المرة الوحيدة التى سمح فيها لصحيفة ذى استاندرد بأن تكتب عنه، بعد إصرار من رئيس تحريرها "إد كوكر" الذى قال إن بابا يستحق أكثر من ذلك لولا أنه يبالغ فى تواضعه. حول هذه الجائزة، قالت ماما لى ولجاجا: بابا لم يخبرنا بها وهو لا يتحدث إلينا عن مثل هذه الأشياء.

يظل وجه بابا خالياً من أى تعبير أو انفعال أثناء تناوله القربان من الأب بينيديكت على إثر انتهائه من مراسم القداس، ثم يعود بابا إلى مقعده ليراقب المصلين أثناء توجههم إلى المذبح لتناول القربان، وبعد ذلك يبدأ بابا بالتحدث إلى الأب بينيديكت وعلى وجهه علامات الجدية عن شخص لم يتناول القربان ليومى أحد متتاليين. ودائماً كان يطلب بابا من الأب بينيديكت أن يستدعى الشخص الغائب، لكى ينضم من جديد للمصلين، مؤكداً أن لا شيء يعوق أحداً عن القداس وتناول القربان سوى موت روحه.

- جاجا، أنت لم تذهب لتناول القربان

قال بابا فى هدوء وتساؤل.. لكن جاجا أطلال النظر إلى كتاب القداس فوق طاولة المائدة وقال: خبز القربان يسبب لى ضيقاً فى التنفس.

حدقتُ النظر فى وجه جاجا.. هل فقد عقله؟
أصرَّ بابا على تناول جاجا قطعة الخبز الريانى، تلك الرفاقة الهشة بنكهة الشوكولاتة أو الموز، التى تنتج فى أحد مصانعه والتى يفضلها الأطفال أكثر من البسكوت.

- والقس يظل ملامساً فمى مما يصيبنى بالغثيان

تحدث جاجا وهو يعلم أننى أنظر إليه فى هلع بعينين تتوسلان إليه أن يغلّق فمه ويصمت، لكنه لم ينظر إلىّ.

- إنه جسد الرب.. لا يمكنك التوقف عن تناول
خبز الرب وإلا سيكون الموت.. هل تعلم ذلك؟

كان صوته خافتاً وبدا وجهه الذى تنتشر فيه كرات
متقيحة من الجلد فى حجم رأس الدبوس أكثر
انتفاخاً وتورماً.

- سأموت إذن.

زاد الخوف من سواد عينيه اللتين تحول لونهما إلى
لون قار الفحم، ونظر فى وجه بابا وقال:

- إذن سأموت، بابا

بسرعة طالع يبصره كل أنحاء الغرفة، وكأنه يبحث
عن برهان على أن شيئاً ما قد سقط من السقف
المرتفع، أو أن شيئاً لم يكن يتوقعه سيسقط من أعلى.
أمسك بالكتاب المقدس وقذف به بعيداً فى اتجاه
جاجا فأخطأه وأصاب الأرفف الزجاجية للخزانة التى
اعتادت ماما تلميعها، وحطم الرف العلوى بما يحتويه
من تماثيل صغيرة وردية اللون مصنوعة من قطع
السيراميك بحجم أصبع اليد لراقصات باليه فى
مختلف أوضاع الرقص. تناثرت قطع السيراميك على
الأرضية الصلدة قبل أن يهبط الكتاب المقدس ويحط
على بعض قطع السيراميك المتناثرة هنا وهناك.

بينما كان بابا يتمايل فى خطواته من اتجاه إلى
آخر، لم يتحرك جاجا، ووقفتُ أنا بالقرب من الباب
أرقب ما يجرى. كانت مروحة السقف المثبت بها

مصابيح كهربائية مستمرة في دورانها، الذي يصدر عنه صوت أجش. جاءت ماما في خف مطاطي يحدث صوت فرقعة مع كل خطوة تخطوها على الأرضية الرخامية. كانت قد غيرت الإزار المزين بالترتر والبلوزة ذات الأكمام الواسعة، بعد عودتها من قداس الأحد، وارتدت إزاراً آخر وقميص (تى شيرت) أبيض طُبع على نسيجه في منطقة الصدر المتهدل عبارة "الله محبة"، وهو القميص الذي أهدى إليها في إحدى المناسبات الدينية التي حضرتها برفقة بابا. حدقت النظر في القطع المتناثرة للتماثيل المكسورة على الأرضية، ثم انحنت وبدأت في التقاطها بأصابع يديها العاريتين.

لم يقطع الصمت سوى طنين مروحة السقف التي لم تحرك أى ساكن للهواء بغرفة الطعام بحوائطها البيضاء التي حال لونها، وإطارات الصور الفوتوغرافية للجدّ المعلقة، وطاولة الطعام التي أكاد أراها تندفع نحوى وتطبق على أنفاسى.

- اذهبى وغيرى ملابسك.

فاجأتنى ماما بكلماتها الهادئة خفيضة الصوت بلغة الإجبو... ودون أن تتوقف لتلتقط نفساً، وجهت حديثها إلى بابا: "الشاي يبرد"، وإلى جاجا: "تعال ساعدنى".

جلس بابا إلى الطاولة واحتسى شايه من طقم شاي خزفى من صنع الصين، يتألف من إبريق

وسكرية وأكواب على حوافها رسومات زهور قرنفلية اللون. انتظرتُ منه أن يطلب منى أنا وجاجا أن نحسّى رشفة من كوب الشاي، كما كان يفعل دائماً، تلك الرشفة التي أسماها "رشفة الحب"، لأنك تشارك الناس الذين تحبهم في أشياء صغيرة تحبها. يقول بابا "خذ رشفة الحب"، وعادة ما يحتسيها جاجا أولاً، ثم يأتى دورى، فأمسك بالكوب بكلتا يدي وأرفعه إلى شفتي، وأحسو رشفة شاي يكون فى العادة ساخناً جداً، ودائماً تلسع سخونة الشاي لسانى، لسعة أتضرر منها إذا تناولتُ طعاماً به بعض التوابل الحريفة. كنت أعلم أنه إذا ما لسعتُ رشفة الحب لسانى، فإنها ستشعل فى المقابل من حب بابا لى، لكنه قبل أن يرفع كوب الشاي إلى شفتيه، لم يقل "تناولى رشفة الحب" ولا أى شىء آخر.

انحنى جاجا بجانب ماما، وفرد صفحات النشرة الدورية التي تصدرها الكنيسة، وبدأ يجمع بداخلها قطع السيراميك المكسورة، وقال: ماما.. انتبهى حتى لا تجرحى أصابعك.

جذبتُ بشدة وشاح الكنيسة الأسود الذي أتلفع به، لكى أتأكد أننى لم أكن أحلم.. لماذا إذن يتصرف جاجا وماما وكأنهما لا يعلمان ما الذى حدث توأ؟.. ولماذا يحتسى بابا شايه بهدوء وكأن جاجا التزم الصمت ولم يراجعها فيما قال؟.. استدرتُ ببطء وصعدت الدرج لأغير ثوب يوم الأحد الأحمر بآخر.

جلستُ بجانب نافذة حجرة نومي بعد أن بدلتُ ملابسى. كانت شجرة الكاجو قريبة جداً إلى حد أنني أستطيع لمس أوراقها وثمارها الصفراء الشبيهة بأجراس صغيرة تتدلى فى تكاسل جاذبة إليها أزيز النحل الذى يرتطم بنافذتى. أصختُ السمع إلى بابا وهو يصعد الدرج إلى غرفته ليأخذ قسطاً من نوم قيلولة الظهر. أغلقتُ عينيّ ولذت بالسكون فى انتظار استدعائه جاجا وذهابه إلى غرفته. لكن بعد دقائق من الصمت، فتحت عينيّ وأسندت جبینى على العوارض الخشبية المنحنية للنافذة لكى أنظر إلى الخارج.

كان فناء منزلنا فسيحاً يتسع لرقصة جماعية يؤديها مائة شخص، ويفسح المجال لكل راقص لكى يقوم بحركة بهلوانية فى الهواء ويقلب فيها عقبه فوق رأسه ثم يهبط على أكتاف الراقص إلى جواره. جدران المجمع السكنى الذى تعلوه أسلاك كهربائية ملتفة ترتفع عالياً إلى حد لا يمكّننى من رؤية السيارات التى تأتى إلى شارعنا وتذهب.

حلّ مبكراً فصل الأمطار، وسرعان ما نشرت زهور أشجار الفرانجيبانى المزروعة بموازاة الجدران عبيرها الواهن فى كل أرجاء الفناء المزين بصف من تعريشة نبات أرجوانى هذبت واستوت كطاولة طعام تفصل بين الشجر المحاذى للجدران ومدخل الفناء. بالقرب من المنزل تزهو شجيرات الكركديه الأرجوانية

ذات الأغصان الكثيفة الخفيضة، التي تعانق بعضها البعض.

كانت براعم شجيرات الكركديه الأرجوانية قد بدأت تبرز وتتفتح على نحو متسارع، حتى إن ماما من وقت لآخر تقطف زهورها الحمراء لتزين بها مذبح الكنيسة، وفي أحيان كثيرة يعمد زائرون من بينهم رفيقات ماما في الصلاة بالكنيسة، أثناء سيرهم إلى موقف سياراتهم، إلى قطف زهور الكركديه الأرجوانية. وفي مجلسي إلى جوار نافذتي رأيت امرأة منهن تثبت زهرة خلف أذنها، ورأيت من قبل موظفين حكوميين يرتديان جاكيتين أسودى اللون، ينتزعان الزهور بعنف قبل مغادرتهما بالشاحنة الصغيرة التي تحمل لوحة معدنية عليها أرقام حكومية، والتي لم تنتظر طويلاً بجانب شجيرات الكركديه الأرجوانية.

في وقت لاحق أخبرني جاجا أن سبب قدوم الموظفين الحكوميين هو تقديم رشوة إلى بابا، وأنه سمعها يقولان له إن شاحنتهما ممتلئة بالدولارات الأمريكية. لم أكن متأكدة من صحة ما سمعه جاجا، لكنني فكرت في قوله لبعض الوقت، وتخيلت امتلاء الشاحنة برزم كثيرة من النقد الأجنبي رصت في كراتين عديدة، أو في كرتونة ضخمة في حجم ثلاثتنا بالمنزل.

كنا لانزال بجانب النافذة عندما أتت ماما إلى حجرتي. في كل يوم أحد، وقبل الغداء، في الفترة ما

بين طلبها من سيسى وضع قليل من زيت النخيل فى الحساء وقدر أقل من الكارى فى مخلوط الأرز وجوز الهند، وبين أخذ بابا إغفاءة القيلولة، كانت ماما تقوم بتمشيط شعرى. تجلس ماما على مقعد بمسندين بالقرب من باب المطبخ، وأجلس أنا على الأرضية ورأسى مثبت بين فخذيها، وبينما تقوم بتمشيط شعرى وتضفيره، لا تخطئ أنفى رائحة الحساء بالكارى، برغم وجود تيار هواء قادم من نافذة المطبخ المفتوحة دائماً، والرائحة النفاذة للزيت الذى تمتصه جدائل شعرى القريبة من أنفى.

لكن ماما لم تأت إلى حجرتى بحقيبة بها أمشاط وزيت شعر، وتطلب منى هبوط الدرج، وبدلاً من ذلك قالت: "الغداء جاهز". أردتُ أن أعبرُ لها عن أسفى لقيام بابا بكسر تماثيلها، ولكنى قلت:

- ماما.. أنا آسفة لكسر تماثيلك.

هزّت رأسها إلى أسفل بسرعة، ثم هزتها يميناً ويساراً لتبين أن التماثيل لا تعنى لها شيئاً. كانت التماثيل تعنى لها الشيء الكثير بالفعل، فمنذ سنوات وقبل أن أعى شيئاً، اعتدتُ أن أتعجب من قيامها بتلميع التماثيل فى كل وقت. لم أكن أسمع صوت خفها المطاطى أثناء هبوطها الدرج، وكنت عندما أعلم أنها هبطت الدرج - عند سماعى صوت فتح حجرة الطعام - أهبط فى إثرها فأراها جالسة بجوار الخزانة ويدها منشفة مطبخ مغموسة فى ماء

مُصِّبِن، وتَقْضَى عَلَى الْأَقْل رِبْع سَاعَةٍ فِي تَلْمِيعِ كُلِّ تَمَثَالٍ مِنَ التَّمَاثِيلِ الصَّغِيرَةِ وَرَدِيَةِ اللَّوْنِ لِرَاقِصَاتٍ بِأَلِيهِ. فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ دَمُوعٌ فِي وَجْهِهَا. وَآخِرَ مَرَّةٍ قَامَتْ مَامَا بِتَنْظِيفِ التَّمَاثِيلِ وَتَلْمِيعِهَا قَبْلَ أَسْبُوعَيْنِ عِنْدَمَا كَانَتْ إِحْدَى عَيْنَيْهَا حَمْرَاءَ مَتُورَمَةٍ.

- سَأَمَشَطُ شَعْرَكَ بَعْدَ الْغَدَاءِ

قَالَتْ وَهِيَ تَسْتَدِيرُ لِتَتَابَعِ مَهَامَهَا. قُلْتُ: "نَعَمْ، مَامَا" .. وَتَبِعْتُهَا إِلَى أَسْفَلِ الدَّرَجِ. كَانَ بِهَا عَرَجٌ طَفِيفٌ وَمَشِيَّةٌ جَعَلَتْهَا تَبْدُو أَصْفَرَ مِمَّا هِيَ عَلَيْهِ بِسَبَبِ قَصْرِ إِحْدَى قَدَمَيْهَا عَنِ الْآخَرَى. وَبَيْنَمَا أَنَا فِي مَنْتَصَفِ انْحِنَاءِ الدَّرَجِ، رَأَيْتُ جَاجَا وَاقِفًا فِي مَدْخَلِ الرِّوَاقِ، بَعْدَ أَنْ أَمَضَى الْوَقْتَ كُلَّهُ فِي الْمَطْبَخِ مَعَ مَامَا وَسَيْسَى، وَلَمْ يَصْعَدْ كِعَادَتِهِ إِلَى حَجْرَتِهِ لِكَيْ يَقرَأَ قَبْلَ الْغَدَاءِ.

سَأَلْتُهُ عَنِ حَالِهِ، بَرِغْمَ أَنْنِي لَمْ أَكُنْ فِي حَاجَةٍ إِلَى السُّؤَالِ، فَقَطَّ كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَتَطَّلَعَ إِلَى وَجْهِ السَّبْعَةِ عَشْرَ عَامًا الْمَتَوْتِرَ الْمَمْتَلِّ بِتَجَاعِيدٍ مَتَعَرِّجَةٍ عِنْدَ الْجَبِينِ. اقْتَرَبْتُ مِنْهُ وَصَافَحْتُ يَدَهُ بِخُفَّةٍ قَبْلَ أَنْ نَذْهَبَ إِلَى مَائِدَةِ حَجْرَةِ الطَّعَامِ، الَّتِي يَجْلِسُ إِلَيْهَا بَابَا وَمَامَا. بَعْدَ أَنْ أَتَمَّ بَابَا غَسْلَ يَدَيْهِ فِي وَعَاءٍ أَمَامَهُ بِهِ مَاءٌ تَمَسَّكَ بِهِ سَيْسَى، انْتَضَرَ حَتَّى جَلَسْتُ أَنَا وَجَاجَا فِي مَوَاجِهَتِهِ، وَبَدَأَ صَلَاةَ الْمَائِدَةِ الَّتِي اسْتَمَرَّتْ عَشْرِينَ دَقِيقَةً، سَأَلَ فِيهَا الرَّبَّ أَنْ يَسْبِغَ نَعْمَتَهُ عَلَيْنَا وَيُبَارِكَ طَعَامَنَا، ثُمَّ نَادَى عَلَى السَّيِّدَةِ الْعِذْرَاءِ بِأَلْقَابٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَنَحْنُ نَرُدُّدُ خَلْفَهُ "صَلِّ مِنْ أَجْلِنَا". كَانَ اللَّقْبُ الْمَفْضَلُ

لديه "سيده الشعب النيجيرى وحاميته"، وهو اللقب الذى منحه إياها، وكان قد أخبرنا من قبل أنه إذا ما لجأ إليها النيجيريون كل يوم، فإن نيجيريا لن تجد نفسها فى يوم ما تسير فى ضعف ووهن وكأنها على وشك السقوط، ولن تشبه إنساناً ضخماً يمشى على قدمين واهنتين لطفل صغير.

طعام الغداء الطيب المذاق الذى أعدته سيسى يتكون من معجون البطاطا الرقيق الهش وحساء سميك القوام من أوراق نبات أونجيو داكن الخضرة وبداخله قطع من لحم البقر ومجروش السمك المجفف. والصمت يخيم علينا أثناء تناولنا الطعام، كنت أشكل بأصابعى كرة صغيرة من معجون البطاطا وأغمسها فى الحساء وأضيف إليها قطع لحم ومجروش سمك ثم أضعها فى فمى. كنت واثقة من جودة مذاق الطعام، لكننى لم أستطع تذوقه جيداً.

- الملح من فضلك.

قال بابا. همَّ كل منا بتلبية طلبه فى الوقت نفسه. جاجا وأنا لمسنا آنية الكريستال الصغيرة، وتلامست أصابعنا برفق، فترك الآنية لى ووضعتها أمام بابا. خيم الصمت ثانية على المائدة واستمر لوقت أطول.

- أحضروا عصير الكاجو عند الظهر وكان طيب المذاق.. أعتقد أنه سيلقى رواجاً.

- أخيراً تحدثت ماما. قال بابا:

- اطلبى من الفتاة أن تأتي به.

ضغطتُ ماما على زر جرس يتدلى من أعلى المائدة
متصل بسلك كهربائى يتجه إلى السقف، وظهرت على
الفور سيسى:

- نعم، مدام؟

- أحضرى زجاجتين من الشراب الذى أحضروه
من المصنع.

- نعم، مدام

كنت أرغب فى أن تجيب سيسى متسائلة عن أية
زجاجات أو عن مكانها، فقط لمجرد أن يستمر فى
حديث يغطى على حركات جاجا المتوترة وهو يقوم
بصنع كور من معجون البطاطا. عادت سيسى سريعاً
ووضعت الزجاجتين بجانب بابا. كان على السطح
الخارجى للزجاجتين العلامة التجارية حائلة اللون
ذاتها الموجودة على كل منتجات مصانع بابا مثل رقائق
ويفر، ويسكوت الكريم، وزجاجات العصير، ورقائق
البطاطس بنكهة الموز. صب بابا العصير الأصفر لكل
منا، فأمسكتُ بسرعة كوبى الزجاجى ورشفت رشفة.
كان مذاقها أقرب إلى الماء. أردت أن أظهر حماساً
للشراب، فربما إذا تحدثت عن مذاقه الجيد، قد
ينسى بابا أنه لم يعاقب جاجا بعد.

- مذاقه جيد جداً، بابا.

حرّك وجنتيه المنتفختين يميناً ويساراً، وقال: "نعم،
نعم". قالت ماما:

- مذاقه يشبه مذاق الكاجو الطازج.

قل شيئاً أرجوك.. هذا ما أردت أن أقوله لجاجا الذى من المفترض أن يقول شيئاً الآن لكى يشارك فى الحديث، ولكى يقول كلمة مجاملة لمنتج بابا الجديد، كما كنا نفعل دائماً فى كل مرة يأتى موظف من أحد مصانعه ومعه عينة من منتج جديد.

- يشبه مذاق النبيذ الأبيض.

أضافت ماما التى بدا عليها شىء من عصبية يمكننى استشعارها، ليس فقط فى كون شراب الكاجو لا يمت بصلة إلى النبيذ الأبيض، وإنما أيضاً فى صوتها المنخفض عن المعتاد. "نبيذ أبيض".. قالت ماما ثانية - وهى تغلق عينيها من فرط المذاق الطيب -: "نبيذ أبيض بطعم الفاكهة". قلت - وكرة معجون البطاطا تنزلق من أصابعى - : نعم..
كان بابا يحدق النظر فى جاجا..

- جاجا ألا تشاركنا الشراب؟.. أليست هناك كلمات فى فمك؟

سأل بلغة الإجبو.. إنها علامة لا تبشر بخير، فهو من النادر أن يتحدث بالإجبو. برغم تحدثنا جاجا وأنا بها مع ماما فى المنزل، إلا أنه لم يكن يجب أن نتحدث بها أمام أحد، وكان يقول: علينا أن نبدو متحضرين أمام الآخرين ونتحدث الإنجليزية.

العمة أفيوما شقيقة بابا، قالت عنه ذات مرة إن جزءاً كبيراً منه ينتمى إلى المستعمر الإنجليزي.. قالت

عنه ذلك بطريقة لطيفة متسامحة وكأن الخطأ ليس خطأه، وكأنها تتحدث عن شخص مريض بالمalaria ويهذى بكلام غامض غير مفهوم.

- جاجا أليس لديك شيء تقوله؟

مرة ثانية سأل بابا.

- لا توجد كلمات فى فمى

أجاب جاجا.

- ماذا؟

فى عينى بابا ظل سحابة قاتمة، هو نفسه ظل السحابة القاتمة فى عينى جاجا.. هو الخوف إذن قد غادر عينى جاجا إلى داخل عينى بابا.

- ليس لدى شيء أقوله.

قال جاجا. "العصير جيد" .. بدأت ماما الكلام. دفع جاجا مقعده إلى الخلف..

- شكراً للرب.. شكراً لك بابا.. شكراً لك ماما

استدرتُ وحدقت فيه.. على أقل تقدير لقد قدم الشكر على النحو الصحيح وبالطريقة نفسها التى نتبعها بعد الانتهاء من الغداء، لكنه أيضاً فعل الشيء الذى لم نفعله أبداً: لقد غادر مائدة الطعام قبل أن ينتهى بابا من شعائر صلاة ما بعد تناول الطعام.

- جاجا!

قال بابا وظل السحابة القاتمة يتزايد وينتشر فى

عينيه، بينما كان جاجا يتابع سيره خارج حجرة الطعام ومعه طبقه. همّ بابا بالنهوض ثم عاد ليسترخي من جديد على مقعده وقد تدلت وتراخت وجنتاه.

أمسكت بكوبى الزجاجى، وحدقت فى العصير الأصفر ذى النكهة غير الطيبة وتجرعته دفعة واحدة دون أن أعلم ما الشيء الذى يتعين علىّ عمله، فهذا الذى حدث لم يحدث أبداً طوال حياتى، ولذا كنت على يقين بأن جدران المجمع السكنى سوف تتداعى وتسحق أشجار الياسمين الهندى، وقد تنشق طبقة السماء، وينكمش السجاد الإيرانى الذى يغطى أرضية رخام الأرضية. كنت أجزم أن شيئاً ما سيحدث لكن الشيء الوحيد الذى حدث هو أننى شرقتُ بالماء، وداهمنى سعال اهتز له جسدى كله، مما دفع بابا وماما إلى الاندفاع نحوى. سارع بابا بالخبط على ظهرى براحة يده أكثر من مرة، بينما ماما تدلك كطفى وتقول:

- قاومى حاجتك إلى السعال يا حبيبتى.

فى ذلك المساء، مكثتُ فى السرير ولم أتناول العشاء مع العائلة، ورغم أننى تعافيت من نوبة السعال إلا أن وجنتى كانتا متقدتين، وداخل رأسى كانت كائنات غريبة الشكل تتلاعب بكتاب مقدس مجلد بنى اللون، وكل من هذه الكائنات يلقي بالكتاب إلى الآخر. حضر بابا إلى حجرتى وهبطتُ حشية السرير على إثر جلوسه عليه، وبدأ يداعب برفق وجنتى، ثم سألتنى

ما إذا كنت أريد شيئاً. خيم علينا الصمت، وأنا وماما
أيدينا متشابكة. بابا الذى يتنفس دائماً بصوت عال،
هو الآن لاهث الأنفاس، حتى أننى فكرت فيما يشغل
تفكيره ويجعله كأنه يركض من شىء ما داخل عقله.
لم أتطلع إلى وجهه، لأننى لم أرد أن أرى الطفح
الجلدى الذى انتشر فى كل بوصة منه حتى بدا جلد
وجهه منتفخاً.

فى وقت لاحق، أحضرتُ ماما لى حساءً قوى
الرائحة، لكن نكهته العطرية أصابتنى بالغثيان، وبعد
أن أفرغتُ ما فى جوفى فى الحمام، سألت ماما عن
جاجا الذى لم يأت ليرانى منذ وقت الغداء.

- فى حجرته لم يهبط لتناول العشاء

كانت تربتُ بلطف على شعرى بداية من منبته فى
فروة الرأس وحتى نهاية أطرافه، مرجئة تضيفه إلى
الأسبوع المقبل. شعرى الكثيف جداً الذى دائماً أحكم
ربطه من الخلف بعد أن تجرى فيه ماما المشط لن
أستطيع تمشيطة الآن حتى لا أثير الكائنات الغريبة التى
تتلاعب داخل رأسى بكتاب القداىس المجلد بنى اللون.

شممتُ رائحة مزيل للعرق تحت إبطيها ونظرتُ
إلى وجهها البنى المتصدع الخالى من أى تعبير،
فلاحظتُ ندوباً خشنة فى جبينها لم أرها من قبل..
سألت:

- هل ستأتين بتمائيل جديدة بدلاً من المكسورة؟

قالت: "لن آتى بغيرها". ربما أدركت ماما أنها لن تحتاج التماثيل بعد الآن.. ربما أن بابا عندما ألقى بكتاب القداس فى اتجاه جاجا لم يكن الأمر مجرد تحطم تماثيل، بل تحطم كل شىء.. لقد أدركتُ أنا ذلك بعد أن منحت نفسى وقتاً للتفكير فيما حدث.

أرحتُ جسدى على السرير بعد ذهاب ماما، وأطلقت العنان لعقلى لكى يفتش فى السنوات التى كنا فيها، جاجا وماما وأنا، نتحدث إلى أرواحنا وأنفسنا أكثر من حديث شفاهنا، حتى كانت بداية التغير فى نسوكا، حيث العمه أفيوما وحديثها الصغيرة المجاورة لشرفة شقتها وكسرهما لحاجز الصمت. الآن يبدو لى تحدى جاجا الهش خفيف الصوت أشبه بتحدى زهرات الكركديه الأرجوانية ذات العبير الخافت والغامض فى حديقة العمه أفيوما.. ذلك النوع المختلف من التحدى الذى ينشد نوعاً مختلفاً من الحرية، ليست كتلك الحرية التى تنسدها الحشود الملوحة بأوراق الأشجار الخضراء فى ساحة المباني الحكومية بعد الانقلاب.

لكن المدى الذى ذهبتُ إليه ذاكرتى لم يقف عند حد نسوكا، بل إلى ما قبلها، عندما جفلتُ وروعتُ فجأة زهرات الكركديه الأرجوانية فى فناء منزلنا باللون الأحمر.

قبل أحد السَّعْف

- ١ -

كنت جالسة إلى طاولة المذاكرة، عندما أتت ماما إلى حجرتي ووضعت على سريري ملابس المدرسية المكومة فوق ذراعها، بعد أن أحضرتها من فوق حبل الغسيل في الفناء الخلفي للمنزل، حيث قمت أنا بتعليقها في الصباح حتى تجف. جاجا وأنا نقومان في العادة بغسيل زينا المدرسي، وسيسى عليها غسيل بقية ملابسنا، ودائماً نغمر قطعة من نسيج القماش في ماء برغوة الصابون أولاً لنتأكد من ثبات لون الصباغة، بالرغم من معرفتنا بذلك، وكلانا نحرص على أن نقضى كل دقيقة من الثلاثين دقيقة التي خصصها لنا بابا لغسيل ملابس المدرسة.

- شكراً لك ماما.. كنت على وشك أن آتي بها.

نهضت لأطوى ملابسى، فلم يكن من المناسب أن أدع شخصاً أكبر يقوم بأعمال بسيطة يمكننى القيام

بها، وهى أعمال لم يكن لدى ماما أى مانع للقيام بها .

- رزاز المطر قادم ولم أرد لها البلل

قالت وهى تجرى يدها فى زى مدرستى المكون من بلوزة رمادية وتنورة بدرجة لون بين الرمادى والأسود، تطول حتى تغطى باطن الساق.

- ستحصلين قريباً على أخ أو أخت.

حدقتُ النظر إليها وهى جالسة على سريرى وركبتها متلاصقتان:

- ستحصلين على مولود؟

ابتسمتُ وهى لاتزال تجرى يدها فوق تنورتى، وقالت:

- نعم.

- متى؟

- فى أكتوبر.. ذهبتُ إلى بارك لين أمس وراجعت طبيبى

- شكراً لله.

قلت ما يتعين على جاجا وأنا قوله، وما يتوقعه بابا منا أن نقوله.

- نعم

فى شىء من تردد، أبعدتُ ماما يدها عن تنورتى.

- الله هو القدير.. بعد ولادتك وبعد أن أجهضت

أكثر من مرة، بدأ القرويون يهمسون إلى والدك ويرسلون أناساً إليه ليحثونه على إنجاب أطفال من امرأة أخرى، لكن والدك ظل معي ومعنا ولم يفعل مثل مستر إيزيندو الذي أنجبت له زوجته الثانية الكثير من الأطفال، وكان مصير زوجته الأولى وأطفالها خارج المنزل بلا مأوى.

في المعتاد لم تكن تتحدث كثيراً في المرة الواحدة، لكن تتحدث قليلاً قليلاً بالطريقة نفسها التي يتغذى بها الطائر.

نعم، يستحق بابا الشاء لأنه اختار ألا يكون له أبناء من امرأة أخرى، ولأنه اختار ألا تكون له زوجة ثانية.. ولأن بابا كان مختلفاً، فلم أكن أرغب في أن تقوم ماما بمقارنته بمستر إيزيندو أو بأي أحد آخر، فذلك يقلل من شأنه ويحط من قدره.

- ذهبوا في القول أيضاً أن شخصاً ما قد استعان بقوة غيبية حتى لا يكتمل نمو الجنين داخل رحمى.

هزّت ماما رأسها وابتسمت تلك الابتسامة التي تغطي وجهها كله عندما تتحدث عن أناس يعتقدون في عالم الأرواح، أو عن أقارب يقترحون عليها أن تستشير طبيبة تمارس السحر، أو عن حكايات تتردد حول خصلات شعر وعظام حيوان تلف في قطعة قماش وتدفن في الفناء الأمامي للشخص المستهدف بعمل فيه ضرر وأذى أو صد نجاح أو تقدم.

- إنهم لا يعلمون أن الله له وسائل تخفى على
البشر.

- نعم.

أمسكتُ بملابسى التى حرصتُ على أن تتوازى
حوافها المطوية.. "الله له وسائل تخفى على البشر".
لم أكن أعلم رغبتها فى مولود منذ أجهضت آخر مرة
قبل ستة أشهر تقريباً، ولم أفكر فيها وبابا معاً فى
السرير الأكبر من المعتاد الذى يجمعهما.. وعندما
فكرت فى المشاعر التى تربطهما، خطر على ذهنى
كيف أن بابا فى يوم قداس الأحد يضمها بذراعيه
بحنان بعد أن تتصافح أيديهما.

- أحوالك فى المدرسة على ما يرام؟

سألتُ وهى تهتم بالنهوض؛ السؤال نفسه الذى
سألتنى إياه من قبل.

- نعم

- نعدُّ أنا وسيسى طعاماً للأخوات اللاتى
سيحضرن بعد قليل.

قالت ثم هبطت الدرج وأنا فى إثرها لكى أضع
ملابسى المطوية فوق الطاولة بمدخل الرواق لتقوم
سيسى بكيها.

سرعان ما حضرت الأخوات، وبدأن ينشدن
أغنياتهن بلغة الأجبو بمصاحبة تصفيق شديد بالأيدى
وصل صداه إلى الطابق الثانى، وسيستمر إنشادهن

لنحو نصف ساعة، ثم تتدخل ماما وتقاطعهن بصوتها الخفيض الذى لا يكاد يبلغ أعلى الدرج، حتى لو كان باب حجرتى مفتوحاً، لتخبرهن أنها أعدت لهن "شيئاً بسيطاً". عندما تبدأ سيسى فى إحضار أطباق الطعام الكبيرة المسطحة تحمل الدجاج المقلّى ومزيج الفاصوليا الجافة والبصل والفلفل بعد طهيه بالبخار والأرز بالخضراوات، يصدر عن الأخوات عتاب رقيق لماما.

- ما هذا يا أخت بياتريس؟ لماذا فعلت هذا؟
ألم نكتف بما قدم لنا فى منازل الأخوات الأخريات؟
لم يكن ضرورياً كل هذا، حقيقة.
- مجدوا الرب.

ينطلق صوت حاد يؤكد على حروف الكلمة الأولى، وبطيل من أمد حروفها بأقصى ما فى وسعه.. وتستجيب الأخوات "هلوليا" بصوت يخترق صداه حوائط حجرتى وتهتز له قطع الأثاث الزجاجية فى حجرة المعيشة. ثم بعد ذلك تشرع الأخوات فى الصلاة طالبات من الله أن يبارك فى الأخت بياتريس وكرمها وفى أعمال خير عديدة تقوم بها. بعدئذ تتصاعد أصوات الشوك والملاعق المعدنية عند قرعها الأطباق، فيصل مدى رجع صداها إلى خارج المنزل.

بينما يقمن بأداء صلاة الطعام، سمعتُ جاجا يصعد درجات السلم قفزاً، فلأن بابا لم يكن بالمنزل، كنت أعلم أنه سيأتى إلى حجرتى أولاً قبل أن يذهب إلى حجرته ليغير ملبسه كمادته أثناء وجود بابا.

- كيف حالك؟

سألته لدى دخوله مرتدياً زيه المدرسى المكون من شورت أزرق وقميص أبيض عليه شارة سان نيكولاس على صدره الأيسر ولاتزال آثار خطوط الكوافة ظاهرة على القميص من الأمام والخلف، فهو قد اختير بالانتخاب أكثر فتيان المدرسة أنيقة العام الماضى، ويومها احتضنه بابا بقوة جعلت جاجا يعتقد أن ظهره قد انكسر.

- على ما يرام.

وقف إلى جانب طاولة المذاكرة وقبّب بإهمال صفحات كتاب "المدخل إلى التكنولوجيا" المفتوح أمامى..

- ماذا تناولت فى الغداء؟

قالت عينا جاجا إنه كان يرغب لو تناولنا الغداء معاً.

كان سائقنا كيفن يأتى أولاً لياخذنى من مدرسة "فتيات القلب المقدس" بعد انتهاء اليوم الدراسى، ثم نذهب لإحضار جاجا من مدرسة سان نيكولاس، وعندما نعود إلى المنزل نتناول الغداء معاً. لكن جاجا الآن يحضر برنامج الطالب الموهوب عقب انتهائه من دروس يومه الدراسى. ولأن بابا قام بعمل تغيير فى جدول جاجا، فلم يعد بمقدورى انتظاره لتناول الغداء معه، فعلىّ أن أتناول غدائى، ثم أحصل على إغفاءة

القبيلولة، ثم أبدأ مذاكرتى فى الوقت الذى يأتى فيه
جاجا إلى المنزل.

مازال جاجا يعرف ما أتناوله على الغداء كل يوم،
فلدينا قائمة طعام مثبتة على حائط المطبخ تقوم ماما
بتغييرها مرتين فى الشهر، ومع ذلك فهو يسألنى
السؤال ذاته، وفى معظم الأحيان يسألنى أيضاً أسئلة
أخرى إجاباتها نعرفها كلانا، فى حين أننا لا نسال
تلك الأسئلة التى لا نريد أن نعرف إجابات لها.

- لدى ثلاثة واجبات لا بد أن أنتهى منها.

قال وهو يستدير ليذهب إلى حجرته.

- ماما حامل.

عاد وجلس على حافة سريرى..

- هى أخبرتك؟

- نعم.. ستلد فى أكتوبر.

أغلق عينيه لفترة ثم فتحهما..

- سنعتنى به.. سوف نحمله منه.

كنت أعلم أن بابا هو من يعنيه، لكن لم أقل شيئاً
عن حماية الرضيع.. سألته:

- كيف علمت أنه سيكون هو وليس هى؟

- أشعر بذلك، ماذا ترين أنت؟

- أنا لا أعرف.

جلس على سريري لفترة أطول قبل أن يهبط الدرج لتناول الغداء. دفعتُ كتابي جانباً وتطلعت محدقة في جدول اليوم الملصق على الحائط فوقى. كامبيلي، اسم مكتوب بحروف بارزة أعلى ورقة بيضاء مثل الحروف البارزة المكتوب بها اسم جاجا بالجدول الملصق فوق طاولة المذاكرة فى حجرته. تساءلتُ عن الوقت الذى سيستغرقه بابا حتى يقدم على وضع جدول للرضيع شقيقى الجديد، وعمما إذا كان سيقدم على ذلك فور ولادته أو ينتظر حتى يقف على قدميه.

النظام الذى يحبه بابا يتمثل فى الجداول، وفى دقة كتابتها، وفى الحبر الأسود، والشطب بالقلم على اليوم المنتهى، والفصل بين وقتى المذاكرة وإغفاءة القيلولة، وبين إغفاءة القيلولة والفترة المخصصة للعائلة، وبين فترتى العائلة وتناول الطعام، وبين وقت تناول الطعام وأداء الصلاة، وبين وقت الصلاة والذهاب إلى النوم. كانت هذه الجداول تخضع لمراجعتى من وقت لآخر، فيزيد وقت المذاكرة عن فترة إغفاءة القيلولة خلال العام الدراسى، ويزيد من الوقت المخصص للعائلة والفترة المخصصة لقراءة الصحف ولعب الشطرنج والاستماع إلى الراديو فى فترة الإجازة.

فى يوم السبت التالى لليوم الذى وقع فيه الانقلاب، وأثناء الوقت المخصص للعائلة، وعلى إثر الهزيمة التى أوقعها بابا بجاجا فوق رقعة الشطرنج،

سمعنا عبر جهاز الراديو موسيقى عسكرية ذات ألحان مهيبة جعلتنا نتوقف عما كنا فيه ونصيخ السمع. بلهجة إقليم الهاوسا، أعلن ضابط برتبة لواء عن وقوع انقلاب وتشكيل حكومة جديدة، وعن إبلاغنا فى وقت لاحق اسم رئيس حكومتنا الجديد.

دفع برقعة الشطرنج جانباً وذهب ليتحدث فى هاتف مكتبه، وانتظرناه - جاجا وماما وأنا - فى صمت. كان يتحدث إلى "إد كوكر" رئيس التحرير، ربما ليخبره شيئاً عن الانقلاب. بعد أن عاد إلينا، وبينما كان يتحدث عن الانقلاب وبتناول عصير المانجو الذى صبته لنا سيسى فى أقداح زجاجية طويلة، بدا وجهه حزيناً وبدت شفاته المستطيلتان متدلّيتين.

- انقلابات تُفضى إلى انقلابات.

تحدث عن الانقلابات الدموية التى وقعت فى الستينيات وانتهت بحرب أهلية، بعد وقت قليل من مغادرته نيجيريا للدراسة فى إنجلترا، وعن الانقلابات التى يقوم فيها رجال عسكريون بالإطاحة برجال عسكريين آخرين، لأنهم فى استطاعتهم القيام بذلك، ولأن رعوسهم جميعاً تلعب بها خمر السلطة.

بالطبع، أخبرنا بابا عن فساد رجال السياسة وعن القصص العديدة التى كتبتها صحيفة "ذى ستاندرد" حول وزراء بالحكومة قاموا بتهريب الأموال إلى حسابات سرية فى بنوك أجنبية، تلك الأموال المخصصة لدفع رواتب مدرسى المدارس ولشق الطرق.

- حكم العسكر ليس هو ما نحن النيجرين فى حاجة إليه، وإنما نحن فى حاجة إلى الديمقراطية الحقيقية.

طريقة نطقه لعبارة الديمقراطية الحقيقية أوتحت لنا بأهميتها، لكن مع ذلك بدا معظم ما قاله مهماً، بينما هو يميل إلى الخلف وينظر إلى أعلى ويتحدث وكأنه يبحث عن شىء ما فى الهواء.

كنت أركز النظر فى حركة شفثيه وأنسى نفسى أحياناً، وفى أحيان أخرى أجدنى أريد أن أظل هكذا إلى الأبد، أستمع إلى صوته وإلى الأشياء المهمة التى يقولها.. الشىء نفسه كنت أستشعره عندما يبتسم وينفتح وجهه مثل ثمرة جوز هند تنفتح عن لحمها الأبيض الناصع.

فى اليوم التالى لوقوع الانقلاب - وقبل أن يغادر لنلق بأمسية منح البركة فى كنيسة سان آجنيز - جلسنا فى حجرة المعيشة وقرأنا الصحف التى يحصل كل منا على أربع نسخ منها كان البائع يأتى بها إلى المنزل كل صباح بناءً على طلب بابا. قرأنا أولاً صحيفة "ذى ستاندرد" لأنها الوحيدة التى بها افتتاحية مهمة تدعو الحكومة العسكرية الجديدة إلى الإسراع بوضع خطة لإعادة الديمقراطية فى نيجيريا. بصوت عال قرأ بابا مقالاً فى صحيفة "نيجيريا توداى" وعمود رأى لكاتب آخر أصرَّ بأن الوقت قد حان لوجود رئيس عسكرى بعد أن أصبح رجال السياسة

خارج نطاق السيطرة وأضحى الاقتصاد فى مأزق.
- صحيفة "ذى ستاندرد" لا تكتب أبداً مثل هذا الكلام.

قال بابا وهو يلقي بالصحيفة من يده..
- من الخطأ أن تخاطب الرجل بالرئيس.
قال جاجا: "الصواب هو رئيس الحكومة".
ابتسم بابا، وتمنيت لو أننى سبقت جاجا فيما قال.
- افتتاحية صحيفة "ذى ستاندرد" جيدة.
قالت ماما. أضاف بابا - رافعاً يده فى زهو أثناء تصفحه صحيفة أخرى:

- ببساطة، كوكر" هو الأفضل

- تغيير الحرس.. أى عنوان هذا.. إنهم خائفون جميعاً، لذا يكتبون عن فساد الحكومة المدنية، وكأن لسان حالهم يقول إن الحكومة العسكرية لن تكون فاسدة.. هذه البلاد تسلك طريق الانحدار.

- الله سيحفظنا

قلت وأنا أعلم أن بابا سيحب قولى هذا.

- نعم، نعم.

قال بابا وهو يهز رأسه إلى أسفل، ثم فرد ذراعيه وأمسك يدي وعندئذ أحسست بطعم السكر فى فمى.

فى الأسابىع التالىة للانقلاب، بدت الصحف التى
كنا نقرأها - خلال الوقت المخصص للأسرة - مختلفة
وأكثر ضعفاً عند تناولها ما ىجرى فى البلاد، أيضاً
بدت صحيفة "ذى ستاندرڤد" مختلفة وأكثر جرأة فى
طرح الأسئلة عما اعتادت عليه من قبل، كما كانت
مختلفة كذلك طبيعة قيادة السيارة فى اتجاه المدرسة.
فى الأسبوع الأول بعد الانقلاب، كان كيفن السائق
يقتلع فروع الشجر الخضراء كل صباح ويكدها أعلى
السيارة لتغطى لوحة أرقامها حتى ىسمح لها
المتظاهرون فى ميدان البلدية بالمرور؛ لأن وجود فروع
الشجر الخضراء معنا ىعنى التضامن معهم. لكن فروع
الشجر لم تكن على نفس درجة تألق وبهاء
المتظاهرين، حتى أنه بعد اجتيازنا لهم كنت أفكر فى
الطريقة التى تمكنى من الانضمام إليهم وإطلاق
صیحات "الحرية" والوقوف فى طريق السيارات.

فى أسابىع أأرى آالىة - عىءما كان كىفن ىقوء
السىارة فى طرىق "أجوى" مقرباً من جنوء عىء آاجز
آفآىش قرىب من السوء ىشىرون لبعض السىارات
بالآوقف - شاهءة رجلاً راعماً إلى آانب سىارآه بىجو
٥٠٤ وذرعااه مرفوعآان عالىاً فى الهواء.

لا شىء آغىر فى منزلنا، فمازلنا - أنا وآاجا -
نآاب آءاولنا، ومازلنا نسال أءءنا الآرآك الآسآلة
الآى نعلم إآابآها.. شىء وآىء آغىر، هو بطن ماما
الآى بءآة آبرز وأصبآ آشبه فى البءاءة كرة قءم
آناقص هواؤها، لكن مع اقآراب عىء أءء العىصرة
وارآءآها رءاء الكنيسة المآرز باللونىن الأحمر
والذهبى، آكور بطنها وأآءآ معها آطوط الآطرىز
إلى أعلى. كذلك أءآآ فى المذبح ءىكورات باللون
الأحمر الممىز للعىء، وألقى قس زائر القءاس مرآءىاً
الروب الأحمر الذى بءا قصىراً آءاً عىه.

كان قساً صغىر السن، آبءو نظرة عىنىه فى معظم
الأآىان وكأآه ىسآآر كلمات من كتاب مقءس، وكان
ىقبل الإنآىل فى بطء ووجل. أآبرنا أنه فى انآظار أن
ىآم آرسىمه قساً، وأنه سعىء لأن الأب بىنىءىكآ
صءىقه طلب منه أن ىزوره وىقم القءاس. لم ىقل كم
هو آمىل مذب كنيسة سان آنىز مقارآة بغيره فى
"انوجو" وربما فى كل نىآىرىا، ولم ىذهب فى آءىآه
مآل كل القسىسىن الزآرىن الآرىن إلى أن الله ىطىل
من آلوله فى كنيسة سان آنىز لأن القءىسىن

المنقوشين بألوان قوس قزح على زجاج النوافذ بداية من الأرضية وحتى السقف، تستوقف الله وتطيل من فترة حلوله فى المكان. وكان يقطع موعظته فى منتصفها لينشد بلغة الإيجو، وتنشد معه فى نفس واحد جموع المصلين الذين اعتادوا على موعظة الأب بينيديكت التى تسير على وتيرة واحدة. لاحظتُ بابا يزمُ شفّتيه وينظر بطرف عينيه ليرى ما إذا كان جاجا وأنا ننشد مع المصلين، وبعد انتهاء القداس وقفنا خارج الكنيسة فى انتظاره حتى يفرغ من تحية أناس تحلقوا حوله.

- صباح الخير.. مجدُّ الرب.

يصافح بابا الرجال ويعانق النساء ويريت على ظهور الأطفال الصغار ويلمس بأصابعه برفق وجنات الرضع. يهمس إليه بعض الرجال ويهمس إليهم ثم يشكرونه ويصافحونه باليدين معاً قبل مغادرتهم له، وبعد أن ينتهى من تبادل التحية يصحبنا إلى سيارته بفناء الكنيسة المتسع وقد خلا من السيارات إلا قليلاً، وأصبح مثل فم به عدد قليل من أسنان متناثرة هنا وهناك.

- ذلك القس الشاب يسمح لنفسه بالغناء أثناء الموعظة مثل ملحين يتواجدون فى كنائس تنتشر وتكاثر مثل نبات الفطر، جالبين معهم المشكلات للكنيسة.

قال بابا - وهو يفتح باب السيارة المرسيديس ويضع كتاب القديس ونشرة الكنيسة على المقعد، ثم يستدير في اتجاه المبنى الذي نذهب إليه دائماً بعد القديس لزيارة الأب بينيديكت:

- دعنى أمكث فى السيارة فى انتظار عودتكم

قالت ماما وهى تستند إلى السيارة المرسيديس:

- أشعر أننى على وشك أن أتقياً .

أمسكتُ أنفاسى للحظات، خلالها استدار بابا إليها وحدث فيها:

- هل أنت متأكدة من أنك تريدن المكوث فى السيارة؟

نظرتُ إلى أسفل وقد وضعت يديها على بطنها المنتفخة لتعدل من وضع رداؤها وتغمغم:

-- جسمى ليس على ما يرام .

- أنا أسأل إذا كنت متأكدة من أنك تريدن المكوث بالسيارة .

تطلعت إليه .

- سأتى معك .. لست فى الحقيقة فى حال سيئ

لم يتغير وجه بابا أثناء انتظارها لتسير معه، وجاجا وأنا من خلفهما، نحو منزل القس . لم أكن قد لاحظت تفضن وجهها الذى بدا رمادياً شاحباً فاقداً للحيوية . تحدثت جاجا إلى بنظرة عينيه .. ماذا لو

داهمها القىء؟.. حينئذ أرفع أطراف ثوبى لكى تتقيأ فيه حتى لا نتسبب فى تلويث منزل الأب بينيديكت.

بدا المنزل وكأن المعمارى الذى قام على إنشائه قد أدرك متأخراً جداً أنه كان يتعين عليه أن يصمم مسكناً وليس كنيسة، فالمدخل الذى على شكل قوس ويفضى إلى حجرة الطعام، يشبه المدخل المؤدى إلى مذبح الكنيسة، يحتوى جزء منه على مكتب صغير مكتظ بكتب مقدسة وأردية القداس وكؤوس نبيذ القريان.

- أخ ايوجين!

جالساً إلى طاولة الطعام يتناول شرائح البطاطا المسلوقة والبيض المقلى، أسفر وجه الأب بينيديكت عن ابتسامة لحظة رؤيته بابا، وسألنا أن نشاركه الطعام، لكن بابا رفض بالنيابة عنا جميعاً واقترب منه ليتحدث إليه بصوت خافت.

- كيف حالك بياتريس؟

رفع صوته لتسمعه ماما فى حجرة المعيشة.

- لا تبدين فى أحسن حال.

- ليس سوى بعض الحساسية من الجو الممطر المحمل بالأتربة الحارة.

- وأنتما كامبيلى وجاجا، هل استمتعتما بالقداس؟

- نعم أيها الأب.

أجبنا فى صوت واحد.

أنهينا زيارتنا بسرعة أكثر قليلاً من أية زيارة لنا للأب بينيديكت. فى السيارة لم يتحدث بابا الذى كان يحرك فكه كما لو أنه يصرُّ على أسنانه، وظللنا جميعاً صامتين نستمع إلى صوت "آفى ماريا" من شريط الكاسيت. عند وصولنا المنزل، كانت سيسى قد أعدت الشاي لبابا فى إبريق صينى له يد صغيرة مزخرفة.. وضع كتاب القداس ونشرة الكنيسة فوق طاولة الطعام، وجلس بينما ماما تحوم حوله.

- دعنى أصب لك الشاي

قدمت عرضها بالرغم من أنها لم تكن قد فعلت ذلك من قبل. تجاهلها وصب الشاي لنفسه، ثم أخبرنا - جاجا وأنا - أن نأخذ رشفة.. أخذها جاجا وأعاد الكوب إلى الطبق، وبعدئذ أمسك بابا بالكوب وقربه منى فأمسكته بكلتا يدي وأخذت رشفة من شاي ليبتون بالسكر واللبن، وأعدته إلى الطبق.

- شكراً بابا

قلت وأنا أشعر بحرارة الحب فى لسانى.

صعدنا لتغير ملابسنا، جاجا وماما وأنا.. كانت خطواتنا على الدرج منضبطة وفى صمت مثل كل يوم أحد: صمت انتظار أن يصحو بابا من إغفاءة القيلولة حتى يمكننا تناول الغداء.. صمت مخصص للتأمل والتفكير فى مقطع من الكتاب المقدس أو فى كتاب يعود إلى أحد آباء الكنيسة القدامى.. صمت يلفنا فى أمسية نمضيها فى حديقة الورد.. صمت فى السيارة

ونحن فى طريقنا إلى الكنيسة لنيل منحة البركة.. حتى الوقت المخصص للعائلة فى أيام الأحاد كان يفمره الهدوء دون لعب شطرنج أو مناقشات حول ما جاء فى الصحف.

- ربما تعد سيسى الغداء بنفسها اليوم.. عليك أن تأخذى قسطاً من الراحة قبل الغداء، ماما.

قال جاجا ونحن فى أعلى الدرج المتعرج. وبينما هى تشرع فى قول شىء، توقفتُ وسارعت بوضع يدها بجانب فمها وهرعت إلى حجرتها. وظللتُ أستمع إلى صوت تأوهات القىء الحادة قبل ذهابى إلى حجرتى.

على مائدة الطعام التى حفلت بأطباق قطع الدجاج المقلى والأرز بالخضروات والحساء الحريف، خيم صمت لا يقطعه سوى زقزقة الطيور فى الخارج، التى أتت مع زخات المطر الأولى، وحطت فى أعشاش لها فى أشجار الأفوكادو، التى يراها الجالس فى حجرة الطعام، والتى فى بعض الأحيان يعثر جاجا وأنا على أعشاش سقطت على الأرض، تتألف من أغصان صغيرة ملتفة وشرائح نسيج اعتادت ماما أن تلم به جدائل شعرى وتطويه، وهى التى يلتقطها الطائر بضمه من صندوق القمامة بالفناء الخلفى.

انتهيت من الغداء أولاً.

- شكراً لله، شكراً بابا، شكراً ماما

طويتُ ذراعى إلى صدرى وانتظرتُ حتى يفرغوا من غدائهم لنصلى، بغير أن أنظر إلى وجه أى منهم،

وإنما ركزت بصرى على صورة جدى المعلقة على الحائط المقابل. عندما شرع بابا فى الصلاة على مائدة الطعام كان صوته مرتعشاً أكثر من المعتاد.. سأل الله أن يغفر للذى يعترض على إرادته، والذى يضع رغباته الأنانية فى المقام الأول، والذى لا يرغب فى تناول القربان الربانى بعد القداس.

- أمين -

تردد صوت ماما ليدوى فى كل أنحاء الحجرة.

فى حجرتى، بعد الغداء، وأنا أقرأ فصلاً فى كتاب دينى سأحدث عنه فى الوقت المخصص لاجتماعنا معاً، سمعت أصواتاً مرتفعة ثقيلة ومكتومة بباب حجرة نوم والذى المزين بنقوش. جال بخاطرى أن الباب استعصى على الفتح، وجلست مغمضة العينين، وبدأت فى العد من رقم ١، الشيء الذى خفف من حدة تلك الأصوات، التى توقفت تماماً عندما وصلت فى العد إلى الرقم ١٩، ثم سمعت صوت فتح الباب ووقع أقدام بابا على الدرج فى مشية بدت ثقيلة وأكثر ارتباكاً من المعتاد.

خطوتُ خارج حجرتى فى الوقت الذى خرج فيه جاجا من حجرته، ووقفنا نراقب بابا وهو يحمل ماما، معلقة على كتفه ويهبط بها الدرج، مثل جوال من أجولة الأرز السائب الذى يشتريه عمال مصنعه من ميناء "سيمي" .. ثم سمعنا صوت فتح الباب الأمامى وصوت بابا يقول شيئاً للبواب "أدامو".

- توجد دماء على الأرض.. سأتى بالمكنسة من الحمام.

أسرع جاجا بحك الدماء التي امتدت في خط رفيع غير مستقيم، وكأن أحداً يحمل جرّة يتسرب منها ألوان ماء حمراء على كل درجات السلم، وقمت أنا بمسح وتجفيف كل أثر للدماء.

لم تأت ماما إلى المنزل في تلك الليلة، فتناولنا العشاء بمفردنا ولم نتحدث عنها وإنما تحدثنا عن الرجال الثلاثة الذين أعدموا في الساحة العامة بعد إدانتهم قبل يومين بتهريب المخدرات. أخبرني جاجا أنه سمع بعض الصبية بالمدرسة يتحدثون عن تقرير بثه التليفزيون عن الرجال الذين ظلت أجسادهم المقيدة بالأعمدة بالساحة ترتعد حتى بعد توقف إطلاق الرصاص عليها.. وأخبرته عما قالته فتاة في فصلى عن والدتها التي أغلقت جهاز التليفزيون متسائلة لماذا يتعين عليها أن تشاهد إعدام إنسان، ومتعجبة من أولئك الناس الذين تجمعوا للفرجة في ساحة الإعدام.

بعد العشاء، وبعد أن قرأ جاجا سطوراً من الكتاب المقدس وصلى صلاة قصيرة من أجل ماما، حضر بابا إلى المنزل.. وبينما كنا في حجرتينا نستذكر دروسنا طبقاً لما هو مدون بالجدول، وأرسم عدداً من العصى منتفخة البطن على حاشية الغلاف الداخلى لكتاب "مقدمة في الزراعة للمدارس الثانوية"، قدم بابا إلى

حجرتى وعيناه متورمتان وحمراء اللون، وبدأ لى على نحو ما أكثر شباباً وأكثر تأثراً.

- ستعود والدتك غداً عند عودتك من المدرسة.

- نعم، بابا

نظرتُ بعيداً وعدت ببصرى إلى كتبى. أمسك براحتى يديه كتفى وفى حركة دائرية فركهما فى رفق.
- قفى.

وقفت، وعانقتى بقوة حتى إننى شعرت بخفقات قلبه تحت صدره اللين.

بعد ظهر اليوم التالى قام السائق "كيفن" بإحضار ماما فى السيارة البيجو ٥٠٥ المكتوب على بابيها الأماميين اسم المصنع، والتي فى الغالب تحملنا فى ذهابنا وإيابنا من المدرسة. تلامس كتفانا ونحن واقفان فى انتظارها عند الباب الأمامى الذى قمنا بفتحه قبل وصولها إليه.

- طفلاى

عانقتنا.. كانت مرتدية نفس التى شيرت الأبيض المكتوب عليه من الأمام "الله محبة" والرداء الأخضر غير المشدود كالمعتاد عند البطن وبه خياطة متعجلة من الجانب.. وفى عينيها نظرة خالية من التعبير أشبه بنظرات أولئك الذين يهيمون فى طرقات المدينة بالقرب من مقالب النفايات، حاملين حقائب قماش

ممزقة قدرة تحتوى فى داخلها على كل ما يملكونه فى الحياة.

- لقد فقدت الجنين

تراجعتُ قليلاً إلى الوراء وحدثتُ فى بطنها الذى ما يزال يبدو منتفخاً بعض الشيء وضاعطاً على رداؤها.. هل هى متأكدة من فقد الجنين؟.. كنت ما زلت أصدق فى بطنها عندما أتت "سيسى" ونتوء عظام وجنتيها يرسم تعبيراً كاريكاتورياً محيراً على وجهها، وتبدو معه كأنها تسخر أو تضحك من الناظر إليها.

- مساء الخير، مدام.. تتناولين طعامك الآن أم بعد أن تأخذى حماماً؟

للحظة، بدت وكأنها لم تدر ما قالته سيسى.

- ليس الآن، ليس الآن.. أحضرى لى قليلاً من الماء ومنشفة.

وقفتُ دون أن تحرك ساكناً وسط حجرة المعيشة بالقرب من الطاولة الزجاجية والخزانة ذات الأرفف الزجاجية الثلاثة، فوق كل رف منها تمثال صغير لراقصة باليه، حتى أتت سيسى بمنشفة مطبخ وماء فى إناء من البلاستيك، وبينما شرعتُ فى تنظيف الأرفف والتماثيل بداية من الرف الأسفل، جلستُ على أريكة جلدية قريبة منها حتى يمكن تسوية رداؤها.

- هذا وقت مذاكرتك.. اذهبى إلى حجرتك.

- أريد المكوث هنا .

فى بطء، أجزتْ قطعة قماش على سطح تمثال راقصة باليه فى وضع تبسط فيه ساقها إلى أعلى بامتداد جسدها، قبل أن تقول: "أذهبى". صعدتُ الدرج وجلست أحرق فى كتابى المدرسى، لكن حروف الكتابة السوداء بدت غائمة متراقصة وتتداخل فى بعضها البعض، إلى أن تغير لونها إلى لون الدم الأحمر المخفف بالماء الذى يسيل من ماما ومن عيني.

عند العشاء، حسناً بابا أن نتلو ست عشرة فقرة دينية مختلفة من أجل ماما طلباً للصفح. وفى يوم الأحد الأول من عيد الثالوث الأقدس، وبعد انتهاء القداس بدأنا الصلاة وتلاوة النصوص الدينية، بينما كان الأب بينيديكت ينثر على وجوهنا الماء المقدس الذى تنثر البعض منه واستقر على شفتى فتذوقته فوجدتُ ملوحته بلا مذاق. كان يتعين علينا - جاجا وأنا - ألا نخطئ فى التلاوة والصلاة وإلا فإننا سنعيد من جديد التلاوة والصلاة، كما كان لا يتعين على أن أفكر فى ذلك الشئ الذى تحتاج ماما الصفع من أجله.

- ٣ -

مع اقتراب امتحان الدور الأول وبدء دروس المراجعة، ظلت حروف الكتابة على صفحات الكتب تتلون بلون الدم، وبدت الكلمات والعبارات المدونة بلا معنى. وقبل أيام قليلة من بدء الامتحانات، وبينما كنت أستذكر دروسى وأحاول التركيز والفهم فى حجرتى التى تقع أعلى حجرة المعيشة مباشرة، دوى جرس الباب الخارجى، وتناهى إلى سمعى صوت بكاء ونشيج مرتفع صادر عن "يواند كوكر" زوجة الصحفى بصحيفة "ذى استاندرد" ..

- لقد أخذوه!.. لقد أخذوه!

- يواند. يواند.

قال بابا بصوت خافت.

- ماذا سأفعل يا سيدى؟.. لدى أطفال ثلاثة!..

أحدهم ما يزال رضيعاً!.. كيف سأربيهم وحدى؟

بصعوبة كنت أسمع صوتها المتحشرج وكأن شيئاً
فى حلقتها يمنعها من التحدث. قال بابا:

- يواند.. غير معقول قولك هذا.. إد سيكون
بخير.. أعدك.. سيكون بخير.

سمعتُ جاجا يفادر حجرته.. أعرف أنه سيهبط
الدرج مدعياً أنه فى طريقه إلى المطبخ لشرب الماء. ثم
يقف بالقرب من باب حجرة المعيشة مصيحاً السمع
للحظات. عند عودته أخبرنى أن جنوداً ألقوا القبض
على "إد كوكر" وهو يقود سيارته مغادراً مقر صحيفة
"ذى ستاندرد". تخيلت كيف استعمل جنود الشرطة
القوة لإخراجه من السيارة ثم حشره داخل صندوق
سيارة ترحيلات الشرطة سوداء اللون الممتلئة بالجنود
وبنادقهم تبرز من النوافذ، تاركين سيارته وبابها
الأمامى مفتوحاً على جانب الطريق. تخيلت أيضاً يديه
المرتعدتين من الخوف، والعرق يبلل قميصه وينظفونه.

كنت أعلم أن سبب إلقاء القبض عليه هو القصة
الإخبارية التى كتبها فى العدد الأخير من صحيفة "ذى
ستاندرد"، وأشار فيها إلى قيام رئيس الحكومة
وزوجته بدفع أموال للرجال الثلاثة الذين وقع عليهم
حكم بالإعدام مؤخراً نظير قيامهم بتهريب المخدرات
إلى خارج البلاد.

أخبرنى جاجا أنه عندما نظر من ثقب مفتاح باب
حجرة المعيشة رأى بابا يمسك يد "يواند" ويصلى
طالباً منها أن تكرر قوله:

- لن يخذل الله أولئك الذين يضعون ثقتهم فيه

هذه الكلمات نفسها قلتها فى سرى أثناء تأديتى الامتحانات فى الأسبوع التالى، وأعدت قولها أيضاً وأنا فى السيارة التى يقودها "كيفن" فى طريقى إلى المنزل فى آخر يوم لى بالمدرسة، حيث إنى كنت أضغط على صدرى بتقرير الأداء الدراسى غير المختوم بخاتم المدرسة والذى يفيد بأننى الثانية على الفصل المكون من خمس وعشرين فتاة، والمذيلة بكلمات أسفل التقرير للأخت "كلارا" معلمة الفصل: "كامبيلى هادئة وشديدة الالتزام وذكاؤها يفوق سنوات عمرها"، وكلمة للأم "لوسى" الناظرة: "ذكية ومطبعة وابنة تستحق أن يفخر بها والداها".

كنت أعلم أن بابا لن يكون فخوراً، ففى كثير من الأحيان يقول لى وجاجا إنه لا ينفق كل هذه الأموال فى مدرسة "فتيات القلب المقدس" وفى مدرسة "سان نيكولاس" لكى ندع غيرنا يحصلون على المركز الأول فى الفصل فى نهاية العام الدراسى. كنت أريد أن أجعل بابا فخوراً بى، وأن يلمس رقبتى من الخلف، ويبلغنى أننى حققت رغبته ورغبة الله.. كنتُ أحتاج أن يمنحنى ابتسامة تثير وجهه وتدفع شياً بداخلى، لكن كونى الثانية على الفصل يعنى أننى وصمت بالفشل.

قبل أن يوقف "كيفن" محرك السيارة، كانت ماما قد فتحت الباب الأمامى كعادتها عند عودتنا من آخر يوم لنا بالمدرسة لتكون فى انتظارنا لتغنى أغنيات بلغة

الإجبو وتعانقنا جاجا وأنا فى ابتهاج وفى يدها تقرير
الأداء.. لم تكن ماما بمثل هذا الصوت العالى بالمنزل
إلا فى ذلك الوقت فقط.

- مساء الخير، ماما.

توقفت عن الغناء وقالت - متسائلة -:

- كل شىء على ما يرام؟.. وجهك واجم

انتحت جانباً لتفصح لى الطريق.

- ترتيبى الثانى.

بعد فترة صمت.

- تعالى لتناول الطعام.. سيسى أعدت أرزاً بجوز

الهند.

غمرنى اضطراب شديد عند سماعى وأنا جالسة
إلى الطاولة بحجرتى صوت أقدام بابا على الدرج، ثم
دخوله حجرة جاجا الذى كان أول الفصل كالمعتاد..
لذا يحق لبابا أن يفخر به ويعانقه ويترك ذراعه
مستريحاً حول كتفيه. مكث لبعض الوقت فى
حجرتة.. ربما كان يتفحص درجاته فى كل مادة ليتأكد
أنه لم ينقص درجة أو درجتين عن درجات امتحانات
النصف الأول من العام. شىء ما جعل مثنائى تحضنى
على الإسراع إلى دورة المياه، وعند عودتى كان بابا فى
حجرتى.

- مساء الخير، بابا

- المدرسة على ما يرام.

أردت إخباره مباشرة أن ترتيبي الثانية على الفصل، وإننى قد وصمت بالفشل، لكن بدلاً من ذلك أجبت "نعم"، وناولته تقرير الأداء وأنا أحاول دون جدوى حبس أنفاسى اللاهثة.

- من أول الفصل؟

- تشينوى جيديز.

- جيديز؟.. الثانية على الفصل فى امتحان النصف الأول من العام؟

- نعم.

ظلت معدتى تصدر أصوات قرقرة دون توقف حتى بعد محاولتى شفط بطنى إلى الداخل، بينما كان بابا يطيل النظر فى تقرير الأداء.

- هيا إلى العشاء

أحسست بتخشب فى مفاصل قدمى أثناء هبوطى الدرج وجلوسى إلى مائدة الطعام. تناولت قطعة بسكوت من العلبة الخضراء التى أتى بها معه من الخارج.

- مذاقها جيد، بابا.

قضم قطعة بسكوت وراح يلوكها فى فمه، ثم نظر إلى جاجا الذى قال:

- طازجة وحلوة المذاق.

وأكدت ماما:

- مذاقها طيب جداً.

قال بابا:

- سيجد هذا البسكوت سوقاً رائجة ببركة الله
كبقية منتجاتنا من رقائق البسكوت التي تتصدر
مبيعاتها الأسواق.

لم أستطع النظر في وجه بابا أثناء حديثه على
المائدة، ولم أتمكن من ابتلاع مزيج البطاطا والفلفل
الأخضر المسلوق، برغم احتسائي كوب ماء بعد آخر،
لتشبت المزيج بفي كتشبت الأطفال بأصابع أمهاتهم
عند مدخل دور الحضانة.. في ذلك الوقت كان بابا
يتلو صلاة المائدة، وعند انتهائه منها قال:

- كامبيلي، تعال إلى أعلى.

تبعته وهو يرتقى الدرج وردفاه يهتزان ويترجرجان،
مرتدياً بيجامته الحريرية الحمراء.. ومتجهاً إلى
حجرة نومه بطلائها الأصفر الشاحب الذي يعيد
طلاءه كل عام، وبسجاداتها المخملية المطرزة قليلاً عند
الحواف، وبمقعديها ذى المسندين اللذين وضعا إلى
جانب بعضهما ليسمحا بإدارة حديث حميم. كان
الأصفر الشاحب بلون القشدة هو اللون الغالب على
كل الحجرة التي تبدو أكثر اتساعاً، والتي كانت
برحابتها ولونها الدافئ فردوس طفولتي، حيث كان
بابا يأخذني بين ذراعيه ويغطيني بدثار بلون القشدة
أشم فيه رائحة الأمان، بينما تقذف العاصفة الرعدية

المصحوبة بريح جافة مثقلة بالغبار فى الخارج بثمار
المانجو باتجاه النافذة وتحدث شرراً فى أسلاك
الكهرباء.

الآن أجلس على حافة السرير فوق دثار بلون
القشدة كالذى شممت فيه وأنا طفلة رائحة الأمان،
وقد نزع الخف عن قدمى اللتين أدخلتهما فى
السجادة المخملية التى يغطى نسيجها أصابعى
فشعرت أن جزءاً منى قد تدثر بالأمان.

- كامبيلي

تنفس بعمق وقال:

- لم تبدلى ما فى وسعك فى امتحانات النصف
الثانى، وجاء ترتيبك الثانى لأنك اخترت ذلك.

شعرت بالحزن العميق فى عينيه، لذا رغبت فى أن
أمس وجهه وأجرى يدي على وجنتيه اللتين تشبهان
المطاط، وشعرت أن هناك الكثير فى عينيه لا أدرى
عنه شيئاً.

دوى صوت الهاتف الذى قليلاً ما كان يتوقف عن
الرنين منذ إلقاء القبض على إد كوكر. استمر فى
الحديث بصوت منخفض لبعض الوقت، ثم نظر إلى
وأنا جالسة فى انتظاره وأشار بيده لكى أغادر
الحجرة. لم يستدعنى فى اليوم التالى ولا فى اليوم
الذى تلاه لكى يتحدث معى بشأن تقرير الأداء ويقدر
العقوبة التى سيوقعها على، ربما لأنه كان شديد
الانشغال بقضية إد كوكر، لكن حتى بعد أن أخرجه

من السجن الذى أمضى فيه أسبوعاً لم يتحدث معى
حول تقرير الأداء، كما لم يتحدث أيضاً عن إطلاق
سراح إد كوكر الذى عاد ليكتب افتتاحية الصحيفة
حول قيمة الحرية وكيف أن قلمه لن يتوقف عن ذكر
الحقيقة، وإن لم يذكر أين تم اعتقاله أو من الذى
ألقي القبض عليه، أو ما الذى حدث له فى فترة
الاعتقال، فقط كتب فى نهاية المقال بضعة أسطر
بحروف طباعة مائلة يشكر فيها ناشر الصحيفة
ويصفه بأنه أشجع الرجال وأكثرهم استقامة وشرفاً.

كنت جالسة إلى جوار ماما على الأريكة أثناء
الوقت المخصص لاجتماع العائلة. وقرأت تلك الأسطر
المكتوبة بحروف طباعة مائلة مرات عديدة ثم أغلقت
عينى وشعرت بشعور من الارتياح يتخللنى، الشعور
نفسه الذى غمرنى عندما تحدث الأب بينيديكت عن
بابا أثناء قداس يوم الأحد.

- شكراً لله، إد أصبح فى أمان.

قالت ماما وهى تتصفح بيديها صفحات الصحيفة.

- لقد أطفأوا السجائر فى ظهره.

قال بابا وهز رأسه.

- سوف ينالون جزاء ما فعلوا بعد أن يفادروا

الدنيا.

تمنيت لو أننى سبقتها فى هذا القول الذى وجد
صدى طيباً عنده حتى وإن لم يبتسم فقد بدا وجهه
حزيناً جداً.

- سوف تصدر الصحيفة فى الخفاء حفاظاً على العاملين فيها .

عرفت أن صدور الصحيفة فى الخفاء يعنى أنها ستصدر من مكان تحوطه السرية، وتخيلت إد كوكر وبقية الصحفيين والفنيين موجودين فى مكتب تحت الأرض، ومن فوقهم مصباح فلورسنت يغمر بضوئه الفضى الحجرة المظلمة الرطبة، وقد جلس كل واحد منهم إلى مكتبه محنى الرأس ليكتب الحقيقة.

فى تلك الليلة، أضاف بابا فقرات إلى صلاته يطلب فيها من الله أن يأتى بنازلة من عنده لتصيب أولئك الطغمة التى تحكم البلاد .

بعد الانتهاء من الأجازة المدرسية السنوية القصيرة التى لم تطل أكثر من أسبوعين، وفى آخر يوم سبت قبل بدء العام الدراسى الجديد، قامت ماما باصطحابنا - جاجا وأنا - إلى السوق لكى تشتري لكل منا حذاءً وحقيبة جلدية برغم عدم احتياجنا لهما لأن ما لدينا لايزال جيداً، وذلك لحرصها على خروجنا معاً إلى السوق قبل بداية كل نصف عام دراسى جديد بدون الحصول على إذن من بابا . قمنا بفتح زجاج نوافذ السيارة التى يقودها كيفن، وعند مرورنا بأطراف السوق بدأنا نحدق النظر فى أولئك الرجال نصف العراة بشعورهم المشعثة المغبرة بالقرب من صناديق النفايات، وفى رجال اعتادوا قضاء حاجاتهم وقوفاً عند الزوايا والأركان، وفى نسوة يساومن بصوت عال وأمامهن أكوام من الخضراوات .

داخل السوق يقوم بائعون بجذب ملابسنا لى
نتبعهم فى مسارات مظلمة قائلين "لدى ما تريد" أو
"تعالوا معى، قريب من هنا" دون أن يكون لديهم أية
فكرة عما نريد. تتصاعد من حولنا روائح اللحوم
المذبوحة التى تقطر منها الدماء، وروائح من الأسماك
المجففة، فنضغط بأصابعنا على أنوفنا، فى الوقت
نفسه الذى نخفض فيه رءوسنا تقادياً للنحل الكثيف
الذى يحوم حول أرفف تصطف عليها أوان تمتلئ
بالعسل.

عند مغادرتنا السوق ومعنا مشترياتنا، شاهدنا
تجمع البعض حول بائعات الخضراوات يفتشون
الأرض، وحولهن عدد من الجنود، ونسوة يطلقن
صيححاتهن ويضربن بأيديهن على رءوسهن ووجوههن
ما يشى بالهلع واليأس المطبق، وإحداهن ملقاة على
الأرض تنتحب وتذرف الدموع وقد حل دثارها عن
ملابسها الداخلية.

- هيا أسرعوا.

صاحت ماما وهى تدنو منا، فأحسست أنها لاتريد
أن نرى ما يفعله الجنود بالنسوة. وبينما نحن نبتعد
بسرعة عن المشهد، رأيت امرأة تبصق على جندى،
وسرعان ما رفع سوطاً طويلاً فى الهواء ونزل به على
كتفها، وجندى آخر يركل بقدمه طاولات الفاكة
ويسحق بحدائه عالى الساق ثمار الببايا الصفراء
الكبيرة وهو يقهقه ضاحكاً. فى السيارة أخبر كيفن

ماما أن الجنود لديهم أوامر بتدمير أكشاك الخضراوات والفاكهة التي انتشرت بشكل عشوائي وغير قانوني، لكنها صمتت ولم تجب بينما كانت تنظر عبر النافذة لترى آخر ما يمكنها رؤيته من المشهد.

في طريقنا إلى المنزل، سرحت بفكري في المرأة الممدة في الوحل والقذارة، التي لم أكن قد رأيت وجهها، لكنني شعرت أنني أعرفها وأنى أعرفها من زمن، لكنني تمنيت لو كنت اقتربت منها وساعدتها على النهوض ونظفت دثارها مما لحق به.

جالت بخاطري تلك المرأة يوم الاثنين عندما أبطأ بابا محرك السيارة ونحن في طريقنا إلى المدرسة لكي يلقي ببعض رقائق البطاطس المقلية إلى شحاذ مستلق إلى جانب الطريق بالقرب من نداءات أطفال يبيعون ثمار البرتقال. حملق الشحاذ في رقائق البطاطس ووقف ولوح بيده من خلفنا، ولدهشتي راح يصفق بيديه ويقفز في الهواء بعد أن كنت أحسبه كسيحاً. ظللت أراقبه في المرأة الخلفية للسيارة حتى اختفى تماماً. ذكّرني ذلك الشحاذ بامرأة السوق الممدة في الوحل، ورأيت في تصفيقه وقفزاته بؤساً من جنس البؤس الذي بدا في يأس المرأة المطبق.

الأسوار العالية المحيطة بمدرسة "فتيات القلب المقدس الثانوية"، تشبه الأسوار المحيطة بمجمعنا السكني، لكن بدلاً من لفائف الأسلاك المكهربة أعلى جدران المجمع، وضعت أعلى أسوار المدرسة قطع

خشنة من الزجاج الأخضر بحواف حادة وناثة إلى الخارج. فى رأى بابا أن النظام مهم جداً، ولا يمكن بأى حال من الأحوال قبول تسلق الشباب الصغير أسوار المدارس والذهاب إلى المدينة للتسكع والقيام بأعمال طائشة متهورة، وهو ما حدث فى كليات الحكومة الفيدرالية.

- هؤلاء الناس لا يحسنون قيادة السيارات.

عندما وصلنا بوابات المدرسة غمغم متذمراً من قائدى السيارات الذين يسابقون بعضهم البعض، ويطلقون أصوات النفير دون توقف.

- ليست هناك جائزة تنتظر من يصل مجمع المدرسة أولاً.

لفت نظرى وجود بائعات متجولات أصغر عمراً منى، يرتدين بلوزات مهترئة عند الأكتاف، ويتفادين الرجال الموجودين ببوابة المدرسة، ويقتربن من السيارات ليعرضن برتقالاً وموزاً. أخيراً، هدأ بابا من سرعة محرك السيارة واتجه بها صوب مجمع المدرسة وأوقفها بالقرب من ملعب كرة يد، خلفه مرجة خضراء تم تشذيبها.

- أين فصلك؟

أشرتُ له بيدي نحو البناية المجاورة لمجموعة أشجار مانجو. خرج من السيارة وأنا معه أفكر فيما سيقدم عليه وفى سبب قدومه إلى هنا.

ونحن نتجه إلى الفصل، رآته الأخت مارجریت أثناء وقوفها مع عدد من الطالبات وأولياء أمورهن، ولوحت له فى مرح، وسارعت بالاقتراب منا وقد تدافعت كلماتها المرحة بسخاء من فمها حول أخباره، وما إذا كان سعيداً بتقدمى فى المدرسة، وما إذا كان سيتواجد فى حفل استقبال الأسقف الأسبوع التالى.

بدل بابا من نبرات صوته أثناء حديثه حتى تشبه نبرات صوت شخص بريطانى الجنسية، تماماً مثل حرصه أثناء حديثه مع الأب بينيديكت على أن يبدو فى صورة الرجل المهذب المتدين، كما حدث عندما قدم شيكاً مصرفياً بمبلغ من المال هدية منه لإجراء تجديدات بمكتبة مدرسة "بنات القلب المقدس".

بعد إبلاغها أنه جاء لكى يرى الفصل الذى أدرس فيه، سألته الأخت مارجریت عما إذا كان فى حاجة إلى أى شىء.

- أين "تشينوى جيديز"؟

فى تلك الأثناء كانت مجموعة من الفتيات يقفن بباب الفصل يتحدثن وفى وسطهن كالمعتاد تقف تشينوى ببشرة وجهها الفاتحة بعض الشىء. سألت نفسى عما يريده بابا، وما إذا كان سيتحدث إليها، وما إذا كان سيجذب طرف أذنها لأن ترتيبها الأولى على الفصل، وتمنيت فى تلك اللحظات أن تنشق الأرض وتبتلع كل من فى المكان. قلت:

- إنها الفتاة التى فى وسط المجموعة.

- انظري إليها .. كم عدد ما لديها من رعوس؟

- واحدة.

لم أكن في حاجة إلى النظر إليها لكي أعرف،
لكنني نظرت إليها على أية حال. أخرج من جيبه مرآة
صغيرة بحجم مرآة علبة الماكياج.

- انظري في المرآة.

حدقتُ فيه.

- انظري في المرآة.

أمسكتُ بالمرآة وحدقت فيها.

- كم عدد ما لديك من رعوس؟

سأل بلغة الإجبو للمرة الأولى.

- واحدة.

- الفتاة لها رأس واحدة أيضاً، ليس لها رأسان،

لماذا إذن تدعيها تتفوق عليك ويكون ترتيبها الأولى؟

- لن يحدث ذلك ثانية، بابا.

في تلك الأثناء، هبت عاصفة رعديّة محملة
بالغبار، واتخذ البرق في السماء شكلاً لولبياً، واستقر
في فمي مذاق الرمل.

- لماذا برأيك أبذل الجهد والعرق لأوفر لك وجاجا

الحياة الأفضل؟ .. يتعين عليك أن تفعل شيئاً مع كل
هذه الامتيازات .. الله الذي منحك الكثير يتوقع منك
الكثير .. يتوقع الله منك الكمال .. لم يتسنّ لأبي أن
يدخلني أفضل المدارس .. فعملت صبيّاً في خدمة

منزل أسقف الأبرشية لمدة عامين.. نعم، عملت خادماً
فى منزل.. لم أجد أحداً يوصلنى بالسيارة إلى
المدرسة الابتدائية فى نيمو على بعد ثمانية أميال كل
يوم، وأثناء التحاقى بمدرسة سان جريجورى الثانوية
عملت بستانياً لعدد من الأساقفة.

كنت قد سمعت كل هذا من قبل، فأطرقت برأسى
وغمرنى شعور بالحذر، وتمنيت ألا تكون فتيات
الفصل قد انتبهن إلى المحادثة الطويلة التى جرت
بينى وبينه، وأخيراً توقف عن الحديث وأعاد المرآة إلى
جيبه، وقال:

- كيفن سيأتى بالسيارة ليقلك إلى المنزل.

- نعم، بابا.

- وداعاً، استذكرى دروسك جيداً.

وعانقنى وهو فى عجلة من أمره.

- وداعاً، بابا.

أطلت النظر إليه وهو يتجه إلى الممر الذى تحفه
شجيرات خضراء غير مزهرة إلى أن دق جرس طابور
الصباح.

- الآن يا فتيات.. كفاكن ضجيجاً

كررتُ الأم لوسى عبارتها عدة مرات. كنت أقف
فى الصف الأمامى كالمعتاد، وفى الصف الخلفى زمرة
فتيات يهمسن ويقهقهن بعيداً عن أعين المدرسات
الواقفات على منصة مرتفعة، واللاتى يرتدين أردية

الراهبات ذات اللونين الأبيض والأزرق. بعد أن انتهينا من غناء إحدى الترانيم الكاثوليكية، قرأت الأم لوسى سطوراً من الكتاب المقدس، ثم أنشدنا النشيد الوطنى الذى بدأ إدخاله فى طابور الصباح بمدرسة بنات القلب المقدس العام الماضى بناءً على رغبة بعض أولياء الأمور فى تعريف بناتهن بالنشيد الوطنى وبالقسم الذى يؤديه طلبة المدارس فى بداية كل عام دراسى.

كنت أرقب الأخوات أثناء أدائنا للنشيد، فوجدت أن الأخوات النيجيريات فقط كن ينشدن وتلتمع أسنانهن البيضاء وسط بشرتهن السوداء، أما الأخوات البيض فكن يقفن وأذرعهن متشابكة على صدورهن، ويلمسن بخفة حبات المسبحة الزجاجية التى تتدلى من صدورهن وهن يراقبن باهتمام حركة شفاه الطالبات. ثم بدأت الأم لوسى تحديق النظر من خلف عدساتها السمكية فى صفوف الطالبات، لتلتقط كعادتها طالبة لكى تقرأ القسم الذى سترده بعدها بقية الفتيات.

- كامبيلى أتشيكى، من فضلك رددى القسم.

لم يسبق أن اختارتنى الأم لوسى من قبل.. فتحت فمى لكن الكلمات لم تخرج.

- كامبيلى أتشيكى؟

تحولت أنظار الأم لوسى وبقية المدرسة نحوى.. وبينما أحاول بكل طاقتى أن أخرج كلمات القسم من حلقى، غمر جسمى عرق دافئ.

- كامبيلي؟

أخيراً وأنا أفأفئ وأتأتئ وأجاهد لكى أهدئ من
سرعة أنفاسى: "أقسم لك يا بلادى نيجيريا، أن أظل
وفية ومخلصة وصادقة" .. وطالبات المدرسة يرددن من
خلفى.

بانتهاء الطابور، توجهنا إلى فصولنا، وبدأنا نمارس
الشيء نفسه الذى نمارسه فى اليوم الأول من كل عام
دراسى، كالشجار عند اختيار أماكن الجلوس، وإزالة
الغبار عن الكراسى والأدراج، وكتابة جدول حصص
الفصل المكتوب على السبورة.

- كيف أمضيت أجازتك، كامبيلي؟

سألتنى إزنى بعد أن مالت بجسدها نحوى.

- على ما يرام

- هل سافرت إلى الخارج؟

- لا .

لم أدر ماذا يتعين على أن أضيفه، لكننى أردت
بشدة أن أنقل إليها تقديرى لها لأنها دائماً تعاملنى
بلطف رغم افتقارى للباقة ولطلاقة اللسان، كما أردت
أن أقول لها: شكراً لأنك لا تضحكين منى ولا تصفينى
بالمكبرة الخرقاء، مثل بقية الفتيات .. لكن ما تلفظت
به من الكلمات كان:

- هل سافرت ؟

ضحكت إزنى ..

- أنا؟.. إنهم أناس مثلك وجابرييلا وتشينوى هم الذين يسافرون.. أناس من عائلات ثرية.. لم أذهب إلا إلى القرية لأزور جدتى.. لماذا جاء والدك هذا الصباح؟

بعد أن تزاومت الحروف على شفتى توقفت لكى ألتقط أنفاسى..

- أراد أن يرى فصلى.

- أنت تشبهينه كثيراً.. أعنى أنك ضئيلة الحجم لكن الملامح والقسمات واحدة.

- نعم.

- سمعت أن تشينوى أخذت منك المركز الأول على الفصل؟

- نعم.

- بالتأكيد والداك ليس لديهما اعتراض على ذلك.. هاها.. فأنت حافظت على ترتيبك الأولى على الفصل منذ بداية المرحلة الدراسية.. أتدرين، تشينوى سافرت مع والدها إلى لندن

- وأنا جاء ترتيبى الخامسة على الفصل بعد أن كنت الثامنة، لكن فى المدرسة الإعدادية كنت دائماً الأولى على الفصل.. أنت تعرفين أن التنافس على المراكز الأولى من سمات فصلنا.

اقتربت تشينوى جيديز من طاولة إزنى، وقالت بصوتها الحاد:

- أريد أن أظل ضابطة الفصل فى نصف العام الحالى يا عزيزتى إزى، وأحب أن تعطينى صوتك.
كانت تنورتها المدرسية الضيقة عند الخصر قد قسمت جسدها إلى نصفين دائريين، أشبه برقم ثمانية بالإنجليزية.

- بالطبع

قالت إزنى. لم أدهش عندما مرت تشينوى من أمامى إلى الفتاة الجالسة إلى جانبى، وكررت طلبها، لأنها لم يسبق لها أن تحدثت معى، حتى عند انضمامنا معاً إلى مجموعة العلوم الزراعية، لنجمع بذوراً ونضعها فى اليوم.

أثناء الفسحة القصيرة، تجمعت الفتيات حول طاولتها ولم تتوقف ضحكاتهن، وعند تفرقهن بدت مشيتها وكأنها تسير على سطح ساخن، ترفع إحدى ساقها بمجرد أن تلمس ساقها الأخرى الأرض. وأثناء الفسحة الكبيرة، التى أفضيها عادة فى القراءة بالمكتبة، وثبت تشينوى فجأة أمام مجموعة فتيات لحظة توقفهن أمام المقصف لشراء البسكوت والكوكا، وأصرت على دفع ثمن مشروباتهن.

همست إزنى:

- تريد تشينوى أن تتحدثى أنت إليها أولاً.. لقد

بدأت تصفك بالمتكبرة الخرقاء التى لا تتحدث إلى أحد، وتقول إن امتلاك والدك لصحيفة وكل تلك المصانع لا يعنى أن يملكك الغرور، فوالدها أيضاً من الأثرياء

- أنا لست متكبرة أو مغرورة

- اليوم، أثناء طابور الصباح على سبيل المثال، قالت إنك مغرورة لأنك لم تسارعى بأداء القسم مباشرة عندما نادى عليك الأم لوسى.

- لم أسمع نداء الأم لوسى فى المرة الأولى.

- أنا لا أقول أنك متكبرة.. أنا أقول ما تعتقده تشينوى ومعظم الفتيات.. ربما يتعين عليك أن تحاولى التحدث إليها.. ربما يتعين عليك أن تكفى عن الركض وتسيرى معنا وإلى جانبنا حتى بوابة المدرسة بعد انتهاء اليوم الدراسى.. لماذا دائماً تركضين على أية حال؟

- أنا أحب الركض.

حدثتُ نفسى بأن حبى للركض هو الكذبة التى سأعترف بها فى اعترافى بالكنيسة فى السبت المقبل، وإنها كذبة ستضاف إلى كذبة عدم سماعى لنداء الأم لوسى فى المرة الأولى. وفى حقيقة الأمر أيضاً أن كيفن يكون فى انتظارى بالسيارة البيجو ٥٠٥ أمام بوابات المدرسة قبيل انطلاق جرس انتهاء اليوم الدراسى، ولديه العديد من المهام التى عليه أن ينفذها

لبابا، ودائماً لم يكن مسموحاً لى أن أدعه ينتظر،
ولذلك كنت أندفع خارجة من الفصل مهرولة وكأنتى
فى سباق عدو ٢٠٠ متر، حتى أنه فى مرة من المرات
قام كيفن بإبلاغ بابا أننى تأخرت عليه بضع دقائق،
فعاقبنى مباشرة بصفتين على خدى الأيمن والأيسر،
وتركتُ راحة يده الضخمة علامات متوازية على
وجهى وطنيناً فى أذنى استمر لأيام.

- لماذا؟

سألت إيزينى.

- إذا أنت توقفت وتحديث إلى الآخرين، عندئذ
ربما يدركون أنك لست متكبرة كما يظنون
قلت ثانية: "أنا أحب العدو فقط لا غير".

- ٤ -

كنتُ تلك المتكبرة الخرقاء فى نظر معظم فتيات
فصلى حتى نهاية نصف العام الدراسى، ولم يكن
يقلبنى هذا كثيراً قدر قلبنى بشأن ضرورة أن أحصل
على ترتيب الأولى على الفصل، وهو الحمل الثقيل
الذى أحمله على عاتقى، ويشبه وضع كيس حصى
فوق رأسى ومطلوب منى الحفاظ على توازنه
واستقراره دون مساعدة من يدي. وظلت الحروف
بصفحات كتبى تتخذ شكل بقع حمراء أرى فيها
خيوط الدم المنسالة من جسد ماما الحامل بأخى
الجنين، بينما كنت أجاهد لكى أحفظ عن ظهر قلب
ما تقوله المدرسات، ولكى أستذكر دروسى عند عودتى
إلى المنزل، لكن غصة فى حلقى كنت أشعر بها فى
نهاية كل اختبار.

بحلول أجازة رأس السنة فى بداية شهر ديسمبر،
وبينما كان كيفن يقلبنى إلى المنزل، أمعنت النظر فى

تقرير أدائي فرأيت ١/٢٥ (الأولى على الفصل المكون من خمسة وعشرين طالبة)، مكتوباً بخط اليد المائل، وكان على أن أدقق النظر لأتأكد انه ليس ٢٥/٧ (السابعة على الفصل المكون من خمسة وعشرين طالبة).. فى تلك الليلة غلبنى النوم وأنا أحتضن وجه بابا المشرق، وصوته يقول لى، كم هو فخور بى وكيف أننى حققت ما يتوقعه الله منى.

مع قدوم شهر ديسمبر وأعياد رأس السنة، هبت الرياح الجافة المثقلة بغبار الصحارى، حاملة معها أوراق الشجر التى تغطى كل شىء بغلالة بنية. مثل كل عام، نقضى فترة أعياد رأس السنة فى بلدتنا، تلك الفترة التى أطلقت عليها الأخت فيرونيكا "موسم الهجرة إلى الإجبو"، متعجبة - وهى تتحدث بلكنة أيرلندية تتدحرج فيها الكلمات فوق لسانها - من أناس الإجبو الذين يقومون ببناء منازل كبيرة فى بلدانهم ولا يقضون فيها غير أسبوع أو أسبوعين، بينما يقضون بقية العام فى المدينة.

فى يوم مغادرتنا كانت ريح الصباح شديدة السرعة تحرك أشجار الصنوبر فتتمايل وتثنى كأنها تنحنى احتراماً لآلهة التراب، وأغصانها وأوراقها تطلق أصوات صفير تشبه صفير حكم مباراة كرة القدم. أمام المنزل توقفت السيارات وأبوابها وحقائبها مفتوحة فى انتظار بابا ليقود السيارة المرسيديس وماما إلى جواره فى المقعد الأمامى، وجاجا وأنا فى المقعد الخلفى، وكيفن يقود سيارة المصنع ومعه سيسى

وصنداى الذى يقود السيارة الفولفو بدلاً من كيفن خلال أسبوع إجازته السنوية.

إلى جانب أشجار الكركديه الأرجوانية، وقف بابا وإحدى يديه بجيب بنطلونه واليد الأخرى يشير بها معطياً التوجيهات الخاصة بوضع متعلقات الرحلة فى حقائب السيارات، مؤكداً وضع حقائب الملابس فى السيارة المرسيدس، وأحمال البطاطا وكراتين العصير فى السيارة البيجو ٥٠٥، وأجولة الأرز والموز والفاصوليا فى السيارة الفولفو.

أتى أدامو من مكانه بالبوابة لكى يساعد صنداى وكيفن فى تحميل السيارات بالأحمال الثقيلة من ثمار البطاطا الكبيرة فى حجم جرو صغير، التى امتلأت بها حقيبة السيارة البيجو ٥٠٥ وجوال من الفاصوليا الجافة وضع فى المقعد الأمامى بجوار مقعد سائق الفولفو على نحو يشبه شخصاً استغرق فى النوم. قاد كيفن وصنداى سيارتيهما أولاً، وفى إثرهما سيارتنا حتى يمكننا رؤيتهما إذا قام جنود بإيقافهما عند حواجز الطرق.

قبل أن يدير محرك السيارة، قام بابا بتلاوة بعض الصلوات، وبالمثل قمنا ماما وجاجا وأنا بتلاوة أجزاء أخرى، وعلى مهل قاد بنا السيارة فى الطريق السريع ذى الحارة الواحدة واتجاهى السير.. وأثناء سيرنا خلف شاحنة كبيرة تتمم بخطورة القيادة فى الطرق السريعة التى بسبب تفشى الفساد فى البلاد، تمت

سرقة الأموال المخصصة لتوسيع عرض الطريق السريع ليصبح حارتين لاتجاهى السير.. فى تلك الأثناء، أطلقت سيارات عديدة خلفنا أصوات أبواقها وتجاوزتنا مسرعة، وبعضها كان محملاً ببطاطا الكريسماس وأجولة الأرز وكراتين المياه الغازية.

بعد قطع مسافة تسعة أميال، أوقف بابا السيارة لشراء خبز، وسرعان ما تجمع عند نوافذ السيارة باعة متجولون يعرضون البيض المسلوق والكاجو المحمص وزجاجات المياه والخبز، ويصيحون: "اشترى منى، سأبيعك بسعر جيد" .. "انظر إلى، ستجد عندي ما تريد". لم يشتر بابا سوى الخبز، لكنه أعطى ورقة مالية من فئة عشرين نايرا لكل بائع من الباعة المتجولين الذين علت أصواتهم بعبارات "شكراً سيدي، باركك الله" .. وظل صدى هذه الأصوات يتردد فى أذنى طوال الطريق حتى مشارف أبا.

استدار بابا بالسيارة اللافتة الخضراء - المكتوب عليها "مرحباً بكم فى مدينة أبا"، التى كان من السهل أن تخطئها أعيننا لصغر حجمها - إلى طريق غير ممهد، وسرعان ما بدأت إطارات السيارة المرسيديس تحدث أصواتاً خشنة أثناء سيرها الحثيث فوق أكوام قاذورات أنضجتها الشمس الحامية. بعد قليل من الوقت شهدتُ أناساً يلوحون بأيديهم ويهتفون بلقب بابا "أوميلورا"، ومن خلفهم بدت أكواخ مصنوعة من الطين والقش تجاور بيوتاً من ثلاثة طوابق محاطة ببوابات معدنية مزخرفة، وتحت الأشجار يجلس رجال

على مقاعد خشبية مستطيلة يحتسون شراب عرق
البلح من قرون البقر المجوفة وأكواب زجاجية مغبشة،
وفى الساحة الترابية المجاورة يلعب أطفال نصف
عرايا بكرة قدم متهالكة لا ترتد عالياً عند ملامستها
الأرض.

عند اقتراب السيارة التى غطاها الغبار من البوابة
السوداء الواسعة لبيتنا الريفى، لوح ثلاثة رجال
عجائز واقفين تحت شجرة أوكوا وحيدة فى صوت
عالٍ:

- لقد عدت!.. سوف نأتى لنسلم عليك.

فى تلك الأثناء فتح الحارس البوابة، وقال بابا وهو
يرسم علامة الصليب على صدره:

- شكراً لله على وصولنا فى سلام.

إلى فناء منزلنا المكون من أربعة طوابق وبه نافورة
محاطة من الجانبين بأشجار جوز هند ومن حولها
أشجار برتقال، تدافع أطفال ثلاثة يرتدون سراويل
قصيرة تظهر سررة البطن لتحية بابا بعد أن ركضوا
طويلاً خلف سيارتنا أثناء سيرها فى الطريق غير
الممهّد الموحل. أعطى بابا كل واحد منهم ورقة مالية
من فئة عشرة نايرات(*)، أخرجها من لفة أوراق مالية
بجيب بنطلونه، وقال:

- أبلغوا سلامى لأبائكم وأمهاتكم ولا تنسوا أن

تطلعوهم على هذه النقود.

(*) عملة نيجيرية.

- نعم، شكراً.

وانطلقوا سريعاً إلى خارج الفناء ضاحكين بصوت عال.

أفرغ كيفن وصنداى أحمال المواد الغذائية، وأفرغنا - جاجا وأنا - حقائب الملابس التى أحضرناها من السيارة المرسيديس، وذهبت ماما ومعها سيسى إلى الفناء الخلفى لوضع حامل موقد الطبخ المعدنى فى المكان الذى يتم فيه طهى اللحم والأرز والخضار والحساء فى أوان كبيرة تسع لحم شاة لإطعام الزوار. وكالمعتاد تقوم ماما وسيسى بطهى طعامنا فى موقد الغاز داخل حجرة المطبخ، بينما تأتى زوجات الرجال الذين يقومون بأعمال الخدمة لكى يقمن بالطهى فى الفناء بعد أن يطلبين من ماما أن تأخذ قسطاً من الراحة بعد إجهاد العيش شهوراً متصلة فى المدينة، فلا تكاد ماما تفعل شيئاً سوى النصح بزيادة مقدار الملح أو عدد مكعبات ماجى فى الحساء. وعند نهاية الأجازة فى كل عام، تأخذ النسوة عند مغادرتهن منزلنا ما تبقى من دهن اللحم والأرز والفاصوليا الجافة وزجاجات المياه الغازية والبيرة.

دائماً نكون جاهزين لإطعام كل أفراد القرية فى أعياد رأس السنة، بحيث لا يفادر أى شخص منهم فناء المنزل إلا بعد تناول طعام وشراب يحقق له بحسب قول بابا "قدراً معقولاً ومناسباً من الرضا". لكن على كل حال، لم يكن وحده بابا الذى يحمل لقب

"أوميلورا" ويعنى "الرجل صاحب الأيادى البيضاء لأفراد مجتمعه"، يستقبل زواراً قرويين فى منزله الكبير فى أعياد رأس السنة، فهناك منازل كبيرة أخرى تستقبل قرويين بأعداد كبيرة، وفى بعض الأحيان يحملون معهم عند مفادرتهم طعاماً وشرباً.

جاءا وأنا كنا فى الطابق العلوى نفرغ حقائب الملابس، عندما أخبرتنا ماما: "إد كوكر وعائلته فى طريقهم إلى لاجوس وسيأتون لكى يهنئونا بأعياد رأس السنة.. هيا إلى الطابق الأرضى لنكون فى استقبالهم".

إد كوكر قصير القامة، ممتلئ الجسم، كثير المرح.. فى كل مرة ألتقيه، أحاول أن أتخيله أثناء كتابته لتلك الافتتاحيات فى صحيفة ذى استاندرد، وأثناء تحديه للجنود، لكن فى كل مرة أفضل فى محاولتى، ربما لأنه مبتسم دائماً ويشبه دمية بحركاته الآلية وبوجنتيه الأشبه بوسادتين تتخللهما خطوط مستقيمة وتجاويف متناثرة، وبنظارته ذات العدسات الزرقاء التى سمكها أكبر من سمك العوارض الخشبية المنحنية للنافذة، ويحيط بها إطار من البلاستيك الأبيض. عند وصوله منزلنا، كان يلقي بطفله الرضيع الذى يعد نسخة مصفرة مكورة منه فى الفضاء، وكانت ابنته الصغيرة تقف إلى جواره تسأله بإلحاح أن يلقي بها هنى أيضاً عالياً فى فضاء المكان.

- جاءا، كامبيلى، كيف حالكما؟

قبل أن نجيب راح يقهقه بصوت عال مشيراً إلى
طفله الرضيع قائلاً:

- يقولون إنه كلما ألقيت بالأطفال الصغار إلى
أعلى، كلما أصبحوا أكثر قدرة على تعلم الطيران!
فى تلك الأثناء كانت لثة الطفل الرضيع الأرجوانية
ولسانه وفمه تصدر أصواتاً غير مفهومة، وعندما
اقترب بوجهه ويديه إلى نظارة والده، سارع إد كوكر
بإمالة رأسه إلى الوراء، وبالبدء فى الإلقاء به ثانية
إلى أعلى فى فضاء المكان.

عانقتنا زوجته يواندا وسألت عن أخبارنا، ثم قامت
فى مرح بضرب كوكر على كتفه وأخذت الطفل منه..
وأنا أنظر إليها تذكرت صوت بكائها ونحيبها المختق
والمتحشرج وهى تتحدث إلى بابا بعد إلقاء القبض
على زوجها.

- هل تحبون المجيء إلى القرية؟

نظرنا إلى بابا الجالس على الأريكة ويقرأ مبتسماً
بطاقات تهنئته بأعياد رأس السنة.

- نعم.

- إذن، أنتما تحبان المجيء إلى الأدغال؟

وتساءل ثانية بعد أن اتسعت عيناه على نحو
مسرعى:

- هل لديكما أصدقاء هنا؟

- لا .

تابع مشاكسته:

- ماذا تفعلان فيما وراء العالم هنا، إذن؟

ابتسمنا - جاجا وأنا - ولم نقل شيئاً.

- هم دائماً فى غاية الهدوء

وكرر بابا قوله: "فى غاية الهدوء" .. وأضاف:

- هم ليسوا مثل أولئك الشباب الصغير الصاعد

مرتفع الصوت هذه الأيام بغير تربية فى المنزل وبدون
خوف من الله

كنت متأكدة من أن كلمات الزهو هذه على شفتى

بابا قد استثارت إد كوكر الذى قال: "تخيل حال

ذى استاندرد لو أننا جميعاً كنا فى غاية الهدوء!" ..

ضحك إد كوكر وزوجته يواندا، لكن بابا لم يشاركهما

الضحك، وأدرنا جاجا وأنا وجهينا وغادرنا صامتين.

أيقظنى صوت حفيف سعف شجرة جوز الهند،

وأمكننى سماع ثغاء الماعز وصياح الديكة خارج بوابات

منزلنا، وأصوات قرويين يتبادلون التحيات والحديث

بصوت عال يخرق جدران بيوت الطين .. "صباح

الخير .. هل استيقظت؟ .. كيف أصبحت أنت وأهل

بيتك؟". بسطتُ يدي لكى أفتح العوارض الخشبية

بنافذة حجرة نومى فتعالت الأصوات ودخل هواء نقى

مشبع برائحة ثمار البرتقال وروث الماعز.

نقر جاجا بأصابعه على باب حجرتى الملاصقة
لحجرته على عكس حجرتينا البعيدتين عن بعضهما
فى "إنوجو"، وعند دخوله سألتنى:

- هل استيقظت؟.. دعينا نهبط إلى الطابق
الأرضى لنصلى قبل أن يبعث بابا فى طلبنا.

أحكمتُ ربط الدثار الذى أستخذه كغطاء خفيف
فوق رداء النوم فى الليالى الدافئة، وتبعْتُ جاجا إلى
أسفل.

ممرات وطرقات واسعة، ورائحة الأبواب المغلقة
معظم أيام السنة، والحمامات والمطابخ ودورات المياه
غير المستخدمة، والحجرات غير المسكونة، جعلت من
منزلنا أشبه بالفندق. فى زيارتنا السنوية نستخدم
فقط الطابقين الأول والثانى، والطابقان الآخران قمنا
باستخدامهما منذ سنوات عندما حصل بابا على لقب
"أوميلورا" الذى كثيراً ما كان أفراد قريتنا يحثونه على
الحصول عليه حتى وهو لا يزال مديراً لشركة ليفينتس
وقبل أن يشتري المصنع الأول، مؤكداً له أنه ثرى بما
يكفى لحصوله على اللقب، كما أنه لم يسبق أن حصل
عليه أحد من أفراد القرية من قبل. وعندما قرر بابا
أخيراً الحصول على اللقب بعد إصرار من قس
الأبرشية، أقيمت احتفالية سبقها قيام عدد من
السيارات بإزالة النفايات بالطرق المؤدية إلى أبا، وفى
تلك الأثناء امتلأ الطابقان الثالث والرابع بزحام من
الناس.

- سوف يجتمع بابا اليوم بأعضاء الكنيسة.. لقد سمعته يتحدث إلى ماما.

- فى أى وقت سيعقد الاجتماع؟

- قبل الظهر.

قال جاجا وأوما بعينيه أنهما يمكنهما عندئذ قضاء بعض الوقت معاً. فى أبا، لا جداول تحدد لنا أوقاتنا، لذلك تحدثنا جاجا وأنا كثيراً، ولم يمكث كلانا وحيداً فى غرفته إلا قليلاً. حدث ذلك ربما لأن بابا كان منشغلاً فى استقباله العديد جداً من الزوار وفى حضور اجتماعات مجلس المدينة التى تمتد حتى منتصف الليل، أو ربما لاختلاف طبيعة أناس أبا الذين يتوافدون إلى منزلنا الكبير ساعة يشاءون ولاختلاف طبيعة هوائها الذى يتحرك ببطء.

بابا وماما كانا فى إحدى حجرات المعيشة الصغيرة التى توصل إلى حجرة المعيشة الرئيسية فى الطابق الأرضى.

- صباح الخير بابا.. صباح الخير ماما.

سأل بابا: "كيف حالكما؟". أجبتنا: "على ما يرام". يشير البريق فى عيني بابا وهو يقلب فى صفحات الكتاب المقدس المجلد بجلد أسود مصقول إلى أنه مستيقظ منذ ساعات، بينما ماما، تغالب النوم وتحك عينيها الجاحظتين، وتساءلنا عما إذا كان نومنا هادئاً. فى تلك الأثناء، تنهى إلى سمعى أصوات قادمة من

حجرة المعيشة الرئيسية تشير إلى قدوم ضيوف، وبينما كنا جميعاً فى وضع الركوع حول طاولة نرسم علامة الصليب على صدورنا سمعنا طرقات على الباب، وكان الطارق رجلاً فى منتصف العمر رث الملابس ينظر نظرات مختلطة خائفة.

"أوميلورا" .. صاح الرجل بصوت جهورى اعتاده الناس عند مخاطبتهم آخرين بألقابهم.

- سأغادر الآن وأريد أن أعرف ما إذا كان باستطاعتى شراء أشياء لأطفالى بمناسبة أعياد رأس السنة.

تحدث الرجل بالإنجليزية بلكنة أهل الإيجبو، وكان بابا يحب القرويين الذين يبذلون ما وسعهم الجهد للتحدث معه بالإنجليزية.

- أوجبتمبالا .. انتظر حتى أنهى صلاتى مع عائلتى، فأنا أريد أن أعطيك شيئاً بسيطاً للأطفال .. وأيضاً أريدك أن تشاركنى تناول الشاى والخبز.

- أوميلورا .. شكراً يا سيدى، فأنا لم أشرب حليباً هذا العام.

ظل الرجل واقفاً بالقرب من الباب؛ ربما لأنه فكر أن مغادرته قد تتسبب فى عدم تحقق الوعد بتناول الشاى بالحليب معه.

- أوجبتمبالا، اذهب واجلس قليلاً فى انتظارى.

عاد بابا إلى القراءة فى الكتاب المقدس وإلى تلاوة بعض الترانيم ونحن نردد من خلفه بصوت عالٍ. وبعد أن لفنا الصمت للحظات، قال:

- نصلى الآن بكلماتنا نحن للروح القدس لتلتمس لنا الرحمة بإذنه.

ثم غمرنا الصمت للحظات قبل أن تبدأ ماما بصوت عالٍ صلاتها من أجل إحلال السلام ومن أجل قادة بلادنا، وأخيراً ولمدة عشرين دقيقة صلى بابا من أجل نيجيريا ومن أجل حمايتنا من الطفمة الفاسدة التى تحكمها، ومن أجلنا نحن أفراد عائلته لكى نظل نتمتع بالأخلاق القويمة، وفى النهاية صلى من أجل هداية الجد نوكوو حتى لا يكون الجحيم مصيره، وفى الختام رفعنا أصواتنا وقلنا "آمين".

أغلق بابا الكتاب المقدس..

- كامبيلى وجاجا، ستذهبان بعد ظهر اليوم إلى منزل جدكما لتحيته، سيقلمكم كيفن بالسيارة، وتذكرا ألا تلمس أيديكما أى طعام أو شراب، وكالمعتاد لن تمكثا أكثر من خمس عشرة دقيقة.. خمس عشرة دقيقة.

- نعم بابا

كانت هذه التعليمات تتلى علينا منذ بدأنا نزور الجد نوكوو فى كل عيد رأس سنة على مدى السنوات الماضية، وفى أعقاب دعوته أفراد العشيرة إلى اجتماع

يشكو فيه بابا من عدم رؤيته لأحفاده وعدم رؤية أحفاده له. أخبرنا الجد نوكوو كما أخبر أفراد العشيرة كيف أن بابا عرض عليه أن يبني له منزلاً ويشترى له سيارة ويستأجر لها سائقاً نظير أن يعود مسيحياً ويلقى بعيداً بالهيكل الذى شيده من القش ويقيم فيه صلاته. كان الجد نوكوو يضحك وهو يقول إنه ببساطة يريد أن يرى أحفاده فى الوقت الذى يريد، فضلاً عن أنه لن يلقي بعيداً بالهيكل، وهو القول الذى أخبر به بابا عدة مرات. لكن أفراد العشيرة وإن انحازوا إلى صف بابا كعادتهم دائماً فإنهم طالبوه بأن يدعنا نزور الجد نوكوو لنقدم له التحية لأن كل رجل تقدم به العمر وأصبح جدياً يستحق أن يستقبل أحفاده وأن يتلقى منهم الحب والتقدير. لكن بابا لم يقم أبداً بزيارة الجد نوكوو، واقتصر على أن يرسل له بضع أوراق من العملة النقدية نايرا مع كيفن أو مع أحد أفراد العشيرة، أقل من تلك الأوراق المالية التى كان يمنحها لكيفن كهدية عيد رأس السنة.

- أنا لا أحب أن أبعث بكما إلى المنزل الذى لا يذهب صاحبه إلى الكنيسة.

قال بابا وهو يضع الكتاب المقدس فى درج الطاولة، ثم جذب جاجا وأنا إلى جانبه وربت برفق على ساعدينا.

- نعم، بابا

وغادرنا إلى حجرة الاستقبال الكبيرة، وأمكنتى عندئذ سماع أصوات عديدة لأناس كثيرين يأتون شاكين من صعوبة العيش ومن عدم استطاعتهم شراء ملابس جديدة لأطفالهم فى عيد رأس السنة.

- أنت وجاجا ستتناولان طعامكما فى الطابق الأعلى، ووالدكما سيتناول طعامه مع الضيوف.

قلتُ لماما:

- دعينى أعاونك.

- لا، اصعدى إلى أعلى بصحبة أخيك.

تابعت بعينى ماما التى بدا عليها الإرهاق وهى تتقدم ببطء وصعوبة متجهة إلى المطبخ، بشعرها المجدول داخل شبكة تبرز منها كتلة دائرية فى حجم كرة الجولف على نحو يشبه القبعة التى يرتديها بابا فى عيد رأس السنة.

- منزل الجد نوكوو فى مكان قريب يمكننا بلوغه سيراً على الأقدام فى خمس دقائق ولا حاجة بنا إلى كيفن ليقلنا إلى هناك.

قال جاجا أثناء صعودنا ثانية إلى الطابق الأول، مثلما يقول لى فى كل عام، لكن دائماً نستقل السيارة لكى يوصلنا كيفن إلى هناك حتى يمكنه متابعة مانفعل. وأثناء مغادرتنا كيفن وجاجا وأنا المنزل فى وقت متأخر من ذلك الصباح، استدرت لكى أتطلع ثانية إلى الأبيض الناصع فى أعمدة وجدران منزلنا

وإلى اللون الفضى فى قوس الماء الطالع من النافورة
الرخامية التى لم يقترب منها أبداً الجد نوكوو، لأن
بابا عندما أصدر قراراً بعدم السماح للوثيين دخول
منزله لم يستثن والده من هذا القرار.

- والدكما قال أن تمكثا خمس عشرة دقيقة

أبطل كيفن محرك السيارة إلى جانب الطريق
بالقرب من منزل الجد نوكوو المحاط بسور من أعواد
القش الجافة. حدقت النظر قبل مغادرتى السيارة،
فى الجرح الظاهر على عنق كيفن نتيجة سقوطه قبل
بضعة أعوام من أعلى جذع نخلة فى منزله بمنطقة
دلتا النيجر أثناء قضائه أجازة فى بلدته.. كان الجرح
الذى اتخذ شكل خنجر يمتد من وسط رأسه حتى
مؤخر عنقه. قال جاجا:

- نحن نعلم ذلك.

أحدثت البوابة الخشبية لمنزل الجد نوكوو صبراً
حاداً عند قيام جاجا بفتحها، وبدأت شديدة الضيق
لدرجة أن بابا الذى لم يزرها قط لا يمكنه عبورها إلا
بصعوبة بالغة. كان المنزل وفناؤه لا يزيدان عن ربع
حجم فناء منزلنا فى أنوجو، وكانت ماعزتان برفقة
بضع دجاجات تسير بتؤدة جيئة وذهاباً وتلتقط
الحشائش الجافة. بدأ الجزء المبنى من المنزل صغيراً
جداً إلى درجة يصعب تخيل أن بابا والعمة افيوما
عاشا فيه، لأنه شديد الشبه بالمنازل التى كنت أرسمها
فى فصل الحضانة: منزل مربع بباب مربع فى الوسط

ونافذة مربعة على كل من الجانبين، مع فارق وحيد هو أن منزل الجد نوكوو به شرفة محاطة بقضبان معدنية صدئة.

فى المرة الأولى التى قمنا فيها بزيارة منزل جدنا، وأثناء بحثى عن دورة المياه، ضحك وأشار بأصبعه إلى خارج مبنى المنزل حيث يرتفع بناء صغير الحجم من أحجار إسمنتية بغير طلاء، ومزود عند مدخله بحصيرة من سعف النخل المجدول ينحىها جانباً كل من يريد قضاء حاجته عند الدخول أو الخروج. فى ذلك اليوم أيضاً، أمعنت النظر إليه، وعند التقاء نظراتنا أسرعت بالنظر بعيداً بحثاً عن مكان عبادته بغير جدوى، بالرغم من تأكدى من وجوده فى مكان ما.

كان يجلس بالشرفة على كرسى منخفض بلا ظهر أو مسند للذراعين، وأمامه أطباق طعام فوق حصيرة من ليف النخل المجدول، وعند رؤيته لنا نهض وانحسر دثاره المشدود إلى مؤخرة عنقه عن قميص حال لونه الأبيض بفعل الزمن إلى اللون البنى وإلى الأصفر عند الإبط.

- مرحى، مرحى.. كامبيلى وجاجا قدما لتحية جدّهما العجوز.

برغم انحناء ظهره نتيجة التقدم فى العمر إلا أنه من السهل ملاحظة كم كان طويل القامة فى شبابه. صافح جاجا وعند عناقه لى عانقته بقوة للحظة

أطول وأنا أحبس أنفاسى بسبب تلك الرائحة النفاذة
القوية الملتصقة به.

- هيا نأكل.

أشار إلى الحصيرة المصنوعة من ليف النخل
المجدول وإلى الأطباق المزخرفة المطلية بالميना الملونة
والمحتوية على حساء ومهروس البطاطا. اعتاد أن
يطلب منا مشاركته الطعام بالرغم من توقعه
الرفض من جانبنا، لذا كانت عيناه تومضان فى
سخرية.

- لا، شكراً يا سيدى.

جلسنا على مقعد طويل إلى جواره، ورجعتُ
بظهرى إلى الوراء، وأرحت رأسى على مصراعى
النافذة الخشبية.

- سمعت أنكم وصلتكم بالأمس.

ارتجفتُ شفته السفلى وكذلك صوته أثناء حديثه
الذى كنت فى بعض الأحيان أستغرق لحظة أو أكثر
لأدرك مقصده بسبب عباراته وتركيباته اللغوية التى
عفى عليها الزمن، فضلاً عن خلو حديثه من بعض
الألفاظ بالإنجليزية التى كثيراً ما نستعملها. قال
جاجا: "نعم".

- كامبيلى، لقد كبرت وسرعان ما يأتىك من
يخطب ودك من الشباب.

ابتسمتُ عندما مدّ ذراعه نحوى لكى يربت على
كتفى بيده التى تنتشر فيها بقع فى حجم رأس
الدبوس ذات لون فاتح مقارنة بلون بشرته الداكنة.

- الجد نوكوو.. كيف حالك؟.. صحتك على ما
يرام؟

هزّ كتفيه بغير مبالاة وكأنه يريد القول أن أشياء
كثيرة ليست على ما يرام ولا خيار له فى ذلك.

- أنا بخير يا بنى، فماذا يمكن أن يفعل رجل
عجوز غير أن ينتظر بصدر رحب اللحاق بأسلافه؟

توقف عن الكلام لكى يشكل بأصابعه كرة من
معجون البطاطا. كنت أرقب الابتسامة على وجهه
والطريقة السهلة التى ألقى بها كرة الطعام فى اتجاه
الحديقة حيث تتمايل أعشاب جافة مع هبوب نسمة
هواء، طالباً من "آنى" إلهة الأرض أن تشاركه الطعام.

- تؤلنى قدمى فى أحيان كثيرة، وعندما تتمكن
عمتك افيوما من تدبير بعض المال تأتىنى بالدواء،
وعلى كل حال فأنا كرجل تقدم به العمر، إذا لم تؤلنى
قدمى فإننى أشكو من آلام يدي.

سألته:

- هل ستأتى العمّة افيوما وأطفالها هذا العام؟
حك بأظافره خصلات شعر بيضاء غنيمة متشبثة
لاتزال فى رأسه الأصلع..

- لقد صادفت أوقاتاً صعبة منذ وفاة والد أطفالها، لكنها ستأتى بأطفالها هذا العام وسوف ترينهم.. ليس من الصواب ألا تعرفينهم جيداً.

لم نعلق بشيء، فنحن لم نعرف جيداً العمه افيوما أو أطفالها بسبب الشجار الذى نشب بينها وبين بابا حول الجد نوكوو، فقد أخبرتنا ماما أن العمه افيوما توقفت عن الحديث إليه بعد منعه الجد نوكوو من دخول منزله، ومرت سنوات قبل أن يبدأ كل منهما فى التحدث إلى الآخر.

- لو أن الحساء به لحم لكنت قدمته لكما.

هزّ جاجا رأسه ممتناً، وتابع الجدّ مضغ طعامه على مهل، وأنا أرقب انزلاق الطعام إلى أسفل حلقه متجاوزاً بصعوبة تفاحة آدم التى تشبه بندقة متفضنة تضغط على العنق، فى الوقت الذى لم يكن هناك شراب إلى جانبه ولا حتى ماء.

- تلك الطفلة التى تساعدنى، تشينيلو، ستأتى سريعاً وسأرسلها لكى تشتري مياه غازية لكما من متجر إتشى.

- لا، شكراً سيدى.

- أنا أعلم أن والدكما لن يسمح لكما بتناول طعام هنا لأننى أقدم طعاماً للأسلاف ولآلهة الأرض، لكن لايسمح لكما بتناول مياه غازية أيضاً؟.. ألا أشتريها من المتجر مثلما يفعل أى شخص آخر؟

أجاب جاجا:

- لقد تناولنا طعامنا قبل قدومنا مباشرة، لكن إذا شعرنا بالعطش سنشرب فى منزلك.

ابتسم الجد نوكوو فكشف عن أسنان متبقية صفراء وعن فضاء واسع فى الفم بسبب فقدة الكثير من أسنانه..

- حديثك جيد يا بنى، وكأن والدى أجبوفى أوليوكى الذى يتحدث كحكيم قد عاد إلى الحياة.

حدقتُ فى معجون البطاطا بالطبق المطلى بالمينا وتخيّلته وقد تحول إلى رقائق جافة تحك داخل حلق الجد نوكوو أثناء ابتلاعه لها. فى تلك الأثناء لكزنى جاجا بمرفقه، لكننى لم أرغب فى المغادرة وأردت البقاء حتى إذا غص حلق جدّى بالطعام ركضت سريعاً لأحضر الماء، الذى لم أكن أعرف مكانه. لكزنى جاجا مرة ثانية، وكنت مازلت لا أرغب فى المغادرة لانشغالى بمراقبة ديك رمادى يسير متجهاً إلى داخل هيكل فى ركن بالفناء يستقر بداخله إله الجد نوكوو، ذلك المكان الذى منعنا بابا من الاقتراب منه.

نهض جاجا من مقعده مخاطباً الجد نوكوو:

- اسمح لنا بالذهاب.

- تفضل يا بنى.

لم يقل "هكذا تغادران بسرعة؟" لأنه اعتاد مغادرتنا منزله بعد دقائق من وصولنا. أثناء سيره

معنا إلى مكان وقوف السيارة متوكئاً على فرع شجرة،
اتجه نحوه كيفن ليحييه وليسلمه بضع أوراق مالية..

- اشكر أيوجين من أجلى

قال الجد نوكوو مبتسماً "شكراً له".

لوح لنا بيده مع بدء دوران محرك السيارة، ولوحت
له يدي، وظلمتُ أرمقه وهو يجرد قدميه عائداً وأنا
أحدث نفسي بأنه ربما استشعر ضيقاً فى الطريقة
التي عمد إليها بابا فى إرسال القليل من النقود له مع
كيفن، لكن الجد نوكوو لم يظهر ضيقه، كما لم يظهره
أبداً فى أعياد رأس السنة من قبل.

كانت طريقة معاملة بابا لوالده مختلفة تماماً عن
طريقة معاملته لوالد ماما، الذى مات قبل خمس
سنوات، فقد اعتاد بابا عند وصولنا إلى أبا فى أعياد
رأس السنة أن يتوقف أولاً أمام منزل والد ماما قبل
أن يكمل سيره إلى منزلنا.

جدى لأمى كان مصاباً بالهق، وله بشرة شاحبة
ضاربة إلى البياض وعينان حساستان للضوء، وقيل إن
ذلك من الأسباب التى جعلت التبشيريين يحبونه،
فضلاً عن تحدّثه دائماً وعن قصد بالإنجليزية بلهجة
الاجبو، ومعرفته باللغة اللاتينية وحفظه للنصوص
الدينية. لا يزال بابا يتحدث عن جدى لأمى، الذى كان
يصر على أن نناديه بجدنا بالإنجليزية والزهو فى
عينيه، وكأنه يتحدث عن والده الحقيقى، قائلاً "كان
أكثر وعياً من العديد من أفراد شعبنا، ومن أول

القلائل الذين رحبوا بالتبشيريين.. هل تعلمون كيف تعلم الإنجليزية منهم بسرعة متناهية؟.. عندما عمل مترجماً، هل تدرّون كم عدد الذين اهتموا إلى الدين على يديه؟.. معظم أهل أبا اهتموا على يديه.. كان يفعل الصواب بالطريقة نفسها التي يقوم بها التبشيريون البيض وليس بالطريقة التي يتبعها أناس من شعبنا الآن".

لدى بابا صورة فوتوغرافية لوالد ماما مرتدياً اللباس الخاص بنبلأء القديس جون داخل إطار من الخشب الماهوجنى ومعلقة على حائط بمنزلنا فى انوجو. لم أكن فى حاجة إلى تلك الصورة لكى أتذكر جدّى لأمى، فقد كنت فى العاشرة من عمرى عند وفاته، وأتذكر جيداً وجهه الشاحب الضارب إلى البياض وعينيه الخضراوين الحساستين للشمس وطريقة استخدامه لكلمة "الخاطئ" فى كل عبارة فى حديثه.

- لا يبدو بابا نوكوو فى صحة طيبة كما كان فى عيد رأس السنة الماضية.

همستُ فى أذن جاجا لحظة تحرك السيارة لأننى لم أكن أريد أن يسمعنى كيفن. "إنه رجل عجوز".

عند وصولنا المنزل، أعدت لنا سيسى غداءنا المكون من أرز ولحم بقر مقلّى، وأثناء تناولنا الطعام معاً، تنامى إلى سمعنا أصوات رجال يتناقشون فى الاجتماع الذى ضم أعضاء مجلس الكنيسة وأصوات

نساء قادمة من الفناء الخلفى حيث تقوم زوجات بعض رجال العشيرة بطحن التوابل فى هون خشبى، وبوضع قليل من الزيت فى أوانى الطبخ قبل وضعها على النار حتى يسهل تنظيفها بعد الانتهاء من إعداد الطعام.

- هل ستصارحنى القول؟

سألتُ جاجا أثناء تناولنا الطعام.

- ماذا؟

- ما قلته اليوم بأننا لو شعرنا بالعطش سنشرب فى منزل بابا نوكوو.

- أردت فقط قول شىء يسعده.

- لقد أسعده قولك بالفعل.

فجأة، فتح الباب واتجه صوبنا.. لم أسمع صوت أقدامه أثناء صعوده الدرج، ربما لأن اجتماع مجلس الكنيسة فى الطابق الأسفل لم ينته بعد.

- مساء الخير، بابا

- كيفن قال إنكما مكثتما نحو خمسة وعشرين دقيقة مع جدكما.. هل هذا ما اخبرتكما به؟

كان صوته خفيضاً فأجابه جاجا:

- لقد أضعت الوقت، هذه غلطتى.

- ماذا فعلتما هناك؟.. هل أكلتما طعاماً ذبح باسم

وثن؟.. هل قمتما بتدنيس لسانكما المسيحى؟

جلستُ متجمدة، فلم أكن أعلم أن الألسنة يمكن أن تكون مسيحية أيضاً. "لا". جال بخاطري أثناء حديثه بالإجبو أنه سيجذب أذن جاجا بنفس القوة التي يتحدث بها، وأنه سيصفعه على وجهه براحة يده محدثاً صوتاً شبيهاً بصوت سقوط كتاب ثقيل من رف مكتبة مدرسة، وأنه سيتجه نحوي ليصفعني أيضاً على وجهي، لكنه قال قبل أن يستدير ليعود إلى الطابق الأسفل:

- أريد منكما أن تنهيا طعامكما وتذهبا إلى حجرتيكما وتصليا لله من أجل أن يغفر لكما.

بمغادرته حل صمت ثقيل لكنه مريح..

- أرز لايزال في طبقك.

تطلعتُ إلى وجه جاجا وهزرت رأسي والتقطت شوكتي، وفجأة داهمني صوت بابا المرتفع القادم من النافذة فوضعت الشوكة في الطبق ثانية.

- ماذا يفعل في منزلي؟.. ما الذي يفعله انيكوينو

في منزلي؟

الغضب في صوت بابا جعلني أستشعر برودة في أطراف أصابعي.. اندفعنا أنا وجاجا إلى النافذة فلم نستطع رؤية أى شيء، ثم اتجهنا إلى الشرفة وإلى جانب الأعمدة وقفنا.

بالقرب من شجرة برتقال وقف في الفناء الأمامي يصرخ في رجل عجوز متفضن الوجه يرتدى قميصاً

أبيض بالياً وذئباً يلف خاصرته، وبضعة رجال
يحيطونهما.

- ما الذى يفعله انيكوينو فى منزلى؟.. ماذا يفعل
عابد الأوثان فى منزلى؟.. غادر منزلى.

- هل تعلم أننى فى عمر والدك؟

سأل الرجل العجوز ملوحاً بأصبعه فى اتجاه وجه
بابا.

- هل تعلم أننى رضعت من ثدى أمى فى الوقت
نفسه الذى رضع فيه والدك من ثدى أمه؟

أشار بابا بأصبعه إلى البوابة قائلاً "غادر منزلى".

على مهل قام رجلان بمصاحبة انيكوينو إلى
الخارج دون أن يبدي مقاومة وإن ظل ينظر إلى الخلف
متمتماً بكلمات فى وجه بابا.

- أنت مثل ذبابة عمياء تتبع بتهور جثة إلى القبر.

تابعتُ بعينى الرجل وهو يجر قدميه فى مشية غير
منتظمة حتى خروجه من البوابة.

فى مساء اليوم التالى، وأشجار البرتقال تلقى
بظلالها الوارفة يميناً ويساراً فوق نافورة المياه فى
الفناء الأمامى، جاءت العمة أفيوما، تصحبها ضحكتها
التي ارتقت الدرج إلى مقعدى بحجرة المعيشة حيث
كنت أقرأ .. تلك الضحكة المجلجلة الصادرة من القلب،
التي لم أكن قد استمعت إليها منذ عامين. عمتى
أفيوما ذات جسد متناسق وقامة تقارب طول قامة
بابا، سريعة الخطى كأنها تعرف جيداً وجهتها والشئ
الذى ستقوم بعمله، متحدثه بنفس سرعة خطواتها
و كأنها تريد أن تطلق من فمها ما أمكنها من كلمات
كثيرة فى أقل وقت.

- مرحباً، عمتى

قلت وأنا أشب بجسدى لأعانقها. لم تمنحنى
عناقاً عادياً متعجلاً بجانب جسدها، بل جذبتنى
بكامل ذراعها بقوة إلى صدرها وعطر اللافتندر الذى
يعطر رداءها الأزرق.

- كامبيلي!

ابتسامة عريضة ملأت بشرة وجهها الداكنة
وكشفت عن فراغ بين صف أسنانها الأمامية.

- أنا بخير عمتي.

- لقد كبرت بسرعة.

بسطت يدها نحوى وجذبت ثديي الأيسر..

- هذا، ما أسرع نموها!

نظرتُ بعيداً والتقطتُ نفساً عميقاً وقد احمرتُ
وجنتاي؛ لأنني لا أعرف كيف أتصرف إزاء هذا النوع
من المزاح.

- أين جاجا؟

- نائم في سريره يشكو صداعاً برأسه

- صداع قبل ثلاثة أيام من عيد رأس السنة؟.. لا،
سأوقفه وأعالجه من ذلك الصداع.

ضحكت العمة أفيوما..

- لقد قطعنا ستة أميال وجئنا إلى هنا قبل الظهر
بعد مغادرتنا نسوكا مبكراً، ولو لم ينفجر إطار السيارة
في الطريق لكنا وصلنا أسرع، لكن شكراً لله، عثرنا
بسهولة على ميكانيكي.

- شكراً لله

قلت، وبعد فترة صمت سألتها:

- كيف حال أبناء عممتنا؟

كان من الذوق أن أقول ذلك، لكننى شعرت أن من الغريب أن أسأل عن أبناء عمه لا أكاد أعرفهم.

- سيأتون سريعاً، إنهم مع الأب نوكوو ويستمعون إلى واحدة من أقاصيصه.. أنت تعرفين كم يحب الحديث.

لم أكن أعلم أن الجد نوكوو يحب الحديث، ولم أكن أعلم أيضاً أنه يحكى حكايات. عادت ماما تحمل صينية عليها زجاجات شعير ومياه غازية وطبق به فطائر محلاة بالسكر.

- لمن كل هذا؟

سألتُ العمه أفيوما.

- لك وللأطفال.. قلت إنهم سيأتون سريعاً.

- ما كان عليك أن تتعبى نفسك، فقد تناولنا بعض المعجنات ونحن فى طريقنا إلى هنا.

استدارت ماما لتفادر الغرفة.. كانت ترتدى دثاراً أنيقاً مزيناً بنقوش صفراء مطبوعة وسترة زينت أكمامها المتسعة أعلى الساعد بشريط أصفر مطرز.

"نوونيم" .. نادى العمه افيوما، واستدارت ماما راجعة. لأول مرة بعد أعوام أسمع العمه أفيوما تتادى ماما "نوونيم"، وكنت أدهش كثيراً عندما تتادى امرأة على امرأة أخرى بقولها "نوونيم"، لكن بابا أجابنى بأن ذلك من بقايا تقاليد الوثنية فى بلادنا التى ترى أن العائلة، وليس الزوج وحده، هى التى تتزوج من

الزوجة.. وفى وقت لاحق همست ماما فى أذنى بالرغم من أننا كنا بمفردنا فى الحجرة قائلة:

- تتادينى بزوجتها لأننى زوجة شقيقتها، وهى تعنى بذلك قبولها بى ورضاءها عنى

- "توونيم"، تعالى واجلسى بجانبى فالتعب يبدو عليك.. هل أنت بخير؟

- أنا بخير، أعاون النسوة فى إعداد الطعام.

- تعالى واجلسى بجانبى.

كررت العمة طلبها..

- تعالى واجلسى واستريحى ففى استطاعة النسوة الانتهاء من إعداد الطعام؛ حتى وإن قمن بسرقة البعض منه إلى بيوتهن أثناء حشوهن اللحم فى أوراق الموز عندما لا يجدن أحداً ينظر إليهن.

ضحكت العمة أفيوما. إلى جانبى جلست ماما.

- ايوجين يقوم بتجهيز مقاعد إضافية لوضعها بالخارج نهار رأس السنة لأن الكثير من الزوار قد قدموا بالفعل.. أنت تعلمين أن ضيوفنا ليس لديهم عمل فى عيد رأس السنة غير التنقل من منزل إلى منزل.

قالت العمة أفيوما:

- لكن ليس بمقدورك البقاء هنا والقيام على خدمتهم طوال اليوم، وعلينا أن نأخذ الأطفال لحضور الاحتفال بموسم الحصاد غداً.

- لن يسمح أيوجين للأطفال بالذهاب إلى
المهرجان.

- يذهب الجميع لمشاهدة الرجال الذين يرتدون
الأقنعة ويقومون بتقليد الفتيات والتهكم على
حركاتهن.

- أعلم ذلك، لكنك تعرفين أيوجين

هزت أفيوما رأسها ببطء.

- سأخبره أننا ذاهبون معاً في نزهة بالسيارة
لبعض الوقت من أجل الأطفال.

حرّكت ماما أصابعها في قلق ولم تقل شيئاً
للحظات، ثم سألت:

- متى ستأخذين الأطفال إلى منزل أبيهم في
المدينة؟

- ربما اليوم وإن كنت لا أملك العزم لمواجهة عائلة
افيديورا الآن؛ لأنهم يتحدثون كثيراً ويقولون إنهم
تركوا لنا مالاً وأنا أخفيه، والأكثر من ذلك أن امرأة
من عائلته أخبرتني في رأس السنة الماضية أنني قمت
بقتله حتى أنني رغبت أن أحشو فمها بالرمل، ثم
خطر لي أن أطلب منها الجلوس لأشرح لها أنه لا
يمكن لامرأة أن تقتل زوجها الذي تحبه، كما لا يمكنها
أن تختلق حادث تصادم بين شاحنة وسيارة زوجها،
لكنني أيقنت أنني سأضيع وقتي؛ لأنهم جميعاً لديهم
عقول أشبه بعقول دجاج حبشى

وعندئذ أطلقت العمه أفيوما صوتاً كصوت
حرف "S" استهجاناً وازدراءً.

- لا أدري إن كنت سأستمر في أخذ أطفالى إلى
هناك.

طقطقتُ ماما بلسانها تعبيراً عن اهتمامها
وقلقها..

- لا يتحدث الناس دائماً بالعقل والمنطق، لكن من
الأفضل أن يستمر الأطفال في الذهاب إلى منزل
جدهم، خاصة الصبيان الذين يحتاجون إلى معرفة
أفراد عائلة والدهم.

- أصدقك القول، أنا لا أدري كيف خرج افيديورا
من عائلة كهذه.

لاحظتُ شفتى ماما شاحبتين، مقارنة بشفتى العمه
أفيوما المغطاتين بأحمر شفاه مائلاً إلى اللون
البرونزى اللامع.

- أفراد العائلة دائماً يقولون أشياء تسبب الألم
قالت ماما.

- ألم تطلب عائلة ايوجين منه الزواج من امرأة
أخرى لأن رجلاً في مكانته لا يمكن أن يكتفى بطفلين
فقط؟.. ماذا لو لم يكن هناك أناس مثلك إلى جانبي
في ذلك الوقت؟

- لا فضل لى فى ذلك، لأن أیوجین إذا لى طلبهم
لكان هو الخاسر ولىس أنت.

هزت ماما رأسها فى أسى.

- كىف ىمكن لامرأة أن تعىش ومعها أطفالها بدون
زوج.

جحظت عىناها واتخذتا مساحة أكبر من وجهها.

- أحياناً تبدأ الحىاة عندما تنتهى علاقة الزواج.

- هل هذا ما تقولىنه لطالباتك فى الجامعة؟

كانت الابتسامة تملأ وجه ماما.

- أصدقك القول، نعم، هن ىتزوجن مبكراً هذه
الأىام، وىسألننى عن جدوى الدرجات العلمىة عندما
لا ىمكنهن الالتحاق بوظىفة بعد تخرجهن وىقلن لى
إنهن على الأقل سىجدن من ىرعاهن عندما ىتزوجن.
لا أدرى من سىهتم بمن.. فى الفصل الدراسى الذى
أقوم بالتدرىس له، هناك ست فتىات متزوجات
وأزواجهن ىأتون فى سىاراتهم المرسىدس واللىكزس
لزىارتهن فى نهاية الأسبوع، وىشترون لهن الكتب
والمراجع وأجهزة التسىجل والثلاجات، وعند تخرجهن
ىقوم أزواجهن بامتلاكهن بدرجاتهن العلمىة.. هل
تعلمىن ذلك؟

هزت ماما رأسها.

- مرة أخرى تتحدثىن حدىث الجامعة.. ىا أفىوما
الزواج ىتوج حىاة المرأة، وهو ما ترىده المرأة.

- هذا ما يعتقدن أنهن يريدونه، ومع ذلك لا يمكننى أن ألقى باللوم عليهن.. انظرى إلى ما يفعله الحكم العسكرى المستبد فى بلادنا .

أغلقت أفيوما عينيها بالطريقة نفسها التى يلجأ إليها البعض عندما يتذكرون شيئاً بغيضاً .

- لثلاثة أشهر، لا وقود فى نسوكا.. لقد أمضيت ليلة فى محطة الوقود الأسبوع الماضى فى انتظار توفر وقود للسيارة، وفى النهاية لم يأت الوقود، حتى أن البعض غادروا سياراتهم فى المحطة لأنهم لم يكن لديهم ما يكفى من الوقود للعودة إلى منازلهم.. لو أمكنك رؤية البعوض الذى لدغنى تلك الليلة والأورام التى بحجم ثمرة الكاجو فى مواضع اللدغات بجلدى! هزت ماما رأسها بشيء من التعاطف.

- وما أحوال الجامعة الآن؟

- لقد مُنعنا من القيام بإضراب برغم عدم حصول أى محاضر على راتبه لشهرين متتالين، وحثتهم فى ذلك أن خزينة الحكومة الفيدرالية خاوية، ولذلك أقدم الكثيرون على مغادرة البلاد، ومنهم فيليبيا التى غادرت منذ شهرين.. صديقتى فيليبيا أنت تذكرينها .

- نعم، السوداء الممتلئة.. لقد أتت بصحبتك لقضاء الكريسماس منذ بضع سنوات

- هى الآن تعمل بالتدريس فى أمريكا بالمشاركة مع أستاذ مساعد آخر، وتقول إنه على أقل تقدير يحصل المدرسون هناك على رواتبهم.

بينما كنت أرقب كل حركة تقوم بها العمه أفيوما،
وأصيخ السمع إلى كل كلمة تقولها، وقد جذبتنى إليها
جسارتها وهى تتحدث وتومئ وتبتسم، قالت وهى
تزيل شيئاً من سترة ماما:

- لقد احتجت إلى موقد الكيروسين القديم وهو
ما نستخدمه الآن، حتى أننا لم نعد نأبه كثيراً لرائحة
الكيروسين فى المطبخ.. أتعلمين كم يكلفنا شراء
أسطوانة الغاز؟.. أمر؟ لا يصدق!

بدلت ماما من وضعها على الأريكة.

- لماذا لا تخبرى أيوجين؟.. هناك أسطوانات غاز
فى المصنع.

ضحكت العمه افيوما وربتت براحه يدها على كتف
ماما بمودة.

- الأحوال صعبة، لكننا لم نقارب الموت بعد، فأنا
أخبرك أنت فقط وليس أى أحد آخر.

أثناء اقتراب بابا منا وهو فى طريقه إلى حجرة
نومه؛ كنت متأكدة إنه ذاهب لإحضار المزيد من أوراق
العملة نايرا لكى يوزعها على ضيوف الكريسماس
الذين يبدون شكرهم له بالفناء ويجيبهم "هذا من عند
الله وليس من عندى".

"أيوجين" .. صاحت العمه أفيوما .. "كنت أقول لو
أن جاجا وكامبيلى يقضيان بعض الوقت معى ومع

الأطفال غداً". تابع بابا سيره لا يلوى على شيء متجهاً إلى الباب.. "أيوجين".

يكاد قلبي يتوقف عن الخفقان ثم تبدأ خفقاته فى التسارع، فى كل مرة تتحدث العمه أفيوما إلى بابا. يبدو أنها لا تدرك أنه بابا وأنه مختلف وغير اعتيادى، حتى أننى رغبت فى الاقتراب منها لكى أغلق بأصابعى شفيتها البرونزيتين.

- إلى أين ستأخذينهما؟

سأل بابا أثناء وقوفه عند الباب.

- فقط للتجول وإلقاء نظرة على الجوار

- التجول والفرجة؟

سأل بابا متحدثاً بالإنجليزية بينما العمه أفيوما تتحدث بالإجبو.

- أيوجين، دعهما يخرجان معنا!

ارتفع صوت العمه أفيوما غاضباً.

- ألسنا نحتفل بعيد الكريسماس.. حقيقة لم يقض الأطفال وقتاً مع بعضهما البعض، حتى أن صغيرى تشيما لا يعرف كامبيلى

التفت بابا إلىّ ثم إلى ماما، وكأنه أراد أن يبحث فى وجهينا عن كلمات فوق شفاهنا قد تعنى شيئاً لا يود سماعه.

- حسناً، يمكنهما الذهاب معك، ولكن أنت تعلمين
أننى لا أريد أن يقترب أطفالى من أى إثم، وعلى أية
حال، احرصى ألا يفوتك مشاهدة من يحتفلون بارتداء
الأقنعة الملونة أثناء تجولك بالسيارة.

- بالطبع، ايوجين.

قالت العمّة أفيوما بلهجة رسمية مبالغ فيها.

- لماذا لا نتناول جميعنا الغداء يوم الكريسماس؟
يمكن للأطفال عندئذ أن يقضوا الوقت معنا.

- أنت تعلم، ايوجين، أن الأطفال وأنا نمضى يوم
الكريسماس مع جدهم نوكوو

- ما الذى يعلمه ذلك الوثنى المبجل عن
الكريسماس؟

التقطت العمّة أفيوما نفساً عميقاً وقالت:

- ايوجين، حسناً، سنأتى، الأطفال وأنا يوم
الكريسماس

عاد بابا أدراجه إلى أسفل، وكنت لأزال جالسة
على الأريكة أرقب العمّة أفيوما تتحدث إلى ماما
عندما وصل أبناؤها.

أماكا، الأكثر نحافة تبدو صورة طبق الأصل من
والدتها ولكن فى عمر فتاة مراهقة تخطو وتتحدث
بإيقاع أسرع وأكثر عزمًا وتصميماً، والشئ الوحيد
الذى تختلف فيه عنها هو خلو عينيها الفضوليتين من

دفع عيني والدتها غير المشروط لتحل فيهما تساؤلات عديدة دون انتظار لأية إجابات. وأوبيورا الذي يصغر أماكا بعام، بشرته أفتح قليلاً وتبدو عيناه العسليتان من خلف عدسات نظارته السميقة، ويرتفع جانبا فمه ليرسما على وجهه ابتسامة دائمة. أما تشيما فبشرته شديدة السواد وأكثر طولاً من كونه صبياً فى السابعة من عمره وجميعهم يضحكون من الحلق نفس الضحكة الحماسية المجلجلة الصوت.

القوا بالتحية على بابا. وعندما أعطى بابا لكل منهم عيدية الكريسما، عبّر أوبيورا ثم أماكا عن شكرهما له وهما يعرضان لمن حولهما رزمتى أوراق النقد نايرا وفى عينيها دهشة محببة تشير إلى عدم توقعهما الحصول على نقود.

- لديك جهاز تليفزيون يستقبل قنوات القمر الصناعى، أليس كذلك؟

سؤال أماكا كان أول شيء تقوله لى بعد أن تبادلنا التحية.. نظرتُ إلى تسريحة شعرها الطويل من الأمام وبقصر بالتدريج على شكل قوس حتى يقصر بدرجة كبيرة خلف رأسها.

- نعم

-- هل يمكننا مشاهدة قناة سى. إن. إن؟

أخرجتُ من حلقى صوت سعال، وتمنيت ألا تصدر عنى فأنأة أو تأنأة.

- ربما غداً، إننى أعتقد أننا الآن ذاهبون لزيارة عائلة والدى فى أجبو.

- نحن لا نشاهد التلفزيون كثيراً.

- لماذا؟

كلانا فى نفس السن تقريباً، لكنها تبدو أكبر منى ربما للشبه الكبير بينها وبين والدتها العممة أفيوما أو لطريقتها فى التحديق مباشرة فى العينين.

- هل مشاهدته تسبب الملل لك؟

أردتُ أن أعتذر لها عن عدم مشاهدتنا القنوات الفضائية حتى لا يقلل ذلك من حبها لنا، وأردت أن أخبرها أنه بالرغم من تواجد أطباق استقبال إشارات القمر الصناعى المثبتة أعلى المنازل فى انوجو وهنا، إلا أننا لا نشاهد التلفزيون لأن بابا لم يخصص لنا وقتاً لمشاهدة التلفزيون بين أوقات الدرس والخروج إلى الكنيسة للصلاة.

لكن أماكا كانت قد استدارت إلى والدتها الجالسة دون أن تسند ظهرها إلى ظهر المقعد بجوار ماما.

- ماما، إذا كنا سنذهب إلى أوكبى فيجب علينا أن نغادر سريعاً حتى يمكننا العودة قبل أن يحل موعد نوم الجد نوكوو.

نهضت العممة أفيوما على الفور قائلة: "نعم، يجب أن نذهب".

أمسكتُ العمة أفيوما بيد تشيما عند هبوطهما
الدرج، وأشارت أماكا إلى أعمال الحفر اليدوى التى
تزين الدرابين وقالت شيئاً أثار ضحك أوبيورا، ولم
تلتفت لتودعنى مثل شقيقها ووالدهم العمة أفيوما
التى لوحت لى قائلة: "أراك وجاجا غداً".

عند دخولها حجرة الطعام بالطابق الأعلى لتناول
الإفطار، تخيلتُ العمة أفيوما إحدى جداتنا القدامى
التى تسير عدة أميال بحثاً عن ماء تملأ به إناءً من
الطين صنعته بيديها وتقوم بإرضاع طفلها وتدخل
حرباً بمديّة قامت بشحذ شفرتها على حجر لفحته
أشعة الشمس. قالت وقد احتلت حيزاً كبيراً من
الحجرة:

- جاجا وكامبيلى، هل أنتما مستعدان للذهاب؟
وأنتِ ألا تأتين معنا؟
هزّت ماما رأسها قائلة: "أنت تعلمين أن ايوجين
يرغب فى بقائى بالقرب منه".

ونحن نسير فى اتجاه السيارة قالت العمة أفيوما:
- كامبيلى، أعتقد أنك ستكونين على راحتك أكثر
وأنت مرتدية البنطلون.

سألتُ نفسى لماذا لم أخبرها أن كل تنوراتى طويلة
وتمتد إلى ما بعد الركبة، وأننى لا أرتدى البنطلون
لأنه من الإثم أن ترتدى المرأة بنطلوناً.

فى السياره البيجو ٥٠٤ البيضاء كبيره الحجم
التي تسلل الصدا البنى الى رفارف عجلاتها، جلست
أماكا فى المقعد الأمامى، وأوبيورا وتشىما جلسا فى
المقعد الخلفى، وفى المقعد الأوسط جلسنا جاجا وأنا.
كنت أعلم أن ماما ستقف تنظر إلينا حتى تغادر
السيارة وتختفى عن أنظارها، فقد كنت أشعر بعينيها
وبحضورها.

أصوات خشخشة تبعث من السيارة ربما نتيجة
عدم إحكام ربط عدد من الصواميل بها ما يجعلها
تهتز بشدة مع كل مرتفع أو منخفض فى الطريق
الوعر، ولأن السيارة تخلو من جهاز تكييف الهواء فإن
نوافذها المفتوحة تقذف بالتراب إلى فمى وإلى عيني
وأنفى.

قالت العمه أفيوما: "نحن ذاهبون لنصحب معنا
الجد نوكوو" .. على الفور أحسست بألم فى معدتى،
وعندما اختلستُ نظرةً إلى جاجا التقت عينانا .. ماذا
سنخبر بابا؟ .. نظر جاجا بعيداً ولم يكن لديه إجابة.

قبل أن توقف العمه أفيوما محرك السيارة أمام
المنزل المسور بسياج من القش والطين، كانت أماكا قد
فتحت الباب الأمامى وقالت "سأتى بالجد نوكوو"،
وسرعان ما قفز الصبيان من السيارة وتبعوا أماكا.

- ألا تريدان النزول؟

نظرتُ أنا بعيداً، وجاجا ظل جالساً فى مقعده
مثلى.

- لا تريدان الدخول إلى منزل جدكما نوكوو؟..
ولكن ألم تأتيا لتحيته قبل يومين؟

حدقتُ العمة أفيوما في وجهينا، فقال جاجا:

- غير مسموح لنا بالقدوم إلى هنا لأننا جئنا
لتحيته من قبل.

- هل يعقل هذا؟

توقفتُ عن متابعة قولها، ربما لأنها تذكرت أن هذه
القواعد لم نضعها نحن.

- أخبراني، لماذا في اعتقادكما يرفض والدكما
الحضور إلى هنا؟

- لا أعرف

حاولتُ تحريك لسانى الذى تجمد، فأحسست
بمذاق التراب الرملى فى فمى.

- لأن الجد نوكوو وثى.

كان والدى سيفخر بى لو قلت ذلك بدلاً من جاجا.

- كامبيلى، جاجا.. جدكما نوكوو ليس وثياً، هو
متمسك بالتقاليد.

حدقتُ فى وجهها وأنا أسأل نفسى، ماذا يهم لو
كان وثياً أو متمسكاً بالتقاليد؟.. كل ما فى الأمر أنه
ليس كاثوليكياً ولا يؤمن بالكاثوليكية، إنه من أولئك
الناس الذين اعتنقوا ديانة تجعلنا نصلى من أجلهم
حتى لا تنتهى حياتهم فى جحيم العذاب الأبدى.

جلسنا فى صمت إلى أن فُتحت البوابة وخرجتُ
أماكا ملتصقة بالجد نوكوو لتكون على استعداد
لتقديم العون له أثناء سيره، ومن خلفهما الصبيان.
كان الجد نوكوو يرتدى قميصاً فضفاضاً عليه رسوم
مطبوعة وسروالين يصل طولهما إلى الركبة، وهو
لباس لم أره يرتديه من قبل عند زيارتنا له، فقد كان
لا يرتدى غير دثار يلفه حول جسده.

- أتيتُ له بهذا اللباس.. أترون كم يبدو أكثر
شباباً؟.. من يقول إنه فى الثمانين من عمره؟

قامت أماكا بمعاونة جدنا فى الجلوس بالمقعد
الأمامى للسيارة، ثم جلستُ معنا فى المقعد الأوسط،
وألقينا عليه جاجا وأنا التحية:

- الجد نوكوو، صباح الخير يا سيدى.

- كامبيلى، جاجا، للمرة الثانية أراكما قبل أن
تعودا إلى المدينة؟.. هذا يدل على أننى فى سبيلى
لمقابلة الأسلاف سريعاً.

والعمة أفيوما تدير محرك السيارة قالت:

- ألا تتعب يا أبى من الحديث عن اقتراب
ساعتك؟.. دعنا نسمع شيئاً جديداً!

خاطبته بقولها يا أبى، فسألت نفسى عما إذا كان
بابا قد اعتاد مخاطبته قائلاً يا أبى، وكيف سيكون
خطاب بابا له الآن إذا تحدثنا معاً. قالت أماكا فى
إنجليزية مرحة:

- هو يحب التحدث عن قرب يوم وفاته معتقداً أنه
بذلك يدفعنا لعمل أشياء من أجله

فى إنجليزية مرحة أيضاً، قال أوبيورا:

- أؤكد أنه سيظل بيننا هنا حتى نصل إلى مثل
عمره الآن.

- ما الذى يقوله هؤلاء الأطفال يا أفيوما؟.. هل
يتآمرون على اقتسام ما أملكه من ذهب وأراض؟.. ألا
يريدون الانتظار حتى يحين أجلى أولاً؟

- لو كنت تملك الذهب والأراضى لقمنا نحن
بقتلك من سنوات طويلة.

ضحك أبناء العمة على ما قالتها والدتهم، وعندما
ألقت أماكا بنظرة سريعة علينا جاجا وأنا، ربما
لدهشتها من عدم مشاركتهم الضحك، أردت أن أبتسم
لكن السيارة كانت فى هذه اللحظة تمر بمحاذاة
منزلنا، ببواباته السوداء وجدرانه البيضاء التى تلوح
من بعيد.

- ما نطلبه من إلها المبجل تشوكوو هو أن يمنحنا
الثروة والولد، لكن إذا كان لابد أن أختار من بينهما
فسأختار أن يعطينى الولد، لأنه عندما يكبر سأجنى
الثروة.

توقف الجد نوكوو عن الحديث مستديراً إلى
الخلف والنظر فى اتجاه منزلنا قائلاً:

- ابني يملك ذلك المنزل الكبير الذى ينبهر به كل رجل فى أبا، فى حين أننى فى كثير من الأوقات لأجد ما أضعه من طعام فى طبقى.. كان يجب علىّ ألا أدعه يتبع أولئك التبشيريين.

- يا أبى، لا صلة للتبشيريين فى هذا.. ألم أذهب أنا أيضاً إلى المدرسة التبشيرية؟

- لكنك امرأة ولست رجلاً له اعتبار.

- إذن لا اعتبار لى؟.. هل سأل أيوجين مرة عن قدمك التى تسبب لك الكثير من الألم؟.. طالما أننى بلا اعتبار فسأتوقف إذن عن السؤال عن صحتك كل صباح.

ضحك الجد نوكوو ضحكة خافتة وقال:

- ستطاردك لعنتى عندما ألحق بالأسلاف.

- لعنتك ستطارد أيوجين أولاً.

- أنا أمازحك.. أتعلمين ماذا سيكون عليه حالى الآن لو لم يمنحنى الإله المبجل ابنة مثلك؟

صمتَ الجد نوكوو لبرهة وقال:

- ستشفع روحى لك عند الإله المبجل ليرسل لك رجلاً طيباً يعتنى بك وبأطفالك.

- دع روحك تسأل إلهك المبجل أن أحصل سريعاً على الترقية التى أنتظرها بالجامعة، وهذا كل ما أطلبه.

لم يجب الجد نوكوو للحظات، وعندئذ سألت
نفسى ما إذا كان المزيج من الموسيقى المنبعثة من
مذياع السيارة وخشخشة عدم إحكام ربط صواميل
السيارة، وصوت الريح، قد يسهل عليه الاستغراق فى
النوم.

- ما زلت أقول إن التبشيريين هم الذين خدعوا
ابنى.

- أخبرنا عن شىء آخر، فلقد سمعنا هذا الكلام
مرات كثيرة.

لكن الجد نوكوو لم يأبه لكلام العمه أفيوما، وتابع
حديثه وكأنه لم يسمعها:

- أتذكرُ أول شخص جاء إلى أبا، فادا جون، بوجهه
الأحمر بلون زيت النخيل، وكان برفقته مساعده جودى
من نيمو. فى فترة بعد الظهر كانوا يجمعون الأطفال
تحت شجرة الأوكوا فى مقر الإرسالية التبشيرية
ويعلمونهم ديانتهم. لم أنضم إليهم، ولكن كنت أذهب
فى بعض الأحيان لكى أرى ماذا يفعلون. فى أحد
الأيام قلت لهم، أين هذا الإله الذى تعبدونه؟ وقالوا
إنه مثل تشوكوو وموجود بالسماء، ثم عندما سألتهم
عن ذلك الشخص المقتول والمعلق على الخشب خارج
مقر الإرسالية التبشيرية، قالوا إنه الابن والأب على
السواء.. ألا ترين؟.. هذا يجيبك على السؤال، لماذا
يستخف بى ايوجين.. لأنه يعتقد أننا سواء.

ضحكات خافتة صدرت عن أماكا وأوبيورا وتشىما،
وضحكتُ أيضاً والدتهم العمه أفيوما التى سرعان ما

قالت للجد نوكوو: "كفى، أغلق فمك واسترح، لقد اقتربنا كثيراً من وجهتنا وسنحتاج طاقتك لكي تخبر الأطفال عن المهرجان".

سألت أماكا وهي تنحني بجسدها إلى الأمام في اتجاه المقعد الأمامي:

- هل أنت مستريح يا جدي؟.. أتريد مني أن أعدّل من وضع مقعدك لكي تجد راحتك أكثر؟

- لا.. أنا مستريح هكذا، فأنا رجل عجوز وقد انحنى جسدي الآن، لكن هذه السيارة لم تكن تريحني وأنا في صدر شبابي، ففي تلك الأيام كنت أقطف الثمار من الأشجار بمجرد أن أمد جسدي وذراعي إلى أعلى دون الحاجة إلى تسلقها.

ضاحكة للمرة الثانية، قالت العمة أفيوما:

- بالطبع.. ألم يكن في استطاعتك أيضاً أن تمد جسدك وذراعك لكي تلمس السماء؟

ضحكت ببساطة كما تفعل دائماً، وكذلك ضحك الجميع، حتى طفلها الصغير تشيما.

عند وصولنا إلى ازي اتشيكى، كانت السيارات قد اصطفت على الطريق الواحدة تلو الأخرى، وكان الزحام شديداً إلى درجة يتعذر فيها تبين ما يفصل بين الناس بعضهم البعض، وما يفصل بين قميص التي شيرت والبنطلون والدثار والتتورة والثوب. وبعد جهد عثرت العمة أفيوما على مكان استطاعت أن

توقف فيه السيارة البيجو، لكن بعد أن بدأ المهرجان واستقر فيه البائعون الجائلون فى كل ركن يعرضون فى طاولاتهم سيقان الدجاج وأعواد الشيش كباب واللوبيا والبرتقال المقشر، وفى مبرداتهم آيس كريم الموز.

بدا لى كل شىء أشبه بلوحة تصوير مفعمة بألوان قوس قزح دبت فى عناصرها الحياة، ربما لأننى لم يسبق لى أن شاهدت المهرجان جالسة داخل السيارة مثل آلاف البشر الذين جاؤوا لمشاهدته. كان بابا قد قاد سيارته بنا مرة منذ بضعة أعوام عابراً الزحام فى ازى اتشيكى، وكان يتمتم غاضباً من الناس الجهلاء المشاركين فى الطقوس الوثنية لمهرجان الأقنعة، وقال إن قصصاً تُحكى حول المهرجان تقول إن الأرواح التى تجعل المقاعد تركزض والسلال لا يتسرب منها الماء، هى من الفولكلور الشيطانى الأسود الذى يراه بابا شديد الخطورة.

- لاحظوا هذا.. هذه روح امرأة من نساء المهرجان اللاتى لا ضرر منهن.

أشار الجد نوكوو إلى قناع خشبى عليه نقش ملون يدل على وجه صغير جميل وغاضب بشفتين حمراوين.. توقفت ذات القناع لبعض الوقت لترقص وتتلوى فيتأرجح عقد الخرز الذى يلف الخصر يمينا ويساراً وسط تهليل وصياح الجموع وإلقاء البعض عليها أوراق النقد نايرا، ليلتقطها الذين يتبعون مسيرة

ذوات الأقنعة بعزف موسيقى الآلات النحاسية
والخشبية.

لم يبتعد أصحاب الأقنعة كثيراً عن أعيننا، عندما
صاح الجد نوكوو:

- انظروا بعيداً، فلا يجب على النساء أن ترين
هذا القناع!

كان صاحب القناع يواصل سيره فى الطريق
محاطاً بعدد قليل من الرجال العجائز الذين يدقون
جرساً حاد النغمة. كان القناع عبارة عن جمجمة
إنسان حقيقى بعينين مجوفتين غائرتين وسلحفاة
تتلوى أحكم ربطها بالجبهة، وثعبان وثلاث دجاجات
ميتة معلقة بجسده المغطى بالعشب تتأرجح عند
السير. بسرعة تسبب الفزع فى تحرك الزحام القريب
من الطريق إلى الخلف، وعدد من النسوة استدرت إلى
الخلف وسارعن فى الدخول إلى البيوت المجاورة.

وعلامات السرور ترتسم على وجه العمه أفيوما،
أدارت رأسها بعيداً، وقالت بالإنجليزية:

- يا فتيات لا تنظرن.. هيا نمزح مع جدكن.

كانت أماكا قد أدارت وجهها إلى البعيد، وأنا أيضاً
نظرتُ فى اتجاه الزحام الضاغط حول السيارة حتى
لا أستمر فى النظر إلى ذلك الحفل التنكرى الآثم
الذى ربما لم يكن كذلك لو لم أكتف بلمحة خاطفة.

قال الجد نوكوو مباحياً بعد أن ابتعد صاحب
القناع الجمجمة بضع خطوات:

- إنه من أكثر طقوس المهرجان قوة وجرأة فى
منطقتنا، لذا كل القرويين فى الجوار يخشون أبا
بسببه، وقد حدث فى مهرجان العام الماضى أنه بالغ
ذلك القناع فى استعراض جرأته حتى أن أصحاب
الأقنعة الأخرى ركضوا بعيداً دون انتظار لرؤية ما قد
ينتهى إليه العرض!

"انظروا" .. أشار أوبيورا إلى قناع مخيف آخر
يتحرك أمامنا كشبح بثوبه الأبيض الأكثر طولاً من
شجرة الأفوكادو الموجودة فى فناء منزلنا فى إنوجو..
جال بخاطرى عندئذ المقاعد التى تركض والماء الذى
لا يتسرب من السلال، وتكوينات بشرية تتسلق خارجه
من أعماق بئر عميقة.

- كيف يفعلون ذلك يا جدى؟.. كيف يستطيع
أحدهم الدخول فى قناع كهذا؟

- لا تتحدث كامرأة.. إنها الأرواح!

بحدة وصلف تحدث الجد إلى جاجا بعد أن
استدار نحوه محدقاً فى غضب، الأمر الذى أثار
ضحك العمه أفيوما، التى قالت بالإنجليزية:

- جاجا، لا يجوز لك القول أن ما نشاهدهم
يسيرون أمامنا هم من البشر فى شىء.. ألم يسبق لك

أن قمت بتلوين قناع؟.. لقد رسم أوبيورا قناعاً ولونه
قبل عامين فى بلدة والده.

غمغم جاجا: "لا، لم أفعل".

نظرتُ إلى جاجا، وفكرت فيما إذا كان اختفاء
البريق من عينيه بسبب الخجل، حتى اننى تمنيت لو
أنه كان قد رسم قناعاً ولونه وشرع فى دخول عالم
الأرواح الذى لا أعرف عنه إلا القليل، لأنه ليس من
المفترض للنساء أن تعلم أى شىء على الإطلاق منذ أن
تخطو المرأة أول خطواتها داخل عالم الرجال. وجال
بخاطرى أن المرة الوحيدة التى تحدث فيها بابا عن
الأقنعة قال إن المسيحيين المتمسكين بقوة بتعاليم
دينهم لا يدعون أطفالهم يمارسون هذه الأشياء التى
تؤدى بهم إلى الجحيم.

غادرنا سريعاً ازى اتشيكى، وقامت العممة أفيوما
أولاً بإعادة الجد نوكوو الذى غالبه النوم إلى منزله،
فقد كانت عينه السليمة نصف مغلقة بينما ظلت عينه
التي لا يكاد يبصر بها مفتوحة وعليها طبقة سميكة
من غشاوة بلون اللبن المتخثر. أوقفتُ السيارة داخل
فناء منزلنا، وسألت أطفالها إذا ما أرادوا الدخول..
قالت أماكا بصوت عال "لا" وكأنها تريد أن تلقن
أشياءها ما قالته، وعندئذ قامت العممة أفيوما
باصطحابنا إلى الداخل، ولوحت إلى بابا المنهمك فى
حديث إلى بعض المجتمعين به، وعانقتنا جاجا وأنا
كعادتها بقوة قبل مغادرتها.

حلمتُ في تلك الليلة، بأننى كنت أضحك ضحكاً
لا يشبه ضحكى، على الرغم من عدم تأكدي من
الطريقة التى أضحك بها.. كنت أضحك ضحكة من
الحلق مجاللة وحماسية مثل ضحكة العمه أفيوما.

اصطحبنا بابا فى سيارته إلى قداس الكريسماس
بكنيسة سان بول، وهناك داخل حرم الكنيسة المتسع
قامت العمه أفيوما وأطفالها، الذين استقلوا مبكراً
سيارتهم البيجو الصالون بانتظار بابا حتى يوقف
سيارته المرسيديس، ثم جاءوا لتحيتنا، وقالت إنهم
حضروا القداس الأول، وأنهم سيروننا على الغداء.
بدت أكثر طولاً وجساره فى دثارها الأحمر وحدائها
العالى. ومثل والدتها وضعت أماكا أحمر شفاه زاه
جعل أسنانها تبدو أكثر بياضاً عندما ابتسمت وقالت
"كريسماس سعيد".

برغم محاولتى التركيز فى القداس، إلا أن أحمر
شفاه أماكا استحوذ على تفكيرى وجعلنى أتساءل عن
حقيقة شعور المرأة أثناء قيامها بتلوين شفתיها. وما
جعل تركيزى فى القداس أكثر صعوبة هو القس الذى
كان يتحدث بلغة الإجبو دون أن يتعرض فى موعظته

لحياة السيد المسيح، وبدلاً من ذلك قال - صائحاً
ومشيراً بأصابع الاتهام إلى جموع المصلين :-

- كم منكم تبرع لهذه الكنيسة؟.. كيف يمكننا أن
نشيد بناءً دون أموال التبرعات؟

علمتُ من الطريقة التي كان بابا يمسك بها كتاب
القداس ومن تلمله في جلسته بمقعده أنه كان يتمنى
لو أن القس قد تحدث عن شيء آخر. كنا قد جلسنا
في أول صف المقاعد الخشبية الطويلة بالكنيسة، بعد
أن اندفعت نحونا شابة ترتدى ميدالية تحمل صورة
مريم العذراء فوق ثوبها القطنى الأبيض لتتقدمنا
وترشدنا إلى مكان جلوسنا، قائلة لبابا في همس
عالى الصوت بأن الصفوف الأولى محجوزة
للشخصيات المهمة. كان يجلس إلى يسارنا في الصف
الأول رئيس المدينة أوميدي، الوحيد في أبا الذى يملك
منزلاً أكبر من منزلنا، وإلى يميننا جلس صاحب
السمو الملكى اجوى الذى اتجه بعد انتهاء القداس إلى
بابا لمصافحته.

صحبنا بابا إلى صندوق التبرعات في القاعة
المتعددة الأغراض المجاورة لمبنى الكنيسة، وفي الطريق
قامت إحدى شابات الكنيسة وقد أحكمت ربط الوشاح
بشدة على جبينها بتوزيع منشورات علينا تحتوى صوراً
للمنزل القديم للقس، وعدداً من الأسهم تشير إلى
موضع تسرب المياه بالسقف، وإلى تآكل خشب الباب
الناجم عن هجمات النمل الأبيض. على الفور، قام بابا

بكتابة شيك مصرفى وأعطاه لها قائلاً: انه لا يريد أن يتحدث أحد حول هذا الشأن، لكن عندما أعلن عن قيمة الشيك المصرفى نهض القس وبدأ يرقص ويهز جسده من الخلف يميناً ويساراً، كما نهض آخرون ليعبروا عن امتنانهم بصوت مرتفع أشبه بهزيم الرعد فى نهاية فصل ممطر.

"هيا بنا" .. خاطبنا بابا عندما بدأ الإعلان عن تبرع جديد، وتقدمنا فى طريقه إلى خارج القاعة وهو يبتسم ويلوح للأيدى العديدة التى امتدت لتقبض على ردائه الأبيض وكأن لمسهم له سيشفى من مرض.

عند عودتنا إلى المنزل لم نجد مقعداً شاغراً أو أريكة شاغرة فى حجرة المعيشة، حتى أن بعض الزوار كانوا يجلسون على الطاولات الجانبية، وجميعهم هبوا واقفين لحظة دخول بابا الحجرة، وعلت صيحاتهم له "اوميلورا" وهو يصافح الأيدى الممتدة معانقاً وقائلاً "كريسماس سعيد" و"بارككم الله". أثناء ذلك كان أحدهم قد ترك الباب المؤدى إلى الفناء الخلفى مفتوحاً، فترأى لى بوضوح الدخان الأزرق الرمادى الكثيف الطالع من الخشب المحترق فى الموقد بحجرة المعيشة وقد غطى بصورة ضبابية وجوه الضيوف. كان فى استطاعتى سماع ثرثرة النساء فى الفناء الخلفى وهن يقمن بهلء أطباق مجوفة بالحساء والطعام الساخن من الأوانى الضخمة الموضوعة على النار لتقدم إلى الضيوف.

- هيا تقدا لتحتيتهن.

قالت ماما.. مخاطبة جاجا وأنا. وتبعناها إلى
الفناء بالخارج، وقلنا لهن "مرحباً" .. صفقن بأيديهن
صائحين مهللين. جميعهن متشابهاً في ارتدائهن
سترة غير مهندمة ودثار بال ووشاح رث يلتف حول
رعوسهن، وكان لديهن جميعاً نفس الابتسامة العريضة
والأسنان بلون الطباشير والبشرة الجافة التي لوحتها
الشمس.

- هذا الصبي سيرث ثروات والده!

قالت امرأة ذات فم يشبه نفقاً معتماً ضيقاً..
ووسط ضحك بقية النسوة خاطبتُ امرأة أخرى جاجا
قائلة وهي تضع حطب الوقود أسفل قدر الطعام:
- لو كانت فصيلة دمننا ليست واحدة لكنتُ بعثك
ابنتى.

- الفتاة في سن النضوج وسريعاً جداً سيأتينا
شاب قوى بنبيذ البلح.

قالت امرأة ثالثة مرتدية دثاراً قدراً خياطته غير
جيدة ويتدلى طرفه ليلمس قذارة الأرض أثناء سيرها
حاملة طاولة ممتلئة بشرائح لحم البقر المقلّى.

- اصعدا إلى أعلى وغيرا ملابسكما

قالت ماما وهي تلف ساعديها حول كتفينا..
"عمتكما وأولادها سيكونون هنا سريعاً".

فى الطابق العلوى كانت سيسى قد أعدت طاولة الغداء لثمانية أفراد، وبينما كنت لا أزال أرتدى ملابسى، أتت العمه أفيوما وبصحبتهأ أبنأؤها وضحكتهأ العالفة التى تردد صدهأ لفترة. جلستُ ماما التى كانت لاتزال مرتدفة دثارها البنفسجى الثقفل المزفن بالترتر الذى ارتدته للكنفسة، بجانب العمه أفيوما على الأرفكة، وبالقرب من خزانة خشبفة مكشوفة الرفوف، كان جاجا فتهدث إلى أمأكا وأوبفورا. انضمتُ إليهم وبدأتُ أهْدئُ من سرعة أنفاسى حتى لا فثوب هءفئى تَأتأة أو فأفأة.

- هءا نظام صوتى مجسم، ألس كذلك؟.. لماذا لانستمع إلى بعض الموسفقى؟.. أو أنكما مللتما منه أفضأ.

سألتُ أمأكا وعفناها الوائقتان تسددان نظراتهما الهاءة نحونا جاجا وأنا.

- نعم، إنه نظام صوتى مجسم.

لم فصف جاجا إلى قوله إننا لم نقم بشففله قط، وأننا لم نفكر فى ذلك، وأن كل الذى استمعنا إليه هو الأخبار من مذفاع بابا خلال الوقت المخصص لنا لنقضفه معه ومع ماما. قامت أمأكا بإلقاء نظرة على النظام الصوتى المجسم ولحق بها أوبفورا، ثم قالت:

- لا غرابة فى أنكما لم تقوما بشففله، فمحتوياته أصابها البلى.

- لفست بالفة تماماً.

قال أوبيورا وهو يضغط كعادته على إطار نظارته السميكة العدسات، ثم ضغط على أحد المفاتيح لينطلق صوت غناء كورال كنيسة أيرلندية: "تعالوا إلى جماعة المؤمنين". بدأ أوبيورا مسروراً بتشغيله نظام الصوت الجسم، ووقف يراقبه أثناء الاستماع إلى الأغنية. فى أثناء ذلك انضم تشيما إلى من بالحجرة.

- الحمّام هنا لطيف جداً يا أمى.. به مرايا كثيرة، وزجاجات كريم

- أرجو ألا تكون قد كسرت أى شىء.

- لا يا أمى.. هل يمكننا تشغيل التلفزيون؟

- لا.. عمك ايوجين سرعان ما يصعد إلى هنا لتناول الغداء

حاملة رائحة الطعام والتوابل، جاءت سيسى إلى الحجرة لتخبر ماما بوصول صاحب السمو اجوى وبأن بابا يريدنا جميعاً فى الطابق الأرضى لتحيته. نهضت ماما وهى تحكم شد دثارها وانتظرت العمّة أفيوما لكى تتقدمنا.

- كنت أظن أن من المفترض أن يمكث صاحب السمو أجوى فى قصره ويستقبل الضيوف، ولم أكن أعلم أنه يزور منازل الآخرين

قالت أماكا أثناء هبوطنا الدرج:

- أظن سبب حدوث ذلك هو أن والدك رجل مهم تمنيت لو أنها قالت "العم ايوجين" بدلاً من "والدك".. إنها حتى لم تنظر نحوى وهى تتحدث..

عندئذ شعرت وأنا أنظر إليها أن شيئاً ثميناً يتسرب
من بين أصابعى.

على بعد بضعة دقائق من منزلنا يقع قصر اجوى
الذى قمنا بزيارته مرة قبل بضعة سنوات، ولم نعد إلى
زيارته مرة أخرى، ربما بسبب قول بابا أنه بالرغم من
أن أجوى كان قد اعتنق المسيحية إلا أنه لا يزال يدع
أقاربه الوثنيين يمارسون شعائر تقديم القرابين
لآلهتهم فى قصره. فى تلك الزيارة كانت ماما قد
حيته بالطريقة التقليدية التى تستوجب من المرأة
الانحناء بأكثر ما فى وسعها أمامه ثم تقدم له ظهرها
ليضرب عليه بلطف بمذراة لينة بلون القش مصنوعة
من ذيل حيوان. عند عودتنا إلى المنزل فى تلك الليلة،
سارع بابا ليبلغ ماما أنه من العادات الأثمة الانحناء
أمام اجوى، لذا بعد بضعة أيام لم أركع أمام القس
لأقبل خاتمه حتى أرضى بابا وأجعله يزهو بى، لكنه
جذب أذنى بشدة فى السيارة، إننى أفتقد الفطنة
وحسن التمييز بين القس الذى هو رجل الله واجوى
الذى هو مجرد حاكم وفقاً للعادات والتقاليد المتوارثة
من جيل إلى جيل.

"مساء الخير يا سيدى" .. شعر اجوى الكثيف الذى
يحط على أنفه الكبير اهتز عندما ابتسم لى وقال
"ابنتنا العزيزة؟".

أعدت إحدى حجرات الجلوس الصغيرة لاجوى
وزوجته وأربعة مساعدين، أحدهما كان يهوى له

بمذراة ذات مقبض مطلى بالذهب برغم تدفق الهواء البارد من مكيف هواء الحجرة. والمساعد الآخر الذى يهوى لزوجة أجوى كان امرأة ذات بشرة صفراء حول عنقها قلادات ذهبية وعقود من المرجان ووشاح يلف رأسها يرتفع عالياً جداً من الأمام متخذاً شكل ورق موز حتى أكاد أحسب أن الشخص الجالس وراءها فى مقاعد الكنيسة عليه أن يقف حتى يمكنه رؤية المذبح.

لاحظتُ العمة أفيوما تجثو على إحدى ركبتيها وتقول فى صوت مرتفع وبكثير من الاحترام "أجوى"، ولاحظته يربت على ظهرها ونثار قطع الذهب التى تغطى رداءه تلتمع وتبرق تحت أشعة شمس ما بعد الظهر. وانحنت أماكا ما وسعها الانحناء أمامه، وقام كل من بابا وماما وجاجا وأوبيورا بمصافحته فى إجلال ويدا كل منهم تطوق يده. وقفتُ بالباب وقتاً أطول لأتأكد أن بابا شاهدى عندما لم أظهر تبجيلاً كبيراً لأجوى ولم أنحن أمامه.

صعدتُ ماما إلى حجرتها بصحبة العمة أفيوما، واستلقى تشيما وأوبيورا على السجادة وانشغلا بلعب الورق. ورجبت أماكا فى رؤية كتاب كان جاجا قد أخبرها بشرائه، فتوجهنا معاً إلى حجرته. جلستُ على الأريكة أتابع تشيما وأوبيورا وهما يلعبان الورق دون أن أفهم قواعد اللعبة أو لماذا يصيح أحدهما فى فترات الفاصل بين أشواط اللعب قائلاً وسط ضحكاته "حماراً".

كان نظام الصوت المجسم قد توقف عندما نهضتُ
وذهبتُ إلى الرواق لأقف بجوار باب حجرة نوم ماما،
فقد كنت أرغب في الدخول والجلوس مع ماما والعمة
أفيوما، ولكن بدلاً من ذلك وقفت أستمع إلى ماما
التي كانت تهمس ولم يكن بوسعى إدراك معنى
الكلمات.. "هناك العديد من أسطوانات الغاز ملقاة
بالمصنع" .. كانت تحاول إقناع العمة أفيوما لكي تطلب
من بابا بعضاً منها.

العمة أفيوما كانت تهمس أيضاً، لكننى سمعتها
جيداً لأن همسها مثلها تماماً حماسى وجياش وجسور
وعالى الصوت..

- أنسيت عرض ايوجين بشراء سيارة لى حتى قبل
وفاة افيدورا؟.. لكنه أرادنا أولاً أن ننضم لكنيسة
سان جون، وأن نرسل أماكا إلى مدرسة الدير، وأراد
منى أن أتوقف عن وضع مساحيق التجميل!.. نعم
أريد سيارة جديدة وثلاجة جديدة وأن أستعمل موقد
الغاز ثانية، وأريد المال حتى لا أضطر إلى توسيع
بنطالونات تشيما عندما يكبر وتضيق عليه، لكننى لن
أنحنى له وألحق مؤخرته حتى أحصل على ما أريد

عادت ماما إلى همسها اللين خفيض الصوت:

- أنت تعلمين سبب نفور ايوجين من افيدورا
وعدم توافقهما معاً؟

عاد همس العمة أفيوما الحازم عالى الصوت
ثانية:

- لأن افيدورا أخبره فى وجهه عن شعوره تجاهه .. لم يكن افيدورا يخشى قول الحق، وأنت تعرفين جدال ايوجين حول كل شىء .. والدنا على شفير الموت، أسمعيني؟ .. ومع ذلك لن يدعه يدخل هذا المنزل، لن يلقى عليه السلام .. يتعين على ايوجين التوقف عن ممارسته دور الرب، فالرب أكبر كثيراً من أن يمارس دوره أحد .. إذا كان الرب سيحكم على الأب نوكوو فيما يخص اختياره اتباع أسلافنا فى معتقداتهم، فلندع الرب يصدر هذا الحكم وليس ايوجين.

سمعتُ كلمة أقارب وسمعت ضحكة أفيوما، تلك الضحكة التى تصدر من الحلق قبل أن تجيب:

- أنت تعلمين أن كل فرد من أفراد عائلتنا فى أبا يخبرون ايوجين بما يود سماعه فقط .. ألا يملك أقاربنا الحس السليم؟ .. بالطبع لن يقوم أحد بنهش أصابع اليد التى تغذيه.

لم أسمع صوت أقدام أماكا أثناء خروجها من حجرة جاجا وتوجهها نحوى، ربما لاتساع الرواق، حتى أنها قالت وهى تلتصق بى لدرجة شعرت بأنفاسها فى عنقى ..

- ماذا تفعلين؟

المفاجأة أربكتنى.

- لا شىء

ثم نظرتُ في عيني مباشرة.. وفي استغراب قالت:
- والدك صعد لتناول الغداء.

تطلع بابا إلينا جميعاً ونحن جالسون إلى طاولة الطعام، ثم شرع في صلاة امتدت أطول قليلاً من المعتاد وبلغت أكثر من عشرين دقيقة، وفي الختام ارتفع صوت العمّة أفيوما ليتضح جلياً عن أصواتنا بقولها "أمين".

في فضاء حجرة الطعام، ارتفع صوت قعقعة الأشواك عند التقائها بالأطباق.. كانت سيسى قد أرخت الستائر وأضاءت مصابيح الثريا بالسقف لتضاف إلى أنوار شمس بعد الظهر حتى بدت عينا أوبيورا الذهبيتان العميقتان في لون العسل. في تلك الأثناء كان مكيف الهواء في حالة تشغيل، ومع ذلك كنت أشعر بحرارة الجو.

كومت أماكا في طبقها من كل شيء تقريباً.. أرز ومعجون البطاطا ولحم دجاج وبقر مقلى وحساء وسلطة وكريم وشرائح خس امتدت إلى خارج الطبق ولمست الطاولة، حتى بدت وكأنها شخص لن تتاح له الفرصة ثانية لتناول طعام في وقت قريب لاحق.

- أتتناولين دائماً الأرز بالشوكة والسكين ومنديل
المائدة؟

سألتُ أماكا موجهة أنظارها نحوي. هزرتُ رأسي وأنا أنظر إلى الأرز في طبقى، وداهمتني رغبة في أن

تخفض أماكا من صوتها لأننى لم أعتد مثل هذا النوع من الحديث على المائدة.

- ايوجين، يتعين عليك أن تدع جاجا وكامبيلي يأتيان لزيارتنا فى نسوكا.. نحن لا نملك قصرأ، لكن على الأقل يمكنهما التعرف أكثر على أبناء عمتهن.

- إنهما لا يحبان الابتعاد عن المنزل، أنا متأكد أنهما سيحبان مشاهدة نسوكا، أليس كذلك؟

غمغمتُ وأنا أنظر فى طبقى وشرعتُ فى سعال لكى أوهم أنه لولاه لكنت تفوهت بكلمات معقولة. قال جاجا "صحيح ما يقوله بابا" .. وسرعان ما كافأه بابا بابتسامة تمنيت لو أننى قلت ما قال ومنحنى ابتسامته. "ربما فى أجازتهما الدراسية المقبلة" .. قال فى حسم متوقفاً أن تكتفى العمة بهذا القول.

- ايوجين، دع الأطفال يأتون ليقضوا أسبوعاً معنا، فلن تُستأنف الدراسة حتى آخر يناير.. دع سائقك يحضرهما إلى نسوكا.

- سوف نرى.

تحدث بالاجبو للمرة الأولى، مقطباً حاجبيه فى عبوس. قالت ماما:

- أفيوما كانت تقصد أنهم أوقفوا الإضراب.

سأل بابا بالإنجليزية مرة أخرى:

- الظروف فى طريقها إلى التحسن فى نسوكا؟..

فى هذه الأيام تعيش الجامعة على ماضيها العريق

ضاقت عينا العمة أفيوما..

- هل حاولت مرة واحدة أن ترفع سماعة الهاتف وتطلبني لتسألني ذلك السؤال، ايوجين؟.. هل كانت ستشل يدك لو أنك التقطت سماعة الهاتف فى يوم ما لتحدث شقيقتك؟

حملتُ كلماتها بالاجبو إيقاعاً ساخراً، لكن الحدة والصرامة فى نغمة صوتها أحدثت غصة فى حلقى.

- لقد حادثتك، أفيوما.

- منذ متى كانت محادثتك تلك؟.. أنا أسألك.. كم من الوقت مضى على هذه المحادثة؟

وضعتُ العمة أفيوما شوكتها على الطبق وجلست ساكنة لفترة وقد لفها التوتر كما لف بابا وجميعنا. صدر من ماما صوت نحنحة من حلقها وسألت بابا ما إذا كانت زجاجة الشراب فارغة.

- اطلبى من تلك الفتاة أن تحضر المزيد من زجاجات الشراب.

نفذتُ سيسى ما طلبته ماما على الفور، وأتت بزجاجات شراب طويلة نحيلة أشبه بامرأة جميلة، وأفرغ بابا منها فى الكئوس الثمانية مقترحاً على الجميع أن يشربوا فى نخب "روح الكريسماس وعظمة الرب". كررنا قوله فى أداء أشبه بإنشاد الجوقة. "ونخبنا نحن ونخب روح العائلة" .. أضافت أفيوما قبل أن تتناول شرابها. وأماكا تحدى بنصف إغماضة فيما كتب على الزجاجاة، سألت:

- هل مصنعك يقوم بصنع هذا الشراب، عمى ايوجين؟

- نعم

- مذاقه سيكون أفضل لو خفض السكر فيه قليلاً

قالت أماكا بصوت مهذب وعادى، بالطريقة نفسها التى يتم التحدث بها كل يوم إلى شخص أكبر فى العمر. لم أتبين ما إذا كان بابا قد هز رأسه أو حركها ببساطة أثناء مضغه الطعام. شعرتُ بغصة أخرى فى حلقى صعبتُ من ابتلاعى بقايا أرز فى فمى، وعندما مددت يدي إلى كأس الشراب أمامى اصطدمتُ به وسال شراب العصير بلون الدم على مفرش المائدة الأبيض، وبسرعة أمسكتُ ماما بمناديل المائدة لتجفف الشراب المسكوب، وعند رفعها المناديل التى احمرّت لونها تذكرتُ الدم الذى سال منها على الدرج.

- هل سمعت عن أوكبى، عمى ايوجين؟.. إنها قرية صغيرة فى بينوى تظهر العذراء المباركة فيها.

تعجبتُ كيف استطاعت أماكا أن تفتح فمها وتخرج كلمات منه بيسر.. استغرق بابا بعض الوقت فى مضغ الطعام وابتلاعه قبل أن يقول:

- نعم، سمعت عن هذا.

- أعدّ للذهاب لزيارة هذا المكان مع الأطفال.. وربما يمكن لكامبيلى وجاجا الذهاب معنا:

بسرعة تطلعتُ أماكا إلى والدتها بعينين تملؤهما
الدهشة، وشرعتُ فى قول شىء ثم توقفتُ.. فى تلك
الأثناء كان بابا يحدق فى طبق الطعام أمامه وعلى
وجهه علامات تفكير وقال:

- حسناً، الكنيسة لم تؤكد صحة وموثوقية ظهور
العدراء.

- أنت تعلم، أنا جميعاً سنكون قد فارقنا الحياة
قبل أن نتحدث الكنيسة بشكل رسمى عما جرى فى
أوكبى.. وحتى إذا لم تؤكد الكنيسة صحة وموثوقية
الظهور، فما يهمنى هو الشعور الإيمانى الذى يدفعنا
إلى الذهاب.

بدا بابا مسروراً على نحو غير متوقع بما قالته
العمة أفيوما، وهزّ رأسه بتأن وسأل:

- متى حددتِ الذهاب؟

- فى شهر يناير قبل عودة الأطفال إلى المدرسة

- حسناً، سأحدثك عند عودتنا إلى انوجو لكى
نرتب لذهاب جاجا وكامبيلى ليوم أو يومين.

- أسبوع، ايوجين.. سيمكثان أسبوعاً.. فليس فى
منزلى وحش مفترس.

ضحكتُ العمة أفيوما، وقام أطفالها بإعادة إنتاج
تلك الأصوات الصادرة من الحلق، والتمعتُ أسنانهم
مثل التماعة نواة البلح بعد تشققها، لكن أماكا وحدها
لم تضحك.

* * *

فى اليوم التالى الأحد، الذى لم يكن يشبه يوم أحد عادى، جاءت ماما إلى حجرتى وهزّتنى برقة وعانقتنى، فشممت رائحة مزيل العرق بنكهة النعناع الذى تستعمله.

- هل نمت جيداً؟.. نحن ذاهبون إلى القداس المبكر اليوم، لأن والدك مرتبط باجتماع بعده مباشرة.. هيا إلى الحمام، فالساعة الآن تجاوزت السابعة

أظهرتُ قليلاً من الاستياء ونهضت واقفة لأكتشف وجود بقعة حمراء واضحة على السرير.

- دورتك الشهرية؟

- نعم.

سريعاً تركتُ الماء يفمر جسدى قبل أن أخرج من تحت الدش حتى لا أتأخر، والتقطتُ ردائى الأزرق ولففت وشاحاً حول رأسى وعقدته مرتين عند رقبتى من الخلف. كان بابا قد عانقنى بفخر لأن الأب بينيديكت أخبره أن شعرى يكون مغطى دائماً أثناء القداس، واننى لست مثل الفتيات الشابات الأخريات فى الكنيسة اللاتى يدعن شعرهن ظاهراً وكأنهن لم يعلمن أن إظهار شعرهن فى الكنيسة من الأمور الآثمة.

ارتدى جاجا وكذلك ماما ملابسهما وانتظرا فى حجرة المعيشة بالطابق العلوى حتى أخرج إليهما. كنت

أشعر بألم شديد فى أسفل البطن من الأمام أشبه
بضربات منتظمة فى جدار المعدة.

- هل لديك قرص بنادول، ماما؟

- ألم أسفل البطن؟

- نعم، ومعدتى فارغة أيضاً

نظرتُ ماما إلى ساعة الحائط البيضاوية الشكل
المنقوش عليها اسم بابا بحروف مطلية بماء الذهب،
والتي أُهديت إليه من قبل جمعية خيرية نظير
تبرعاته. أشارت الساعة إلى ٧,٣٧ صباحاً. ولأن
المتعارف عليه كئسيّاً الامتناع عن تناول طعام صلب
قبل موعد القداس بساعة، فقد اقتصر الإفطار على
الشاي وقليل من الحبوب.

- تناولى بسرعة قليلاً من رقائق الذرة بالحليب..
أنت تحتاجين شيئاً فى معدتك حتى يمكنك ابتلاع
قرص البنادول.

قالت ماما بصوت هامس، ثم أسرع جاجا بصب
رقائق الذرة فى طبق زجاجى مجوف وسكب الحليب
الجاف والسكر وأضاف الماء، وقلَّب المزيج بملعقة
شاي.

- سنسمع خطوات بابا صاعداً الدرج بعد مغادرة
الضيوف.

وأنا واقفة ألتهم بسرعة ما بالطبق، أعطتنى ماما
قرص بنادول، وقبل أن أنتهى تماماً من التهام

إفطاري، فُتِح الباب ودخل بابا مرتدياً قميصاً أبيض مخططاً أظهر بطنه الكبيرة أمامه.. وبينما كان يحدِّق في الطبق الزجاجي الشفاف المجوف الذي في يدي، نظرتُ إلى بعض الرقائق الطافية فوق الحليب، وأنا أتعجب كيف تسلق الدرج بدون إحداث أى صوت.

- ماذا تفعلين، كامبيلي؟

بصعوبة ابتلعتُ ما بفي.

- أنا.. أنا

- أنت تتناولين طعاماً قبل ١٠ دقائق من القداس..

١٠ دقائق قبل القداس؟

- دورتها الشهرية بدأت وتعانى من ألم شديد

بمعدتها.

قالت ماما، ثم قاطعها جاجا سريعاً:

- أخبرتها أن تتناول طبق رقائق الذرة بالحليب

الذى صنعه لها حتى يمكنها ابتلاع قرص بنادول، بابا

- هل طلب الشيطان منكم أن تعملوا في خدمته؟

تدافعتُ الكلمات بالاجبو من فمه.

- هل قام الشيطان ببناء خيمة له في منزلي؟

التفتَ إلى ماما قائلاً:

- أنت تجلسين هناك وتراقبينها وهي تفعل ما

يفضبه الرب؟

بيطاء، قام بفك حزامه الثقيل المكون من طبقات من الجلد البنى، وشد قبضته عليه، وهوى به فوق كتف جاجا أولاً ثم ماما التي تلتقه بأعلى ذراعها المغطى بقماش سترة الكنيسة المنتفخ والمزين بالترتر، وعندما هوى الحزام فوق ظهرى وضعتُ الطبق على الطاولة.

أحياناً كنت أرقب السوط فى أيدي الرعيان يفرقع فوق ظهور قطيع الأبقار عند عبورها نهر الطريق فى انوجو، وهم يصدرون من أفواههم صوت طقطقة يدعونها به إلى عدم التفرق، وكنت أعجب كثيراً لقدر دقة ورشاقة حركة السوط فوق أجسادها.. كان بابا كأحد هؤلاء الرعيان برغم كونه أقل طولاً وأكثر امتلاءً، وهو يضرب بحزامه ظهر ماما وجاجا وأنا متمماً بأن الشيطان لن يحقق فوزاً. لم نتحرك أكثر من خطوتين بعيداً عن الحزام الجلدى الذى كنا نسمع صوت حفيفه فى الهواء.

حدقُ بابا فى الحزام فى يده بعد توقفه عن الحركة، وكان وجهه متفضناً وجفناه مرتخيين:

- لماذا تسيرون نحو الإثم؟.. لماذا تحبون الإثم؟

أخذتُ ماما الحزام من يده ووضعتُه على الطاولة، ثم قام ليحشرنا - جاجا وأنا - إلى جسده، وراح يتفحص وجهينا:

- هل آذاكما الحزام؟.. هل ترك أثراً على جسديكما؟

شعرتُ بوخز الألم فى ظهرى، لكننى قلت لم يلحق
بى أذى.. كانت طريقته فى هز رأسه عندما تحدث
عن حبنا للإثم جعلتنى أشعر وكأن شيئاً باهظاً قد
أثقل عليه وأرهقه وأوقع الكآبة فى نفسه.. وكأن شيئاً
باهظاً لم يكن فى مقدوره أن يلقى به بعيداً.

توجهنا إلى القداس الثانى بعد أن قمنا جميعاً
ومعنا بابا بفلس وجوهنا وتغيير ملابسنا.

* * *

غادرنا أبا مباشرة فى بداية العام الجديد، بعد أن
جمعتُ زوجات الأقارب ما تبقى من طعام، وقد جثون
على أقدامهن فى أرض الفناء الملوثة، شاكرين لبابا
ومامما. وعند دوران محرك السيارة لوح لنا هارونا
بواب المنزل بذراعيه الممتدتين أعلى رأسه. كان هارونا
قد أخبرنا قبل بضعة أيام، جاجا وأنا، بإنجليزيتة التى
تحمل لكنة قبائل الهوسا التى تخلط بين الحروف عند
النطق قائلاً: أن والدنا أفضل رجل وقعت عليه عيناه،
وأفضل شخص عمل لديه، كما أخبرنا أن والدنا قام
بدفع الرسوم المدرسية لأطفاله وبمساعدة زوجته فى
الحصول على وظيفة ساعى بأحد المكاتب الحكومية
المحلية، وأكد لنا أننا محظوظون لأن لدينا مثل هذا
الوالد.

قرأ بابا بعض الصلوات، وسيارتنا تتجه إلى
الطريق السريع، وبعد أقل من نصف ساعة مررنا
بنقطة تفتيش تشهد حركة مرور مزدحمة وعدداً من

رجال الشرطة أكثر كثيراً من المعتاد يقومون بتخفيف حدة الزحام وهم يشهرون بنادقهم. لم نعرف سبباً لهذا الزحام إلا عندما أصبحنا فى مركزه، فقد اصطدمت سيارة قادمة من الخلف بقوة شديدة بسيارة متوقفة عند حاجز التفتيش، وبسيارة ثالثة تداخلت أجزاءها فى بعضها من قوة الصدمة حتى أصبحت فى نصف حجمها، وعلى جانب الطريق تمددت جثة غارقة فى دمائها لرجل يرتدى جينز أزرق.

- لعل روحه ترقد فى سلام الآن -

قال بابا راسماً علامة الصليب على صدره.. وقالت ماما وهى تستدير نحونا إلى الخلف "انظروا بعيداً". لكن جاجا وأنا كنا فى تلك الأثناء ننظر إلى الجثة الغارقة فى دمائها. تحدث بابا عن رجال الشرطة وعن وضعهم الكتل الخشبية الضخمة كحواجز للطرق على الرغم من خطورتها على راكبي السيارات، حتى يمكنهم استعمال المناطق ذات الشجيرات الخفيضة كثيفة الأغصان لإخفاء الأموال التى يفتصبونها من المسافرين. لم أكن فى حقيقة الأمر أصغى إلى بابا، فقد كنت أفكر فى الرجل الذى كان يرتدى الجينز الأزرق ولقى مصرعه، وأتساءل عن الوجهة التى كان يقصدها، وعن الشئ الذى كان سيقوم به هناك.

* * *

بعد يومين تحدث بابا هاتنياً بالعمة أفيوما، وربما لم يكن قد هاتفها لو لم يتحادثا في ذلك اليوم، وربما أيضاً لم يكن قد سمح لنا بالذهاب إلى نسوكا، وأصبح كل شيء على حاله.

كان اليوم عيد ايبيفانى، يوم الالتزام المقدس، لذلك لم يذهب بابا إلى العمل، وذهبنا إلى قداس الصباح. وبالرغم من أننا لا نذهب عادة لزيارة الأب بينيديكت في أيام الالتزام المقدسة، فقد ذهبنا إلى منزله بعد القداس، وهناك طلب بابا من الأب بينيديكت أن يسمع اعترافنا. ربما لم نذهب إلى أبا لأن بابا لم يرغب في الاعتراف بلغة الاجبو، بالإضافة إلى قوله إن قس الأبرشية في أبا لم يكن على قدر كاف من الكنسية، وأن المشكلة التي يعانى منها النيجيريون تكمن في خطأ أولوياتنا، لأننا نهتم كثيراً جداً ببناء الكنائس الضخمة والتماثيل الفخمة على عكس البيض الذين لا يفعلون ذلك أبداً.

في منزل الأب بينيديكت، جلسنا ماما وجاجا وأنا في حجرة المعيشة، نقرأ الجرائد والمجلات المبعثرة فوق طاولة منخفضة تشبه الكفن، وكأنها وضعت لغرض البيع. خرج بابا من حجرة المكتب المجاورة التي كان يتحدث فيها إلى الأب بينيديكت، وطلب منا أن نستعد للاعتراف بعده، وبالرغم من أن بابا أغلق من خلفه باب حجرة المكتب بقوة فقد سمعتُ صوته وتدفق كلماته الواحدة بعد الأخرى في دمدمة لا تتوقف مثل دمدمة محرك سيارة.

دخلتُ ماما حجرة المكتب وظل الباب مفتوحاً
محدثاً صوت طقطقة صعب على سماع صوتها. وعند
خروج جاجا بعد وقت قصير وهو يرسم علامة
الصليب على صدره وكأنه كان يتعجل خروجه من
الحجرة، سألته بعيني إذا كان قد تذكر كذبتة التي
تتصل بالجد نوكوو، فهز رأسه، وعند دخولي الحجرة
التي لا تكاد تتسع لمكتب ومقعدين، دفعتُ الباب بقوة
لأتأكد من إغلاقه.

- باركني يا أبى واسأل الرب أن يغفر آثامى.

وأنا فى شوق للاعتراف، جلستُ على حافة المقعد،
يفصل بينى أنا النادمة التائبة وبين القس ستارة
خضراء.. رغبتُ فى أن أجتو على قدمى وأن أحمى
وجهى بملف ورقى من مكتب الأب بينيديكت لأن
الاعتراف وجهاً لوجه جعلنى أفكر فى قرب يوم
الحساب الذى أشعر أننى غير مستعدة له.

- نعم، كامبيلى

قال الأب بينيديكت جالساً على مقعده فى وضع
عمودى، يلامس بأصابعه ثوبه الطويل الأرجوانى
الفضفاض، وأنا أحرق بثبات فى الحائط تحت صورة
البابا ذات الإطار، عليها توقيع بحروف كتبت فى
عجلة، قلت:

- مرت ثلاثة أسابيع منذ آخر اعتراف لى.. هذه
آثامى.. مرة لم ألتزم بعدم تناولى طعاماً ثقيلاً قبل
القداس بنصف ساعة، وفقدت تركيزى أثناء الصلاة

ثلاث مرات.. وبسبب ما قلته وكل ما نسيت قوله،
ألتمس العفو والمغفرة من يديك ویدی الرب.

تحرك الأب بينيديك من مقعده:

- استمرى.. أنت تعلمين أن من الإثم أمام الروح
القدس إخفاء شيء ما عند الاعتراف.

- نعم، يا أبی

- استمرى إذن

أدرتُ بصرى لكى ألقى بنظرة عجلى عليه.. عيناه
خضراوان قاتمتان بلون جلد أفعى، كنت قد شاهدتها
مرة تزحف بالقرب من شجيرات الكركديه الكثيفة
الأغصان بالفناء، وقال عنها البستاني إنها من أفعى
الحدائق التى لا تؤذى.

- كامبيلی، يجب أن تعترفى بكل آثامك

- نعم يا أبی.

- من الخطأ أن تخفى شيئاً عن الرب.. سأعطيك
لحظة للتفكير.

هزرتُ رأسى، وحدقت ثانية فى الحائط.. هناك
شيء ما فعلته ويعلمه الأب بينيديك ولا أعلمه؟
أخيراً قلت:

- أمضيت أكثر من ١٥ دقيقة بمنزل جدى الوثنى

- هل تناولت أى طعام أعدّه أضحية لإلاهه؟

- لا يا أبی.

- هل شاركت فى أى طقوس وثنية؟

- لا يا أبى.. لكننى نظرت إلى الأقدعة.

- هل استمتعت بالنظر إليها؟

نظرتُ إلى الصورة على الحائط وتساءلتُ عما إذا كان البابا هو من وضع توقيعه بنفسه عليها.

- نعم يا أبى

- أنت تدركين أن من الخطأ الشعور بمتعة الفرجة على طقوس وثنية خرافية، لأنها البوابة المؤدية إلى الجحيم.. هل تفهمين هذا؟

- نعم يا أبى.

- عليك بذل جهد واع من أجل منع أى شخص من أن يجد متعة فى تلك الطقوس الوثنية.

- نعم يا أبى.

- حسناً، رددى إذن صلاة التوبة والندم.

وبينما كنت أردد صلوات الندم والتوبة، غمغم الأب بينيديكت بكلمات مباركة لى، ثم رسم علامة الصليب. وخرجتُ من حجرة مكتبه لأجد بابا وماما جالسين على الأريكة وقد انحنى رأساهما، فجلست إلى جانب جاجا، ثم أحنيت رأسى وواصلت ترديد صلاة التائب. ونحن فى طريقنا إلى المنزل، تحدث بابا بصوت مرتفع وقال:

- جميعنا أطهار الآن، حتى إذا ما نادانا الرب إليه، نذهب مباشرة إلى السماء.

كان مبتسماً، عيناه تلمعان، ويده تنقر برقة على عجلة القيادة.. وظل مبتسماً إلى ما بعد عودتنا إلى المنزل وحتى أثناء حديثه الهاتفى إلى العمه أفيوما.

- لقد ناقشت الأمر مع الأب بينيديكت ويقول إن الأطفال يمكنهم الذهاب إلى أوكبى، لكن يجب أن يكون واضحاً أن ما يحدث هناك لم تقم الكنيسة بإثبات صحته ومصداقيته.

-

- سيأخذهما كيفن السائق.

-

- ربما ليس غداً، وإنما بعد الغد.

-

- حسناً، حسناً.. وهو كذلك.. يباركك الرب أنت وأولادك.. وداعاً.

وضع سماعة الهاتف فى مكانها والتفت إلينا:

- ستفادران غداً، ولذلك اصعدا إلى الطابق العلوى، وجهزا أنفسكما وأشياءكما.

- نعم، بابا.

قلت وجاجا فى صوت واحد، ثم قالت ماما:

- لا يجب أن يزورا العمه أفيوما وأيديهما خاوية حدق بابا فى وجهها وكأن ما قالته أثار دهشته.

- سنضع بعض الطعام فى السيارة بالطبع.. أرز وبطاطا.

- ذكرتُ لى أفيوما أن أسطوانات الغاز يحصلون عليها فى نسوكا بشق الأنفس.

- أسطوانات الغاز؟

- نعم.. غاز لمواقد طهى الطعام.. قالت إنها تستعمل الآن موقد الكيروسين.. أتذكر قصة الكيروسين المغشوش الذى يفجر المواقد ويقتل الناس؟.. ربما يمكنك إرسال أسطوانة أو اثنتين إليها من المصنع.

- أهذا ماخططت له أنت وأفيوما؟

- هذا مجرد اقتراح منى ولك أنت القرار.

دقق بابا فى وجه ماما لفترة.

- حسناً.

ثم التفت إلينا جاجا وأنا:

- اصعدا ورتبا حاجياتكما.. يمكنكما أخذ عشرين دقيقة لذلك من الوقت المخصص لمذاكرة دروسكما.

بيطاء صععدنا الدرج الحلزونى، وأنا أفكر وربما هو يفكر أيضاً فى أنه للمرة الأولى فى حياتنا سننام خارج المنزل بدون وجود بابا معنا.

- جاجا، هل تريد الذهاب إلى نسوكا؟

- نعم

قال وعيناه قالتا أنه يعلم أنتى أيضاً أريد ذلك، ولم أجد الكلمات فى لغة عيوننا لكى أخبره عما شعرت به عندما أفكر فى بضعة أيام نقضيها معاً بدون صوت بابا وبدون وقع أقدامه على الدرج.

* * *

أحضر كيفن فى اليوم التالى أسطوانتين مملوءتين بالغاز من مصنع بابا ووضعهما فى حقيبة السيارة الفولفو إلى جوار أجولة الأرز والفاصوليا والبطاطا وثمار الأناناس.. وإلى جوار شجيرات الكركديه الأرجوانية، وقفنا - جاجا وأنا - ننتظر ونحن نرقب البستانى وهو يشذب أغصان الشجر ويجمع الأوراق الصفراء والزهور الذابلة داخل عربة صغيرة لجمع العشب.

- هذا جدول ينظم ساعات الأيام التى ستمضيانها فى نسوكا.

وضع بابا فى يدى ورقة بيضاء تشبه الجدول الملصق بأعلى طاولة مذكراتى فى الطابق العلوى، ما عدا إضافة ساعتين لقضائهما مع أبناء العمّة كل يوم.

- اليوم الوحيد الذى لن تلتزما فيه بالجدول هو يوم ذهابكما إلى أوكبى مع عمكما.

عانق جاجا ثم عانقتى، وكانت يدها ترتعشان

- لم يحدث أن ابتعدتما عنى من قبل إلا ليوم واحد فقط.

لم أعرف ما يتعين علىّ قوله ردأً على ما قال، لكن
جاجا هز رأسه وقال:

- سنراك قبل مرور أسبوع.

وجه حديثه نحو السائق ونحن نركب السيارة:

- كيفن، قُد السيارة بعناية.. هل تفهم ما أقول؟

- نعم يا سيدي

- زوُد السيارة بالوقود أثناء عودتك ولا تنسى
إحضار الفاتورة.

- نعم يا سيدي

طلب بابا أن ننزل من السيارة، وعانق كل منا ثانية،
وأكد علينا ألا ننسى ترديد الصلاة طوال الطريق، ثم
عانقنا للمرة الثالثة قبل عودتنا إلى السيارة، وعندما
اتجه كيفن إلى الشارع الرئيسي، قال جاجا وهو ينظر
إلى المرأة الخلفية للسيارة:

- لا يزال بابا يلوح لنا بيده

- إنه يبكي

- البستانى يلوح لنا كذلك

جذبتُ كتاب الصلوات من جيبي وقبّلتُ رسم
الصليب وبدأتُ فى ترديد الصلوات.

عبر زجاج السيارة، وعلى جانبي الطريق وجدتي
أحصى هياكل عتيقة سوداء لعدد من السيارات
الواحدة بعد الأخرى، بعضها مضى عليه وقت طويل
حتى غطاها صداً ضارب إلى الحمرة. جال بخاطري
أولئك الناس الذين كانوا بداخل هذه السيارات، وكيف
كان شعورهم قبل وقوع الحادث وتهشم زجاج السيارة
وتحطم جسمها واضطرام النار فيه. لم أركز تفكيرى
فى الصلوات التى أرددها، كذلك جاجا كان ينسى
باستمرار دوره فى قراءة الصلوات بعد أربعين دقيقة
تقريباً من قيادة السيارة، رأيت لافتة على جانب
الطريق كتب عليها "جامعة نيجيريا.. نسوكا"، وسألتُ
كيفن إذا كنا قد اقتربنا من وجهتنا فأجابنى "بعد عدة
دقائق أخرى".

بالقرب من مدينة أوبى حيث يغطى الغبار كنيستها
ولافتة مدرستها، توقفتُ السيارة أمام حاجز للشرطة

تتناثر من حوله إطارات قديمة وقوائم خشبية من جذوع الأشجار مزودة بربوس مسامير كبيرة تشغل معظم الطريق، تاركة مساحة ضيقة خالية. أشار شرطى لسيارتنا بالاقتراب، فهمهم كيفن مستكراً، ثم أثناء قيامه بتخفيض سرعة المحرك، مد يده إلى علبة فى لوحة أجهزة قياس السيارة وأخرج منها ورقة مالية من فئة ١٠ نايرا ودفع بها فى اتجاه الشرطى الذى ابتسم ورحب متهكماً ولوح لنا بمواصلة السير. ما فعله كيفن لم يكن فى استطاعته فعله لو كان معنا بالسيارة بابا الذى عندما يستوقفه رجال شرطة المرور ينفق وقتاً طويلاً فى عرض كل أوراق السيارة عليهم ويدعهم يفحصون السيارة ولا يحاول أبداً رشوتهم حتى يدعونه يمر، وبعدئذ يقول إننا لا يمكن أن نصبح جزءاً من الشيء الذى نقاومه، وهو القول الذى يكرره علينا دائماً.

- ندخل الآن مدينة نسوكا -

مررنا بالسوق المزدحم بالمتاجر المصطفة على جانبي الطريق بأرفف بضائعها المتناثرة التى تهدد بالسقوط على شريط نحيل من الطريق مكسب بسيارات متوقفة، وباعة متجولين يحملون طاوالات بضائعهم فوق ربوسهم، ودراجات بخارية، وصبية يدفعون أمامهم عربات يد صغيرة محملة بالبطاطا، ونساء يحملن السلال، وشحاذين.

ببطء يقود كيفن السيارة متفادياً الحفر التى تبرز فجأة وسط الطريق وهو يتبع حركة مسار السيارات

التي أمامنا. وعندما تركنا السوق من خلفنا ووصلنا إلى نقطة يضيق فيها الطريق ويتآكل من الجانبين، أوقف كيفن السيارة لفترة تاركاً الفرصة لمُرور سيارات أخرى قادمة من الاتجاه المعاكس.

- نحن إلى جوار الجامعة أخيراً

قوس حجري عريض ضخم نُمرُّ من تحته، يحمل لافتة عليها كلمات بحروف سوداء من المعدن "جامعة نيجيريا.. نسوكا"، وأسفل القوس بوابات واسعة مفتوحة يحرسها رجال أمن في زي بني قاتم وعلى رؤوسهم قلنسوات بدرجة من درجات اللون البني. أوقف كيفن السيارة وأنزل زجاجها.

- مساء الخير.. من فضلك، أي طريق يوصلنا إلى

مارجريت كارترايت افينيو؟

اقترب منا رجل الأمن بوجهه المتغضن محيياً قبل أن يخبر كيفن أن مارجريت كارترايت افينيو قريب جداً، ويتعين علينا أن نسير إلى الأمام للحظات ثم نخرج يمينا عند أول تقاطع وسرعان ما نجده إلى اليسار. شكره كيفن ثم تابعا سيرنا في الطريق الذي تمتد على جانبيه مرجة خضراء بلون أوراق نبات السبانخ في وسطها تمثال أسود اللون لأسد يقف على قدميه الأماميتين وذيله إلى أعلى وصدره منتفخ. لم أكن أدرك أن جاجا ينظر مثلي من النافذة حتى قرأ بصوت عال كلمات محفورة على قاعدة التمثال "حافظوا على شرف الإنسان"، وأضاف "إنه شعار الجامعة".

شارع مارجریت کارترایت افینیو تحده من الجانبین
أشجار جمیلینا بجدوعها الطویلة المستقیمة الكثیفة..
جال بخاطری أنه عند حلول فصل هطول الأمطار
المصحوب بهزیم الرعد ستتحنى الأغصان الكثیفة من
الجانبین نحو الشارع إلى أن تلمس بعضها البعض،
وعندئذ يتحول الشارع إلى نفق مظلم.. منازل صغيرة
من طابقین بینها و بین الطریق العام طریق خاص
مفروش بالحصى وعلیه لافتات تحذر من الكلاب.. ثم
منازل ريفية من طابق واحد لها طریق خاص بطول
سیارتین، ومجمعات سكنية مكونة من عدة طوابق، بكل
طابق مجموعة من الشقق، وأمام هذه المجمعات
مساحات فضاء عامة بدلاً من الطرق الخاصة.

خفّضَ کیفن من سرعة المحرك مغمماً برقم منزل
العمة أفيوما، الأمر الذى جعلنا نشعر بأننا على وشك
الوصول.. مبنى لونه أزرق شاحب يتكون من ثلاث
شقق بكل طابق، وفى شقة بالدور الأرضى إلى اليسار،
بشرفتها هوائى جهاز تليفزيون، تقطن العمة أفيوما..
أمام الشقة حديقة صغيرة ألوانها زاهية مسورة بسلك
شائك، ينمو فیها شجر الورد وأشجار الكرکدیه
الأرجوانية وزهور السوسن، جنباً إلى جنب كإكلیل
زهر.

خرجتُ العمة أفيوما من شقتها فى بنطلون قصير
وتى شيرت وهى تفركُ يديها أمام صدرها، وقد بدا
جلد ركبتها داكناً جداً.

- جاجا!.. كامبيلي!

كانت قد انتظرت على مضض نزولنا من السيارة قبل أن تعانقنا بقوة وتضمنا إليها بذراعيها الممدودتين على آخرهما.. حياها كيفن ثم استدار ليفتح حقيبة السيارة، وعندما نظرتُ داخلها أطلقت صيحة.

- حسناً!.. حسناً!.. هل يعتقد ايوجين أننا جوعى

إلى هذا الحد؟

قال كيفن مبتسماً:

- هذه تحية سيدى لك.

- وأسطوانة غاز أيضاً؟.. ما كان لوالدتكما أن

تتعب نفسها كثيراً.

فجأة أدتُ العمة أفيوما رقصة صغيرة محركة

ذراعيها كحركة مجدافين، ملقية ساقها الواحدة بعد

الأخرى إلى الأمام، ضاربة الأرض بقدميها بقوة..

فرّك كيفن يديه معاً فى سرور وعلامات الدهشة

ترتسم على وجهه، وأخرج أسطوانة الغاز من حقيبة

السيارة، وساعده جاجا على حملها لإدخالها الشقة.

- سيرجعون سريعاً، فقد ذهبوا للتهنئة بعيد ميلاد

الأب أمادى، صديقنا الذى يعمل فى الأبرشية، وأنا

أقوم بطهى الدجاج لكما.

ضحكتُ العمة أفيوما وجذبتنى إلى جسدها،

فشممتُ رائحة جوز الطيب.. وسأل كيفن:

- أين أضع هذه الأشياء؟

- اتركها فى الشرفة حتى تضعها أماكا ومعها أوبيورا فى المطبخ بعد ذلك.

ظلت العمه أفيوما تمسك بى أثناء دخولنا حجرة المعيشة، وأنا ألحظ كم هو منخفض سقف الشقة عن الأسقف العالية لمنزلنا، حتى شعرتُ أن بمقدورى مد ذراعى ولمسه.. وإلى أنفى تسلفت من المطبخ رائحة دخان الكيروسين ممتزجة بروائح الكارى وجوز الطيب.

اندفعتُ العمه أفيوما إلى المطبخ لكى تنزل إناء الأرز من فوق النار قبل أن يحترق، بينما جلستُ أنا على الأريكة البنية الوحيدة فى حجرة المعيشة بوسائدها التى انسلتُ خيوط نسيجها وتهرأت عند الأجزاء المخيطة. إلى جانب الأريكة مقاعد من الخيزران عليها وسائد بنية تتوسطها طاولة من الخيزران أيضاً تعلوها زهرية بها ثلاث زهور حمراء من البلاستيك وعلى جدارها رسومات لنساء يرقصن مرتديات لباس الكيمونو اليابانى. خرجتُ العمه أفيوما من المطبخ وقالت:

- لا تعتبرى نفسك ضيفة هنا.. تعالى معى

تبعتها إلى رواق به صف من أرفف الكتب تكاد ألواح الخشبية الرمادية المتهالكة لا تتحمل كتاباً واحداً إضافياً.

- هذه حجرتي، ينام معي تشيما .

فتحتُ العمة أفيوما الباب فرأيت - بالقرب منه -
حقائب أرز وعلب حليب مجففة مكدسة إلى جانب
الحائط، وفي أحد الأركان طاولة خشبية عليها
مصباح للقراءة وزجاجات دواء وكتب، وفي الركن
المقابل حقائب ملابس مكومة بعضها فوق بعض.
سبقتني بخطوات لتريني حجرة أخرى بها سريران
وتسريحة وطاولة مذاكرة ومقعد. وكأنها قرأت ما
جال بخاطري، قالت:

- أنت وأماكا ستنامان هنا، وسيمكث جاجا مع
أوبيورا في حجرة المعيشة.

في داخل الشقة سمعتُ صوت جاجا وكيفن.

- لقد أحضرتُ كل ما كان بحقيبة السيارة،
وسأغادر الآن يا سيدتي.

لم يكن كيفن في حاجة لأن يرفع صوته من حجرة
المعيشة لضيق مساحة الشقة.

- أبلغ ايوجين بأنني شاكرة له وبأننا على ما يرام..
وتوخى الحذر أثناء قيادتك للسيارة.

لحظة مفادرة كيفن أحسستُ فجأة بضيق في
صدرى، ورغبت في الركض خلفه لأطلب منه الانتظار
حتى أحضر حقيبتى وأعود إلى السيارة.

- جاجا، تعالى إليّ بالمطبخ حتى يعود أبناء عمك

بدا صوت العمّة أفيوما عادياً وكأنّ زيارتنا لها أمر
تعودنا عليه كثيراً فى الماضى. سار جاجا فى اتجاه
المطبخ وجلس على كرسى خشبى منخفض بلا ظهر،
وفضّلتُ أنا الوقوف بجانب الباب حتى لا أعوق
حركتها فى المطبخ المعبأ برائحة الطعام وغاز
الكيروسين المحترق فى الموقد الذى يعلو طاولة خشبية
إلى جوار نافذة الحائط وستارتها البالية التى حال
لونها إلى الأزرق الرمادى بسبب دخان الموقد.

لم تتوقف العمّة أفيوما عن ثرثرتها وهى تضع
الأرز ثانية فوق الموقد وتضيف إليه بصلتين أرجوانيتين
مقطعتين، وكانت تطلق ضحكتها المجلجلة من وقت
لآخر فتقطع بها تدفق كلماتها، فى ذات الوقت الذى
تبدو فيه وكأنها تبكى مستخدمة ظاهر يدها لإزالة
دموع تستثيرها قطع البصل من عينيها.

بعد بضع دقائق حضر أطفالها الذين ظهرُوا فى
صورة مختلفة، ربما لأننى كنت أراهم للمرة الأولى فى
منزلهم بعد لقائى بهم فى أبا، عندما جاءوا إليها
لزيرة منزل الجد نوكوو. خلع أوبيورا نظارته القاتمة
ووضعها داخل بنطلونه القصير، وضحك عندما وقعت
عيناه على عيني، لكن تشيما هتف فى صوت رفيع
حاد:

- جاجا وكامبيلى، هنا!

عانقنا بعضنا البعض، وفور أن تلامس جسدانا
بخفة أعطتني أماكا ظهرها.. كانت تضع أحمر شفاه

وترتدى ثوباً يكشف خطوط جسدها النحيل.. التفتت
إلى جاجا وسألت:

- كيف كان الطريق بالسيارة إلى هنا؟

- كنت أعتقد أنه أطول كثيراً عما هو فى الحقيقة

- ليست انوجو بعيدة عن هنا.

قال أوبيورا:

- لم نشتر زجاجات المياه الغازية بعد، ماما

- ألم أخبرك بشرائها قبل أن تذهب؟

وضعت شرائح البصل داخل إناء به زيت ساخن
فوق المقعد، وخطت خطوة إلى الخلف.

- سأذهب الآن إلى الكشك فى المجمع السكنى
المجاور.

- لا تنس الزجاجات الفارغة معك

رأيت جاجا يغادر مع أوبيورا ولم أستطع رؤية
وجهه حتى يمكننى معرفة ما إذا كان يشعر بالارتباك
مثلى. قالت أماكا:

- سأذهب لأغير ملابسى أولاً قبل أن أساعدك
بالمطبخ، ماما.

نظرت إلى العمة أفيوما وقالت:

- اذهبي مع ابنة عمك.

تبعت أماكا إلى حجرتها وأنا أخطو خطوات ثقيلة
مرتبكة على الأرضية الأسمنتية التى تختلف عن

الرخام الناعم فى أرضية منزلنا. خلعتُ قرطبيها
ووضعتُهما أعلى التسيريحة، ونظرتُ إلى نفسها فى
المرأة. جلستُ على حافة السرير أراقبها وأنا أتساءل
ما إذا كانت تعلم أننى تبعثها إلى الحجرة.

- أنا متأكدة من أنه جال بفكرك أن نسوكا ليست
بقدر تحضر انوجو.

تابعتُ قولها وهى لاتزال تنظر فى المرأة.
- لقد أخبرتُ ماما بالأ تضاغط عليكما حتى
تحضرا إلى هنا.

- أنا.. كلانا.. أردنا أن نأتى.
ابتسمتُ أماكا فى المرأة ابتسامة خفيفة وكأنها
تريد القول بالأ أزعج نفسى بالكذب عليها.
- ليس فى نسوكا مثل تلك الأماكن الفخمة التى
فى انوجو إذا كنت لا تعلمين ذلك.. فليس فى نسوكا
مطعم جينييسيس أو فندق نايك ليك.
- ماذا؟

- جينييسيس ونايك ليك.. أنتم تذهبون إلى هناك
كثيراً، أليس كذلك؟
- لا

- نظرت أماكا نحوى نظرة غريبة وقالت:
- لكنكم ذهبتم إلى هناك منذ فترة.
- لم أذهب مطلقاً إلى مطعم جينييسيس، وذهبنا
مرة واحدة فقط إلى فندق نايك ليك لحضور حفل

زفاف شريك بابا فى العمل، ومكثنا هناك فترة تتيح
لبابا التقاط صور مع العروسين وتقديم هدية لهما .

التقطتُ أماكا مشطاً وأجرته فى نهايات شعرها
القصير، ثم استدارت نحوى وسألتُ:

- لماذا تخفضين صوتك؟

- ماذا؟

- أنت تخفضين صوتك عندما تتحدثين.. أنت
تتحدثين فى همس.

استقرتُ عيناى على درج المكتب الممتلئ بكتب ومرآة
محطمة وأقلام. وضعتُ أماكا المشط فوق التسريحة ثم
جذبت رداها إلى أعلى رأسها.. بدت وهى مرتدية غطاء
الثديين وثوبها الداخلى نحيلة وطويلة وبنية اللون..
بسرعة حدقتُ بعيداً، فلم أكن قد رأيت من قبل أى
شخص فى ملابسه الداخلية، فضلاً عن أنه من الإثم
النظر إلى شخص عار أو يكاد.

- أنا متأكدة من عدم وجود جهاز تسجيل كاسيت
فى حجرتك فى انوجو.

أشارت أماكا إلى جهاز تسجيل كاسيت صغير عند
أسفل التسريحة، فأردت أن أخبرها أننى لا أملك أى
نوع من أجهزة الصوت والموسيقى فى حجرتى بالمنزل،
ولكننى لم أكن على يقين إذا كانت ستُسمع ذلك
أو لا تبدى سروراً عند سماع أننى لا أملك جهاز
تسجيل كاسيت.

أدارت مفتاح تشغيل مسجل الكاسيت وهى تتمايل على الإيقاع المتعدد النغمات لدقات الطبول.

- أستمتع فى غالب الأحيان إلى الموسيقيين الفطريين المعبرين عن تراثهم الإفريقى، ولديهم شىء حقيقى يقولونه، والأقرب إلىّ منهم فيلا وأوسايب واونيكاً.. أنا متأكدة أنك ربما لا تعرفين عنهم شيئاً، وأنك تفضلين أغنيات البوب الأمريكية مثل بقية المراهقات.

قالت "المراهقات" وكأنها ليست واحدة منهن، وكأنهن فصيل من الناس أقل درجة منها لعدم سماعهن الموسيقى المعبرة عن الثقافة الإفريقية.. وكررت فى زهو "الثقافة الإفريقية".

ظلتُ جالسة على حافة السرير ويداى متشابكتان تحدونى الرغبة فى إخبار أماكا أننى لا أملك جهاز تسجيل، ولا أدرى شيئاً عن موسيقى البوب، وبدلاً من ذلك سألتُ:

- هل رسمت هذه؟

كانت لوحة تصوير بألوان الماء معلقة هناك فى حجرة نوم بابا، فيما عدا أن المرأة والطفل فى اللوحة المعلقة فى حجرة أماكا كانت بشرتيهما سوداء.

- نعم، أرسم فى بعض الأحيان.

- إنها جميلة.

وددتُ لو أننى كنتُ أعرف أن ابنة عمتى ترسم رسومات واقعية بألوان الماء، وودتُ لو أنها تكف عن إطالة النظر إلىّ وكأنتى حيوان تجارب وعلىّ أن أفسر وأشرح نفسى دائماً.

- أهناك شىء يعوق قدومكما من هناك؟

على أثر سماع صوت العمّة أفيوما الذى يختلط فيه الغضب بالمرح، تبعتُ أماكا إلى المطبخ، ووقفتُ أراقبهما.. وبعد عودة جاجا مع الصبيين ومعهم زجاجات المياه الغازية فى حقائب بلاستيك سوداء، طلبتُ العمّة أفيوما من أوبيورا إعداد مائدة الطعام.

- اليوم سنعامل كامبيلى وجاجا باعتبارهما ضيفين، لكن ابتداءً من غد سينضمامان إلى العمل بالمطبخ كباقي أفراد الأسرة.

مائدة الطعام مصنوعة من خشب تشقق سطحه الخارجى إلى شرائح بنية مقوسة بفعل الطقس الجاف، والمقاعد التى تفتقد إلى ما يجعلها ملائمة لطراز المائدة، أربعة منها تشبه مقاعد فصلى المدرسى المصنوعة من الخشب فقط، واثنان آخران لونهما أسود مثبت بهما حاشيتان من القطن. جلسنا - جاجا وأنا - متجاورين، وبعد أن أنهتُ العمّة أفيوما بعض الصلوات، كنتُ خلالها مغمضة العينين، ردد أبناء عمتى "أمين". وفى اللحظة التى فتحتُ فيها عيني، لمحتُ أماكا ترمقنى، وأوبيورا يضغط بأصبعه على قنطرة نظارته الطبية ويقول:

- أتمنى قدوم كامبيلي وجاجا كل يوم حتى يمكننا تناول طعام كهذا، دجاج مشوى ومياه غازية.

قال تشيما: "مامى، أريد فخذ الدجاجة"، وقالت أماكا وهي تنظر بإمعان إلى زجاجة الكوكاكولا: "أعتقد أن الشركة بدأت فى تعبئة كميات أقل فى الزجاجات".

بينما كنت أمضغ ما بضمى من طعام تمهيداً لابتلاعه، نظرتُ إلى الأرز والبطاطس المحمرة والجزء الواقع بين الفخذ والكاحل من ساق الدجاجة فى طبقى، وإلى بقية الأطباق المختلفة أنواعها ولا يجمعها طاقم واحد. أمام تشيما وأوبيورا طبقان من البلاستيك، بينما أطباق بقيتنا من الزجاج المسطح الخالى من النقوش الملونة والخطوط الفضية. جالت فى رأسى ضحكة سببها كلماتهم المتدفقة فى بساطة ويسر دون انتظار أو طلب رد عليها، مقارنة بما يحدث فى منزلنا خاصة على مائدة الطعام، حيث لكل كلمة سبب وهدف.

- أعطنى عنق الدجاجة.

التقطتُ العمة أفيوما عنق الدجاجة من طبقها ومدت ذراعها لتضعه فى طبق أماكا.

- متى تناولنا الدجاج آخر مرة؟

- توقفَ عن المضغ مثل الماعز، أوبيورا.

- يختلف مضغ الماعز عند اجترار الطعام عنه عند الأكل.. أى مضغ منهما تعنين؟

تطلعتُ ببصرى لكى أرقب مضغ أوبيورا، وعندئذ سألتنى العمّة أفيوما وهى ترمقنى بنظرة مروعة.

- كامبيلى، ألا يعجبك الطعام؟

خالجنى شعور بأننى لست معهم، فقد كنت أرقب مائدة طعام يمكن لأى شخص حولها أن يقول أى شىء فى أى وقت ولأى أحد، ويُسمح للجالس من حولها بأن يتنفس فى حرية وكما يشاء.

- أنا أحب الأرز يا عمتى، شكراً لك.

- أنت تحبين الأرز.. إذن تناولى المزيد من الأرز

سريعاً قالت أماكا:

- ربما الأرز ليس بنفس جودة الأرز الذى تتناوله فى منزلها.

- أماكا، اتركى ابنة عمك وشأنها.

لم أنطق بشىء حتى الانتهاء من الغداء، لكننى استمعت إلى كل كلمة قيلت، وتتبعْتُ كل ضحكة مجلجلة وكل مزحة ودعابة.. فى معظم الوقت كان أبناء عمتى يتحدثون، وكانت عمتى أفيوما تجلس مسندة ظهرها إلى ظهر المقعد وتتطلع إليهم وهم يتناولون طعامهم على مهل. كانت أشبه بمدرب فريق كرة قدم خارج الملعب يراقب أداءهم.

بعد الغداء، سألتُ أماكا عن دورة المياه برغم علمي أن بابها يواجه حجرة النوم.. أثار سؤالى سخطها فأشارت بيدها في اتجاه الردهة متسائلة باستهجان "أين يمكن أن تكون دورة المياه في اعتقادك؟".

دورة المياه ضيقة جداً حتى أكاد ألمس بيدي حائطها إذا مددت ذراعى إلى آخرهما، وخالية من غطاء للأرضية ومن الغطاء المصنوع من الفرو الذى يكسو المقعد كما فى دورة مياه منزلنا. أفرغت مئانتى وعند الضغط على يد خزانة الماء وجدتها فارغة. وقفتُ فى الحيز الضيق لبضع دقائق قبل المغادرة متوجهة نحو العمه أفيوما التى كانت تنظف موقد الكيروسين بقطعة اسفنج مبللة بماء الصابون، وعندما رأتنى قالت مبتسمة.

- سأستخدم اسطوانتى الغاز فى المناسبات الخاصة حتى يطول زمن استخدامى لهما، ولذلك لايمكننى الاستغناء عن موقد الكيروسين الآن

ما أردت التحدث بشأنه تراجع أمام حديثها عن اسطوانة الغاز وموقد الكيروسين، فانعقد لسانى للحظات، وبينما أنا كذلك نمتُ إلى سمعى ضحكة أوبيورا قادمة من الشرفة.

- عمتى، ليس هناك ماء فى دورة المياه.

- هل تبولت؟

- نعم.

فى الصبأف فقط ٱأى الماء إلى منزلنا، ولذلك لانستخدم الماء عند التبول، ونستخدمه فقط عند الحاجة إلى إحداء تدفق للمياه، وفى بعض الأحيان عندما تنقطع المياه لبضعة أيام نقوم بصب دلو ماء واحد بعد استعمالنا جميعاً لدورة المياه حتى يكفينا ما قمنا بتخزينه من المياه.

أثناء حديث العمه أفيوما الذى رسم علامات حزن واستياء على وجهها، أتت أماكا وتوجهت إلى التلاجة. وقالت:

- أنا متأكدة أنك فى منزلك تقومين بالضغط على يد خزان ماء دورة المياه فى كل وقت كما تشائين فيتدفق الكثير من الماء، ولكن هنا لا يمكننا أن نفعل ذلك.

- أماكا، أنا لا أحب مثل هذا الكلام، وبهذه الطريقة.

غمغمتُ أماكا بكلمات غير مفهومة أثناء قيامها بصب ماء بارد من زجاجة بلاستيك فى كأس.

- آسفة

اقتربتُ أكثر من الحائط الذى حال لونه إلى الأسود بسبب دخان الكيروسين وأنا أود لو أمكننى الذوبان والاختفاء فيه.. أردت أن أعتذر لأماكا، لكننى لم أكن أعلم جيداً ما حقيقة الشئ الذى على أن أعتذر عنه.

- غداً سنصحب كامبيلي وجاجا فى جولة لنريهم
حرم الجامعة.

- لا شىء هناك يشاهدانه، وسيشعران بالملل

دق جرس الهاتف فى صوت صرير مرتفع لا يماثل
الصوت الخافت المكتوم لهاتف منزلنا، فأسرعت العمه
أفيوما إلى حجرة نومها لتلتقط السماعة، وبعد
لحظات، علا صوتها منادياً.

- كامبيلي!.. جاجا!

كنت أعلم أنه بابا، لذلك انتظرتُ قدوم جاجا من
الشرفة حتى يمكننا الذهاب معاً. عند اقترابنا من
الهاتف، تراجع جاجا وأوما لى بأن أتحدث أولاً.

- هالو، بابا، مساء الخير.

- كيف حالك.

- على مايرام، بابا.

- المنزل خاو بدونكما.

-

- أحتاجين شيئاً؟

- لا.. بابا.

- إذا احتجت أى شىء تحدثى إلى فوراً وأرسل لك
كيفن.. سأتصل كل يوم.. لا تنسى المذاكرة والصلاة.

- نعم، بابا.

جال بخاطري أنه لا يعلم أنني تناولت الطعام بعد صلاة قصيرة جداً. بدا صوت ماما عند حديثها إلى أعلى من صوتها الهامس المعتاد، وأرجعت ذلك إلى التحدث في الهاتف. أخبرتني أن سيسى قد نسيت تماماً أننا بعيدون وأعدت طعاماً لأربعة أفراد.

عند جلوسنا جاجا وأنا لتناول العشاء، سرحت بخاطري في بابا وماما جالسين وحدهما إلى مائدة العشاء الكبيرة. تناولنا بقايا الأرز والدجاج وأتينا على آخر زجاجة من زجاجات المياه الغازية التي قام أوبيورا بشرائها عند الظهر. فكرتُ في صناديق الكوكاكولا والفانتا والاسبرايت الممتلئة في خزانة المطبخ بمنزلنا. حدثتُ نفسي أنه إذا كان في استطاعة أماكا قراءة أفكارى فإن ذلك لن يسرها بالطبع. قلَّ الحديث والضحك أثناء تناول العشاء لأن أبناء العمّة أخذوا أطباقهم إلى حجرة المعيشة لمشاهدة التلفزيون. جلس أوبيورا وأماكا على أرضية الحجرة، بينما استلقى تشيما بجسده على الأريكة مسنداً طبق البلاستيك على ركبتيه. وجلسنا جاجا وأنا إلى جانب العمّة أفيوما التي كانت تلقى نظرة على شاشة التلفزيون من وقت لآخر.

- لا أفهم لماذا يملأون تلفزيوننا بمسلسلات درامية مكسيكية من الدرجة الثانية ويتجاهلون ما ينتجه فنانونا

قاطعتها أماكا:

- ماما، من فضلك، لا تلقى علينا محاضرتك الآن

قال أوبيورا وعيناه لا تفارقان شاشة التلفزيون:

- الأرخص لهم استيراد المسلسلات الميلودرامية من المكسيك.

- جاجا، كامبيلي.. نحن دائماً نتلو الصلوات قبل النوم.. بالطبع يمكنكما أن تظلا مستيقظين بعد ذلك لمشاهدة التلفزيون أو لعمل أى شىء آخر.

تحرك جاجا من مقعده قبل أن يجذب جدولته من جيبه.

- عمتى، ينص جدول بابا على ضرورة أن نستذكر دروسنا كل مساء، وقد أحضرنا كتبنا معنا.

حدقتُ العمة أفيوما فى الورقة التى بيد جاجا، ثم بدأت تضحك وهى تتمايل بشدة وينحنى جسدها الطويل مثل شجرة صنوبر ترسل صغيراً فى يوم عاصف.

- ايوجين أعطاكما جدولاً تتبعونه وأنتما هنا؟
ماذا يعنى هذا؟

واصلتُ العمة أفيوما ضحكها للحظات، ثم مدت يدها نحوى طالبة جدولتى الذى أخرجته من جيب تنورتى وتناولته منى مطوياً إلى أربعة أجزاء.

- سأحتفظ بجدوليكما معى حتى وقت مغادرتكما

تمتم جاجا:

- عمتى.

- إذا أنتما لم تخبرا ايوجين فكيف يتسنى له أن يعلم أنكما لم تلتزما بجدوليكما؟.. أنتما فى أجازة هنا، وهذا منزلى، لذلك ستتبعان قواعدى.

راقبتُ العمة أفيوما أثناء توجيهها إلى حجرتها ممسكة بالجدولين، وشعرت بجفاف فى فمى ولسانى. سألتُ أماكا وهى مستلقية على الأرض ومسندة رأسها على وسادة ووجهها إلى أعلى:

- لديكما جدول فى المنزل تتبعانه كل يوم؟

أجاب جاجا:

- نعم

- أمر مثير.. الأثرياء لا يمكنهم أن يقرروا ماذا يفعلون يوماً بعد يوم ويحتاجون إلى جدول ليخبرهم بذلك!

- أماكا!

عندما كان أوبيورا يوجّه نظرة قاسية إلى أماكا، عادت العمة أفيوما ممسكة بكتاب صلوات كبير مزين ببعض الخرز وصليب معدنى، وسرعان ما أغلق أوبيورا مفتاح تشغيل التلفزيون وغادر بصحبة أماكا لكى يحضر كلاهما كتابه من حجرة النوم. أخرجنا - جاجا وأنا - كتابينا من جيبينا، وجثونا جميعنا على أقدامنا، وبدأت العمة أفيوما فى تلاوة الصلوات، وبعد أن قلنا جميعاً "ليكن سلام لك يا مريم" أدتُ رأسى بحركة مفاجئة على أثر سماعى أماكا. تغنى فى صوت عال ورخيم وشجى..

انضمت العمة أفيوما ثم أوبيورا إليها، وشكلت أصواتهم نسيجاً متجانساً، وعندئذ التقت عيناى بعيني جاجا الدامعتين. لا. أخبرته بطرف عيني على نحو متكرر أنه ليس من الصواب أن نغنى وسط الصلاة. وبينما لم نشاركهم جاجا وأنا الغناء، تابعت أماكاً بين كل صلاة وأخرى الغناء بالاجبو وشاركتها العمة أفيوما مرددة من أعماقها، كمغنية أوبرا، رجع صدى الصوت الجهير.

بعد انتهاء الصلوات، سألت العمة أفيوما ما إذا كنا نعرف أياً من الأغنيات التى استمعنا إليها، وأجاب جاجا:

- نحن لا نغنى فى المنزل.

- نحن نغنى هنا.

حدثتُ نفسى متسائلة عما إذا كان شئ من الضيق قد انتابها جعل حاجبها يهبطان ويقتربان من عينيها. ذهبتُ إلى حجرة نومها بعد أن تمنيت لنا مساءً طيباً، وضغطت أوبيورا مفتاح تشغيل التلفزيون، وجلستُ أنا على الأريكة بجانب جاجا أشاهد التلفزيون وقد خالجنى شعور بأن الذى يزور العمة أفيوما ليس سوى شبحى بينما أنا الحقيقية تذاكر دروسها هناك فى حجرة المنزل فى انوجا حيث الجدول المعلق أعلى طاولة المذاكرة.

نهضتُ وذهبتُ إلى حجرة النوم استعداداً لدخول الفراش. وبرغم أن الجدول ليس بحوزتى إلا أننى كنت

أعرف الوقت المحدد لى للنوم. غلبنى النعاس وأنا أفكر فى لحظة قدوم أماكا، وفيما إذا كانت ستقلب شفيتها فى سخرية وهى تنظر إلى أثناء نومي.

* * *

حلمتُ بأماكا تفرقنى فى تجويف مرحاض ممتلئ بخليط متراكم من البنى والأخضر.. غمرتُ رأسى أولاً داخل التجويف الذى اتسع ليغمر بعد ذلك كل جسدى. كانت أماكا تضغط يد خزانة ماء المرحاض وهى تغنى "تدفق، تدفق، تدفق" بينما كنت أقاوم لكى أحرر نفسى. كنت لأزال أقاوم عندما استيقظتُ من نومي لأجد أماكا نهضتُ من فراشها لتحكم وثاق ثوب نومها.

- سندهب لنجلب ماءً من الصهرج

قالت دون أن تسألنى مرافقتها، لكننى نهضت وأحكمت وثاق ثوبى وتبعتها. فى تلك الأثناء كان جاجا وأوبيورا عند الصهرج فى الفناء الخلفى الصغير الذى كوم فى أحد أركانه إطارات سيارة قديمة وأجزاء دراجة وصندوق ثياب محطم. صف أوبيورا فتحات أفواه أوان إلى جوار بعضها البعض أسفل فتحة صنبور مياه الصهرج. عرض جاجا رغبته فى حمل أول إناء مملوء بالماء إلى المطبخ، لكن أوبيورا أخبره ألا يزعج نفسه وحمله بدلاً منه إلى الداخل، وبينما كانت أماكا تحمل إناءً ثانياً وضع جاجا إناءً

آخر أسفل الصنبور. وعندما عرضتُ رغبتى فى حمل
إناء مملوء بالماء، ضحكتُ أماكاً وقالت إن عظامى
رقيقة ولا يمكننى حمله.

قرأنا فى غرفة المعيشة عدداً من الصلوات
القصيرة للصباح تخللتها أغنيات. صلت العمه أفيوما
من أجل الجامعة والمحاضرات والإدارة ومن أجل
نيجيريا، ثم من أجل أن يمر اليوم فى سلام. وفى
ضحك رسمنا جميعاً علامة الصليب. تطلعتُ بعينى
لأبحث عن وجه جاجا لأعرف ما إذا كان قد استشعر
غرابة فى الأشياء التى صلت العمه أفيوما وأسرتها
من أجلها وفى ضحكاتهم.

الواحد بعد الآخر أخذ حماماً بنصف دلو ماء دافئ
بعد غمر الجزء النحاسى من سخان كهربائى بداخله
لبعض الوقت. كان الماء فى حوض الاستحمام يسلك
طريقه إلى ماسورة الصرف عن طريق فتحة مستطيلة
الشكل فى أحد أركانه محدثاً صوتاً أشبه بحشرجة
رجل يعانى من ألم، وذلك أثناء قيامى بصب الماء على
جسدى ببطء بكوب صغير وتنظيفه باستعمال قطعى
اسفنج وصابون كانت ماما قد وضعتهما بعناية فى
حقيبة ملابسى.

رأيت العمه أفيوما فى حجرة المعيشة - أثناء
خروجى من الحمام تقوم بإذابة بضع ملاعق من اللبن
الجاف فى كأس من الفخار به ماء بارد، وقبل أن
تفادر لتعيد زجاجة اللبن الجاف إلى مكان آمن

بحجرتها، قالت:

- إذا تركت هؤلاء الأطفال يتناولون اللبن بأنفسهم فسوف تفرغ الزجاجاة قبل أسبوع.

تمنيتُ ألا تسألني أماكا إذا كانت ماما تفعل ذلك لأننى سوف أتعثر فى كلماتى لأخبرها أننا نتناول اللبن فى منزلنا بحرية وبالقدر الذى نحبه ونشتهيه دون أن يمنعنا أحد.

طالبتُ العمّة أفيوما أطفالها أثناء تناولنا شرائح البطاطا المقلية والكعك على الإفطار، بالإسراع لكى ترينا، جاجا وأنا، حرم الجامعة ثم العودة مبكراً حتى يمكنها إعداد طعام الغداء الذى دعت إليه الأب أمادى.. سأل أوبيورا

- متأكدة من أن السيارة بها وقود كاف، ماما؟

- بها ما يكفى لنقوم بجولة فى حرم الجامعة على الأقل.. أتمنى - حقيقة - أن يأتى الوقود الأسبوع المقبل وإلا عند استئناف الدراسة سأضطر إلى الذهاب إلى محاضراتى سيراً على قدمى.

قالت أماكا ضاحكة:

- أو تأخذين "أوكادا".

- سأستعملها سريعاً إذا تأخر وصول الوقود

- ماذا تعنين بكلمة "أوكادا"؟

حدّقتُ فى وجه جاجا فى دهشة من سؤاله قبل أن

يجيبه أوبيورا .

- دراجات بخارية.. لقد أصبحت أكثر شهرة من التاكسى.

ونحن فى طريقنا إلى السيارة، توقفت العمه أفيوما لتقتلع بعض أوراق نبات بنية بالحديقة، وتمتمت بأن الريح الترايبية تقتل نباتاتها، عندئذ أطلق أوبيورا ومعه أماكا صيحة استنكار وسخرية.

- إنسى الحديقة الآن، ماما.

- هذا نبات الكركديه، أليس كذلك يا عمتى؟

سأل جاجا محققاً فى نبات قريب من حاجز أسلاك شائكة.

- لم أكن أعلم بوجود زهور الكركديه الأرجوانية هنا

ضحكت العمه أفيوما ولمست زهرة بلون الأرجوان الداكن الذى يقارب اللون الأزرق.

- قامت صديقتى الطيبة فيليبيا مدرسة النبات - بإجراء العديد من التجارب فى حديقتى هذه. انظر، هذه زهرة اكسورا البيضاء، لكنها لا تزهر بالكامل مثل قرينتها.

- إنها زهرة جميلة جداً

- نعم، إنها كذلك.. كان لابد من أن أحيط حديقتى بحاجز من الأسلاك الشائكة لأحميها من أطفال الجيران الذين يأتون ويقطفون الكثير من الزهور

النادرة فيها.. الآن لا أسمح بدخول حديقتى إلا
للفتيات من كنيستنا أو كنيسة البروتستنت.

- ماما.. هيا نذهب

قالت أماكا - فى استياء: لكن العمه أفيوما أمضت
قليلاً من الوقت فى الحديث إلى جاجا عن زهورها
قبل أن تدير محرك السيارة وتقلنا جميعاً إلى شارع
شديد الانحدار، مارين بمنازل ذات سياج من نباتات
وزهور عباد الشمس من الأمام، وتبدو فى الأفنية
الخلفية لها صهاريج مياه معدنية فوق قواعد من
الإسمنت تركت بغير دهان، ويتأرجح يمنة ويسرة إطار
سيارة قديم معلق فى أغصان شجرة جوافة، وملابس
مثبتة فى حبال تمتد من شجرة إلى أخرى تنتظر
الجفاف.

- هذه المدرسة الابتدائية المحاطة بسياج من
أشجار الصنوبر، التى يدرس فيها تشيما كانت فى
السابق أفضل حالاً، لكن انظروا الآن إلى العوارض
الخشبية المنزوعة من نوافذها وإلى قذارة المباني.

أشارت العمه أفيوما إلى مبنى معهد الدراسات
الإفريقية الذى تقوم بالتدريس فى فصوله. المبنى
قديم حال لونه، نوافذه مغطاة بغبار كثيف، ويبدو من
حالته الرثة أنه يصعب أن يستعيد بريقه الذى كان
عليه. تابعت السيارة سيرها فى طريق على أحد
جانبيه حقل أخضر، تتوزع على رقعته المتسعة أشجار

مانجو بأوراقها المائلة للصفرة التى تقاوم ضربات
الريح الجافة.

- خلف هذا الحقل يوجد السوق، وبيت للفتيات،
وقاعتا مارى سلسيور وأوكبارا، وأيضاً قاعة بيئلو
الشهيرة التى تريد أماكا أن تشارك فى أنشطتها أثناء
دراستها بالجامعة.

ضحكت أماكا، لكنها لم تبد معارضة لما قالته
والدتها.

ربما أنتما الاثنتان ستكونان معاً، كامبيلى.

هزرتُ رأسى بالرغم من أن العمة أفيوما لا يمكنها
رؤيتى.. لم أفكر أبداً فى الجامعة التى سألتحق بها أو
نوع الدراسة التى سأدرسها، لأنه عندما يحين ذلك
الوقت سيكون القرار لبابا. أطلقت صوت نفير
السيارة، ولوحتُ لرجلين أصلعين يقفان على ناصية
استدارت إليها، ثم واصلت سيرها فى الطريق الذى
تصطف على جانبيه أشجار جميلينا وأشجار دوجو
نيارو التى امتلأت السيارة بعطر أوراقها النافذ.
أخذتُ أماكا نفساً عميقاً وقالت إن أوراقها تعالج
مرض الملاريا.

عند دخولنا المنطقة السكنية، مرت السيارة
بمجمعات تحتوى على أعداد كبيرة من البيوت ذات
الطابق الواحد وإلى جوارها مساحة مزروعة بالزهور
وأخرى بأشجار الفاكهة. بالتدرج افتقد الطريق
نعومة الإسفلت، واختفى المرج الأخضر، وظهرت بيوت

صغيرة ضيقة متلاصقة تفتقد للخصوصية، قالت عنها العمدة أفيوما إنها مساكن أفراد السكرتارية والسائقين، وقاطعتها أماكا.

- ربما لا يحصل على مسكن منها إلا صاحب الحظ الأوفر.

- هذا تل أودم.. المنظر من أعلى يسحر الألباب، حيث تتراءى للواقف هناك جمال الطبيعة الساحرة التي من صنع الله.

عندما استدارت السيارة للخلف متجهة إلى الطريق الذي جئنا منه، أطلقتُ لعقلي العنان لأفكر في يد الله البيضاء التي شكلت تلال نسوكا ووديانها وهلال القمر في سمائها. قادت العمدة أفيوما السيارة في منطقة أشجار تحيط بكلية الهندسة وبأكثر من دار للفتيات، وعند اقترابها من الشارع الذي تقطن فيه، سارت في الطريق العكسي لرغبتها في أن ترينا الجانب الآخر من مارجريت كارترايت أفنيو حيث فيلات من طابقين يسكنها الأساتذة الجامعيون أثناء الفترة الدراسية.

- بلغنى أنه عندما أنشئت هذه الفيلات لأول مرة، طالب الأساتذة البيض - كان كل الأساتذة من البيض في تلك الفترة - بمدفئة ومدخنة لصرف الدخان.

أطلقت العمدة أفيوما ضحكة متسامحة شبيهة بالضحكة التي أطلقتها ماما عندما كانت تتحدث عن أناس يترددون على العرافين، ثم أشارت إلى منزل

يسكنه نائب رئيس الجامعة وتحوطه أسوار عالية وسياج من شجيرات الكرز والاكسورا التي كانت تلقى عناية فائقة إلى أن بدأت أحداث شغب الطلبة وتكرار محاولة القفز على الأسوار التي انتهت بإضرار النار فى سيارة داخل المجمع السكنى. سأل جاجا.

- ما سبب أحداث الشغب تلك؟

- الكهرباء والماء.

أجاب أوبيورا، وأضافت العمه أفيوما:

- قال الطلبة إنه من الصعب استذكار دروسهم فى ظل انقطاع الكهرباء والماء، وطالبوا بتأجيل الامتحانات، لكن إدارة الجامعة رفضت طلبهم.

- الأسوار فى غاية السوء.

قالت أماكا بالإنجليزية. فكرتُ فيما سيجول بذهنها عن أسوار مجمعنا السكنى هناك، إذا ما زارت يوماً ما منزلنا. لم تكن أسوار منزل نائب رئيس الجامعة عالية جداً فقد أمكننى رؤية الفيلا الكبيرة من طابقين التى ظهرت من بين ثنايا أغصان الأشجار التى حال لون أوراقها إلى شىء من الصفرة. تابعت أماكا قولها:

- إقامة الأسوار ليس حلاً ناجعاً فى رأى.. لو أننى فى مكان نائب رئيس الجامعة لما قام الطلبة بأحداث الشغب، لأننى كنت سأوفر لهم الكهرباء والماء

- إذا كان بعض المتنفذين الكبار فى أبوجا قد قاموا بسرقة الأموال الطائلة، فمن أين تأتى الأموال إلى نسوكا؟

نظرتُ إلى وجه أوبيورا الغاضب. وضحكتُ العمة أفيوما ضحكة مدرب مزهو بأداء فريقه وقالت:

- سنذهب إلى المدينة لنرى إذا كان فى السوق بطاطا سعرها جيد.. لدينا بعض الذرة فيمكننا إذن تقديم وجبة يحبها الأب أمادى.

سأل أوبيورا:

- سيكفى وقود السيارة لذلك، ماما؟

- سنجرب.

قادت العمة أفيوما السيارة فى اتجاه الطريق المؤدى إلى بوابات دخول الجامعة. التفت جاجا إلى تمثال الأسد الناهض فى زهو إلى جهة اليمين، وقرأ العبارة المنقوشة أسفله "لنحافظ على شرف الإنسان". كرر أوبيورا قراءة العبارة نفسها وأطلق ضحكة قصيرة، وسأل:

- لكن متى فقد الإنسان شرفه؟

خارج البوابة، ارتجفت السيارة وتوقفت. تمتمتُ العمة أفيوما "يا أمنا المباركة، من فضلك ليس الآن". أدارت مفتاح تشغيل المحرك بدون جدوى. أطلق شخص خلفنا نفير سيارته. استدرتُ لأنظر إلى المرأة التى نزلت من السيارة البيجو ٥٠٤ الصفراء وسارت

فى اتجاهنا . كانت ترتدى تنورة فضفاضة حيكث على شكل بنطلون يظهر باطن ساقىها الممتلئتين كثمرتى بطاطا مستطيلتين كبيرتين .

- توقفت سيارتى أنا أيضاً بالقرب من المتجر الشرقى أمس .

وقفتُ العمة أفيوما بجانب نافذة السيارة وتموجات شعرها تتطاير بفعل الريح .

- استعنت بابنى هذا الصباح لكى يزود خزان وقود سيارتى بلتر من وقود سيارة زوجى حتى يمكننى الذهاب إلى السوق .. أتمنى أن يأتى الوقود سريعاً .

- سننتظر ونرى يا أختى .. كيف حال سيارتك؟

- بخير .. الحياة تسير .

- هيا ندفعها إلى الأمام .

اقترح أوبيورا ، وفتح باب السيارة .

- انتظر .

أدارت العمة أفيوما مفتاح تشغيل المحرك مرة ثانية فارتجفت السيارة ثم علا صوت المحرك .. أطلقت صوتاً يتسم بالألم والذعر وهى تحاذر ألا تبطن فى سرعة قيادتها للسيارة حتى لا تعطىها فرصة أخرى للتوقف . بجوار بائع بطاطا على جانب الطريق توقفنا . كانت ثمار البطاطا مكومة فى أشكال هرمية على طاولة ملونة مزخرفة . أخرجت العمة أفيوما بعض الأوراق المالية المطوية داخل محفظتها وأعطتها لأماكا

التي أنفقت بعض الوقت فى مساومة البائعة التي هزت رأسها أخيراً بالموافقة، وعندئذ ابتسمت أماكا. سألتُ نفسى إذا كان ما قامت به أماكا قد جلب لها مسرة ما.

* * *

بعد عودتنا إلى الشقة، انضممت إلى العمه أفيوما وأماكا فى المطبخ، بينما خرج جاجا بصحبة أوبيورا للعب كرة القدم مع أطفال شقق الطوابق العلوية. أتت العمه أفيوما ببعض ثمار البطاطا الكبيرة، وقامت أماكا بنشر صفحات جريدة على الأرض، وبدأت فى تقشير الثمار قبل تقطيعها إلى شرائح، وعندئذ عرضتُ عليها مساعدتها فى التقشير. فى صمت أعطتني سكيناً. قالت العمه أفيوما:

- ستحبين الأب أمادى، كامبيلى.. جاء مؤخراً إلى كنيستنا، لكنه معروف جداً لكل شخص فى الجامعة ومبانيها السكنية، ويتلقى دعوات كثيرة من معظمهم لتناول الطعام فى منازلهم.

- يبدو أنه يرتبط بأسرتنا أكثر فأكثر.

قالت أماكا، وضحكت العمه أفيوما:

- أماكا متحفظة جداً تجاهه.

- أنت تبديدين أجزاء كبيرة من الثمرة أثناء

تقشيرك لها.

-

- أهكذا تقشرين ثمار البطاطا فى منزلکم؟

بحركة مفاجئة وصوت حاد، قالت أماکا. نهضتُ
بقفزة واحدة وأسقطتُ السكين من يدي فسقطت على
بعد بوصة من قدمي. قلتُ "آسفة". لم أكن متأكدة إذا
كان أسفى على إسقاط السكين أو لتبيدي أجزاء من
جسم الثمرة أثناء تقشيرها. كانت العمة أفيوما
تراقبنا.

- أماکا، بينى لكامبيلى كيف تقشرين البطاطا؟

نظرت أماکا إلى أمها وشفثاها مقلوبتان إلى أسفل
وحاجباها مرتفعان إلى أعلى، وكأنها لا تصدق أن
هناك شخصاً يتعين عليه أن يعرف من شخص آخر
كيف يقشر ثمرة بطاطا بطريقة صحيحة. راقبتُ
الحركة الدقيقة المنتظمة ليدها مع تزايد طول
القشرة، واعترتنى رغبة فى أن أعتذر لها عن عدم
تمكنى من التقشير السليم. أتمتُ أماکا التقشير بشكل
جيد حتى أن القشرة استمر طولها يتزايد دون انقطاع
على شكل شريط ممتد يتلوى فى دوائر طويلة. تمت
أماکا:

- ربما يتعين عليك إدخال هذا فى جدولك.. كيف
تقشرين ثمرة البطاطا.

صاحت العمة أفيوما:

- أماکا!.. كامبيلى، أحضرى لى بعض الماء من
الصهريج فى الخارج

أمسكتُ بالدلو وأنا شاكرة للعمة أفيوما لأنها
أعطتني فرصة مغادرة المطبخ حيث وجه أماكا
العابس. لم تتحدث أماكا كثيراً بقية فترة بعد الظهر
حتى وصول الأب أمادي الذي تتقدمه رائحة كولونيا
نفاذة. عانق تشيما الذي قفز نحوه، وصافح أوبيورا،
وعانقته العمة أفيوما وأماكا عناقاً سريعاً. قدمتي
العمة أفيوما له ثم جاجا. قلت:

- صباح الخير.. يا أبي

شعرتُ أن خطابي له لم يحمل توقيراً مناسباً لهذا
الرجل الذي يحمل وجهاً صبيانياً ويرتدي قميص
تشييرت مفتوحاً عند العنق وبنطلون جينز فاتحاً
جداً. قال وكأنه التقانا من قبل:

- كامبيلي وجاجا.. أنتما مستمتعان بزيارتكما
الأولى إلى نسوكا؟

- إنهما لا يجبانها.

تمنيتُ لو لم تقل أماكا ذلك. أضاف الأب أمادي
مبتسماً:

- نسوكا لها مفاتها.

وقعَ صوته، الذي يشبه صوت مغن، على أذني
يشبه وقعَ صوت أمي وهي تمشط بأصابعها شعري.
أثناء العشاء، لم أدرك تماماً عباراته بالاجبو الممتزجة
بألفاظ بالإنجليزية، لأن أذني كانتا تلتقطان صوت
حديثه وجرسه وليس معناه. كان يومئ برأسه وهو

يمضغ الطعام ولا يتكلم حتى يبتلع ما بضمه ويحتسى جرعة ماء. بدا وجوده فى منزل العمه أفيوما وكأنه فى بيته، فهو يعرف أى مقعد به المسمار الناتئ. تحدث مع أوبيورا حول كرة القدم، ومع أماكا تحدث عن الصحفى الذى ألقى الحكومة القبض عليه، واستفاض فى الحديث مع العمه أفيوما حول منظمة النساء الكاثوليكيات، وتبادل مع تشيما الحديث حول ألعاب الفيديو.

لم يتوقف أبناء عمى عن الثرثرة، لكنهم كانوا يصمتون حتى يفرغ الأب أمادى من كلامه ثم يهب كل منهم متحفزاً للإفصاح عن رأيه. خطر على ذهنى الدجاجات السمينه التى يشتريها بابا ونأخذها إلى المذبح لنقدمها كقربان فى القديس، بالإضافة إلى النيذ والبطاطا، وفى بعض الأحيان لحم الماعز. كانت الدجاجات تندفع نحو قطع الخبز التى تلقيها سيسى إليها بحماس وفوضى تماماً مثل اندفاع أبناء عمى الحماسى نحو كلمات الأب أمادى.

كنا جاجا وأنا المعنيين بأسئلة الأب أمادى لأنه استعمل صيغة المثنى فى خطابه لنا وليس صيغة المفرد. ظللت صامته وشاكرة لإجابات جاجا. سألنا عن مدرستينا وعن الرياضات التى نحبها، وعندما أخبره جاجا أن كنيسة سان أجنيز هى التى نذهب إليها فى انوجو، قال:

- سان أجنيز؟.. زرتها لإقامة قداس

تذكرتُ عندئذُ القس الشاب الذى قطع موعظته فى منتصفها لنغنى، وقال بابا عنه إنه يتعين علينا أن نصلى من أجل أولئك الناس الذين يسيئون إلى الكنيسة. عرفتُ أنه هو وتذكرتُ الأغنية التى غناها بالرغم من أن عديداً من القساوسة زاروا كنيستنا فى انوجو خلال الأشهر الماضية.

- زرتها حقاً؟.. شقيقى ايوجين يحمل على عاتقه منفرداً تمويل تلك الكنيسة الجميلة.

- مهلاً.. "ايوجين اتشايك" شقيقك؟.. ناشر صحيفة ذى استاندرد؟.

- نعم، ايوجين شقيقى الأكبر.. أعتقد أننى ذكرت ذلك لك من قبل

لم تفلح ابتسامه العمه أفيوما فى إضاءة وجهها. هز الأب امادى رأسه:

- لم أكن أعلم.. سمعت أنه شريك فاعل فيما يخص السياسة التحريرية.. ذى استاندرد هى الصحيفة الوحيدة التى تجرؤ على ذكر الحقيقة هذه الأيام.

- نعم.. ولديه رئيس تحرير رائع إد كوكر الذى أخشى عليه ألا يمضى وقتاً طويلاً قبل أن يضعوه فى السجن إلى الأبد، وعندئذ لن تنفعه أموال ايوجين التى لا يمكنها أن تشتري كل شىء.

- قرأتُ في مكان ما أن منظمة العفو الدولية
بصدد منح شقيقك جائزة.

كان الأب أمادى يومئ برأسه ببطء وبإعجاب،
فغمرنى شعور بالنشوة والزهو، وبالرغبة فى رؤية أبى،
وفى أن أقول شيئاً لأذكر هذا القس الوسيم أن بابا
ليس فقط شقيق العمّة أفيوما ولا ناشر صحيفة ذى
استاندرد، وإنما هو أبى.

- جائزة؟.. ماما، يتعين علينا أن نشتري ذى
استاندرد.. مرة على الأقل بين حين وآخر حتى نعلم
ماذا يجرى حولنا.

قالت أماكا وبريق فى عينيها، وقال أوبيورا:

- أو ربما نطلب نسخاً مجانية إذا تخلينا بعض
الشيء عن كبرياتنا.

- حتى أنا، لم أعلم شيئاً عن الجائزة.. على أية
حال، ما كان ايوجين هذا سيخبرنى بذلك.. نحن حتى
لا يمكننا تبادل الحديث.. وبعد كل هذا يتوجب علىّ
أن أتذرع بزيارة أوكبى لكى يقبل بزيارة الأطفال لنا.

- إذن أنتم ذاهبون إلى أوكبى؟

- لم أكن أعتزم ذلك فى الحقيقة.. لكن من
المفترض أن نذهب الآن وأن نعرف موعد الظهور
المقبل للسيدة العذراء.

- كل ما يقال عن ظهور السيدة العذراء من صنع
البعض.. ألم يقولوا من قبل أن سيدتنا ستظهر عند
مستشفى القس شانهان؟

سأل أوبيورا.. وأجابت أماكا:

- الأمر مختلف فى أوكبى.. بالإضافة إلى أنه قد حان الوقت لكى تأتى سيدتنا إلى إفريقيا.. أليس عجيباً أنها تظهر دائماً فى أوروبا؟.. إنها من الشرق الأوسط على كل حال.

- ماذا عنها الآن؟.. السيدة العذراء السياسية؟

سأل أوبيورا. نظرتُ إليه مدققة لأجده يمتلك جرأة لم أمتلكها عندما كنت فى مثل عمره، الرابعة عشرة، ومازلت لا أمتلكها حتى الآن. ضحك الأب أمادى.

- لكنها ظهرت فى مصر، أماكا.. على الأقل اندفعت الحشود لمشاهدتها هناك، مثل الحشود التى تندفع الآن إلى أوكبى على نحو أشبه بأسراب الجراد المهاجرة.

- يبدو أنك غير مقتنع بهذا يا أبى

كانت أماكا تدقق فى وجهه..

- أنا لا أعتقد أنه يتعين علينا أن نذهب إلى أوكبى أو أى مكان آخر لكى نجدها.. إنها بيننا.. تقودنا إلى ابنها.

تحدث بعفوية وكأن فمه آلة موسيقية تصدر أصواتاً بمجرد لمسها أو فتحها.

- لكن يا أبى، ماذا عن ذلك الجزء بداخلنا الذى يحتاج إلى أن يرى حتى يكون على يقين.

كان على وجه أماكا ذلك التعبير الذى جعلنى أتساءل عما إذا كانت جادة فى قولها أم لا. قطَّب الأب أمادى وجهه ولم يقل شيئاً. ضحكتُ أماكا وكشفتُ عن فراغ بين سنتيها الأماميتين أكثر اتساعاً مما لدى العمة أفيوما، وكأن شخصاً أحدث ذلك الفراغ عنوة باستعمال آلة معدنية.

عدنا جميعاً بعد العشاء إلى حجرة المعيشة،. طلبتُ العمة أفيوما من أوبيورا إغلاق التليفزيون حتى يمكننا الصلاة بصحبة الأب أمادى. كان تشيما غارقاً فى نومه فوق الأريكة، وإلى جانبه استلقى أوبيورا طوال الصلاة، التى قطعها الأب أمادى فى منتصفها بأغنية بالاجبو. بينما كانوا يغنون فتحتُ عيني وحدقتُ فى الحائط فى اتجاه صورة التقطت للعائلة أثناء تعميد تشيما. هناك لوحة إلى جوار الصورة تمثل العذراء تنتحب فوق جثمان المسيح يحيطها إطار خشبى متشقق عند الأركان. زممتُ شفتى حتى لا يشارك فى الغناء من تلقاء نفسه ويخوننى.

وضعنا كتب الصلوات بعيداً وظللنا جالسين فى حجرة المعيشة نأكل شرائح البطاطا ونشاهد الأخبار بالتليفزيون. رفعتُ بصرى فوجدتُ عيني الأب أمادى تنظران إلىّ، عندئذ لم أستطع تحريك لسانى وابتلاع ما بفىمى. كنتُ أستشعر وقع أنظاره علىّ ومراقبته لى. أخيراً قال:

- لم أرك تضحكين أو تبتمين اليوم، كامبىلى.

أطرفتُ ببصرى إلى الأرض، وأردت أن أقول إننى
أسفة أننى لم أبتسم أو أضحك، لكن كلماتى لم تخرج
من فمى.. ولفترة ظلت أذناى لا تسمعان شيئاً. قالت
العمة أفيوما:

- إنها خجولة

تمتمتُ بكلمة عرفت أنها مناسبة، ونهضتُ وسرتُ
إلى حجرة النوم. تأكدتُ من إغلاق الباب المؤدى إلى
الردهة. ظل الصوت الموسيقى للأب أمادى يتردد
صداه فى أذنى حتى رحت فى النوم.

يدوي الضحك دائماً فى منزل العمّة أفيوما،
ويتردد صدها فى كل أرجائه، ويرتفع صوت النقاش
بالسرعة نفسها التى يتلاشى بها، وعادة ما تتواصل
فيه صلوات الصباح والمساء وأغنيات تنشد بالاجبو
مصحوبة بتصفيق الأيدي، وإن كان فيه نصيب الفرد
من اللحم فى الطعام لا يزيد عن قطعة بعرض
أصبعين متلاصقين وبطول يصل إلى نصف الأصبع.
شقة العمّة أفيوما نظيفة دائماً، فأماكا تقوم بتنظيف
أرضية الشقة بفرشاة خشنة، وأوبيورا مهمته الكنس،
وتشيما يرتب وضع الوسائد على المقاعد والأسرة.
ونتناوب جميعاً غسل الأطباق فيما بيننا بعد أن
قامت العمّة أفيوما بضمنا جاجا وأنا إلى الجدول
المنظم لمواعيد غسل الأطباق. وعندما انتهيتُ من
غسيل أطباق الغداء وقمت بوضعها فى الطاولة حتى
تجف، فاجأتنى أماكا بجمعها من الطاولة ثم غمرتها
ثانية فى الماء.

- أبهذه الكيفية تفسلين الأطباق فى منزلك؟.. أم
أن غسيل الأطباق ليس ضمن جدولك الجميل؟
وقفتُ أحدقُ فى أماكا متمنية وجود العمة أفيوما
لكى تتحدث نيابة عني، ثم حدقتُ هى فى وجهى
للحظة قبل أن تغادر مسرعة. لم تقل لى أى شىء آخر
حتى وصول صديقاتها فى فترة بعد الظهر أثناء وجود
العمة أفيوما بصحبة جاجا فى الحديقة، بينما
الصبيان يلعبان بالخارج. على نحو عارض قالت أماكا:
-كامبيلى.. هؤلاء صديقاتى من المدرسة.

قالت الفتاتان "هالو" فابتسمتُ. كان لهما نفس
شعر اماكا القصير وأحمر شفاه لامع على شفثيهما.
بدا بنظرون كليهما ضيقاً جداً أثناء قيامهما بتحديد
النظر فى صورتيهما فى المرآة، وبتصفح مجلة أمريكية
على غلافها امرأة بشرتها بنية وشعرها عسلى،
وبالحديث عن مدرس الرياضيات الذى لا يعرف
الإجابات على الاختبارات التى يضعها بنفسه، وعن
فتاة ارتدت جيبة قصيرة عند ذهابها إلى درس مسائى
بالرغم من ساقىها الممتلئتين، وتبادلا الهمس عن صبي
وسيم.

- وسيم لكنه ليس جذاباً

قالت التى ترتدى قرطاً يتدلى من إحدى أذنيها
وقرطاً آخر لامعاً من الذهب الزائف فى الأذن الثانية.
لم أدرك أن الفتاة الثانية تسألنى: "أهذا شعرك
الحقيقى؟"، لكن بسرعة قالت أماكا "كامبيلى!". أردتُ

أن أخبر الفتاة أنني لا أضع باروكة شعر، لكن الكلمات توقفت في حلقي وهما لا يزالان يتحدثان عن طول شعري وكثافته. رغبتُ في أن أتحدث إليهن وأن أشاركهن الضحك وفي أن أقفز عالياً في المكان نفسه مثلهن بغير توقف، لكن شفتي المزمومتين ظلتا على حالهما في عناد. ولأنني لم أرد أن تصدر عني تآتأة أو فأفأة فقد بدأتُ في السعال وركضتُ إلى الخارج في اتجاه دورة المياه.

أثناء جلوسى للعشاء في ذلك المساء، سمعت صوت أماكا:

- أنت متأكدة أن أمرهما عادى؟.. لقد تصرفتُ مثل شاة أثناء وجود صديقاتي.

لم ترفع أماكا أو تخفض من صوتها الذي انساب واضحاً من المطبخ، كذلك جاء رد العمة أفيوما الحازم بالإنجليزية:

- أماكا، أنت حرة في آرائك، لكن يجب أن تعاملني ابنة عمك باحترام. أتفهمين هذا؟
- كان ذلك مجرد سؤال.

- ليس من الاحترام في شيء أن تصفي ابنة عمك بالشاة.

- لقد تصرفتُ بفراة.. حتى جاجا يبدو غريباً..
هناك شيء ما خطأ فيهما.

اهتزتُ يدي أثناء محاولتي تسوية شريحة خشبية مستطيلة من سطح الطاولة كانت قد تشققت

وتقوست حول نفسها، ويسير بالقرب منها صف من النمل الصغير بلون الزنجبيل. كانت العمّة أفيوما قد أخبرتنى بأن النمل لا يؤذى أحداً ولا يمكن فى الحقيقة التخلص منه، وهو موجود بالمبنى منذ إنشائه. مددتُ بصرى نحو حجرة المعيشة لكى أعرف إذا كان جاجا قد سمع ما قالتة أماكا، لكنه كان مستغرقاً فى مشاهدة التلفزيون مستلقياً على الأرض إلى جوار أوبيورا وكأنه على هذا الحال طوال حياته.

طلبتُ العمّة أفيوما منى أن ألحق بها وجاجا فى الحديقة لكى نلتقط بعناية أوراقاً بدأت تذبل فى شجرة نبات له منافع طبية.. سألتُ:

- أليست جميلة؟.. انظرى إلى هذا.. الأخضر والبنفسجى والأصفر فى الأوراق، وكأن يد الله تمسك بفرشاة ألوان.

- نعم

كانت تحدق فى وجهى، فسألت نفسى ما إذا كان قد جال بذهنها أن صوتى يفتقد لحماس صوت جاجا أثناء حديثهما حول الحديقة. بعض الأطفال من الشقق العلوية جاءوا وجلسوا يراقبوننا. كانوا خمسة ثيابهم جميعاً ملطخة ببقع طعام. يتحدثون فيما بينهم بكلمات سريعة. التفت إلى واحد منهم وسألنى عن مدرستى فى انوجو. تعثر الكلام فى فمى، فأمسكتُ ببضع أوراق نبات ذابلة بإحكام واقتلعتها بقوة، ونظرت إلى السائل اللذج الذى يقطر من سيقان النبات. قالت

العمة أفيوما أن بإمكانى الذهاب إلى الداخل إذا أردت، وأخبرتني عن كتاب انتهت من قراءته مؤخراً موجود على الطاولة في حجرة نومها وأكدت لي أنني سأحبه. توجهتُ إلى حجرتها ووجدتُ كتاباً غلافه أزرق لكن لونه حال بعض الشيء، وعنوانه "رحلات إكيوانو" أو "حياة جوستافوس فاسا الإفريقي".

جلستُ في الشرفة والكتاب على ركبتي، أرقب طفلة تطارد فراشة تثب إلى أعلى وأسفل، وجناحها بلونيهما الأصفر والأسود يضربان الهواء برفق، وكأنها تشاكس الفتاة الصغيرة لتركض هنا وهناك، فتتقافز كرة شعرها المعقود أعلى رأسها. يجلس أوبيورا في الشرفة أيضاً بعيداً عن الظل، يغمض عينيه نصف إغماضة خلف عدسات نظارته السميقة ليقيهما من الشمس، وذلك أثناء مراقبته الفتاة والفراشة، مكرراً نطق الاسم "جاجا" ببطء بعد اقتسامه إلى مقطعين: جا.. جا.

- آجا يعني الرمل أو مهبط الوحي، لكن جاجا؟..
ما معنى جاجا؟.. ليست في لغة الاجبو.

- في الحقيقة اسمى تشوكوكا، وجاجا اسم أطلق على في طفولتي وظل لصيقاً بي.

كان جاجا جاثياً على ركبتيه، مرتدياً بنطلوناً قطنياً، ومع قيامه بنزع الأعشاب الضارة من الحديقة تتموج عضلات ظهره العاري. التفتتُ العمة أفيوما إليه وقالت:

- أقصى ما كان يقوله وهو رضيع "جا.. جا" لذلك كان كل شخص يناديه جاجا، وحينئذ قلت لأمه إنه اسم سهل ومناسب ويذكر باسم جاجا ملك ابوبو.

سأل أوبيورا:

- ملك ابوبو؟.. الملك العنيد؟

قالت العمه أفيوما:

- الجريء.. كان ملكاً جريئاً.

- ماذا يعنى كونه ملكاً جريئاً يا أمى؟.. ماذا كان يفعل؟

- كان ملكاً على شعب ابوبو، وعندما أتى البريطانيون، رفض السماح لهم بالتحكم فى كل الأعمال التجارية. لم يقم ببيع روحه نظير حفنة بارود مثلما فعل باقى الملوك، لذلك قام البريطانيون بنفيه إلى الهند الغربية ولم يعد أبداً إلى أبوبو.

أمسكتُ بوعاء رشاش الماء وبدأتُ ترش الماء على صف زهور صفراء صغيرة، وتابعتُ قولها:

- هذا شيء محزن.. ربما كان لا يتعين عليه أن يكون جريئاً.

سألتُ نفسى ما إذا كان تشيما قد فهم ما قالته العمه أفيوما مثل "قاموا بنفيه" أو "يبيع روحه نظير حفنة بارود"، فهى كانت تتحدث وكأنها تتوقع منه ذلك.

- من المفيد فى بعض الأحيان أن يكون المرء جريئاً.. فالجراًة مثل الماريجوانا التى لا ضرر منها إذا استعملت على نحو صحيح.

صوتها - وليس مضمون قولها - جعلنى أنظر إليها فأجدها تتحدث إلى تشيما وأوبيورا، بينما هى ترمق جاجا بعينيهما. ابتسم أوبيورا وضغط بأصبعه على إطار نظارته إلى أعلى.

- لم يكن جاجا ملك ابوبو قديساً على أى حال، فقد باع شعبه لتجار الرقيق، إلى جانب أن البريطانيين كسبوا فى النهاية ولم تُجد الجراًة كثيراً - البريطانيون كسبوا الحرب، لكنهم خسروا معارك كثيرة.

وعيناي تثبت فوق سطور صفحة الكتاب أمامى، سألت نفسى "كيف فعلها جاجا؟" .. "كيف استطاع التحدث فى سهولة ويسر؟" .. "أليس لديه فقايق هواء داخل حلقة تعيد الكلمات إلى الحلق تاركة فقط التأتأة والفاءة؟". نظرتُ فى وجهه ملياً لأرغب بشرته الداكنة وقد غطتها قطرات عرق تومض فى الشمس. لم أر ذراعه تتحرك بهذه الكيفية من قبل، ولم أر أبدأ الوميض الثاقب فى عينيه أثناء وجوده فى حديقة العمة أفيوما.

- ماذا حدث لأصبعك الصغير؟

سأل تشيما، فنظر جاجا إلى يده وكأنه لاحظ فى التو الأصبع المشوه. قالت العمة أفيوما بسرعة:

- تعرض جاجا لحادث.. تشيما، اذهب وأحضر لى وعاء الماء.. يكاد يكون فارغاً فيمكنك حمله.

حدثتُ فى العمه أفيوما، وعندما التقت عيناها بعينى، نظرتُ بعيداً. إنها تعلم إذن. إنها تعلم ما حدث لأصبع جاجا عندما كان فى العاشرة من عمره. أخطأ فى سؤالين فى اختبار الدين ولم يكن الأفضل بين أقرانه. أخذه بابا إلى الطابق العلوى وأغلق الباب. خرج جاجا والدموع تنهمر من عينيه ويده اليمنى تمسك بيده اليسرى. كان بابا يبكى أيضاً وهو يحمل جاجا على ذراعيه مثل رضيع طوال الطريق إلى السيارة ليصاحبه إلى مستشفى سان آجنيز. فى وقت لاحق أخبرنى جاجا أن بابا تجنب يده اليمنى لأنها اليد التى يكتب بها.

- هذه على وشك التفتح

خاطبتُ العمه أفيوما جاجا مشيرة إلى برعم زهرة.

- يومان آخران وتفتح عينيها إلى العالم.

- من المرجح ألا أراها.. نكون قد غادرنا.

ابتسمت العمه أفيوما

- ألا يقولون إن الوقت يطير عندما يكون المرء سعيداً؟

دق جرس الهاتف. طلبتُ منى العمه أفيوما أن أجيبه لقربى من الباب الأمامى. إنها ماما. غمرنى

شعور بأن شيئاً ما قد حدث لأن بابا يكون المتحدث دائماً، كما أنهما لا يجريان اتصالاً هاتفياً فى فترة بعد الظهر. بدا صوت ماما وكأنها فى حاجة إلى أن تفرغ ما بأنفها.

- والدك ليس هنا.. كان يتحتم عليه أن يغادر المنزل هذا الصباح.

- هو بخير؟

- بخير.

صمتت لفترة أمكننى سماعها تتحدث إلى سيسى، ثم عادت إلى الهاتف وقالت إن جنوداً بالأمس توجهوا إلى مكاتب جريدة ذى ستاندرد دون أن يعرف أحد كيف علموا بأماكنها، وكانوا بأعداد كبيرة حتى أنهم ذكروا الناس فى الشارع بمشاهد الحرب الأهلية. أضافت أن الجنود أخذوا كل نسخ الجريدة وحطموا الأثاث وماكينات الطباعة، وألقوا القبض على إد كوكر.

- أنا قلقة على والدك.. أنا قلقة على والدك

أعطيتُ جاجا سماعة الهاتف ثم أعطائها للعمة أفيوما التى بدا عليها القلق بعد انتهاء المكالمة، فخرجت لتشتري نسخة من جريدة ذى جارديان بالرغم من أنها فى العادة لا تشتري جرائد لأنها تكلفها كثيراً من النقود، وتكتفى بقراءة عناوينها أمام طاولات بائعى الصحف عندما يكون لديها وقت.

نشرت جريدة ذى جارديان قصة إغلاق الجنود جريدة ذى ستاندرد فى صفحة داخلية بجانب

إعلانات أحذية نسائية مستوردة من إيطاليا . لم أدر ما إذا كانت نبرة زهو فى صوت أماكا:

- العم ايوجين كان سيضع مثل هذه القصة فى صدر الصفحة الأولى بجريدته.

عندما تحدث بابا هاتفياً فى وقت لاحق، طلب التحدث أولاً إلى العمه أفيوما، وبعد ذلك تحدث إلى جاجا، ثم إلى. قال إنه بخير وإنه يفتقدنا ويحبنا كثيراً جداً، ولم يذكر شيئاً عن جريدة ذى ستاندرد أو ماذا حدث لمكاتبها. بعد انتهاء المكالمة قالت العمه أفيوما:

- والدكما يريدكما أن تمكثا هنا بضعة أيام أخرى اعتلت وجه جاجا ابتسامة كبيرة، حتى أننى رأيت بخديه غمازتين لم أكن أعلم بوجودهما من قبل.

* * *

دق جرس الهاتف مبكراً قبل أن يأخذ أى منا حمامه الصباحى، شعرتُ بجفاف فى فمى لأننى كنت متأكدة أن جرس الهاتف له علاقة بشىء قد حدث لأبى. ربما اقتحم الجنود المنزل وأطلقوا عليه الرصاص حتى يأمنوا جانب جريدة ذى ستاندرد. انتظرتُ أن تنادى علينا العمه أفيوما التى ظلت تتحدث للحظات فى الهاتف، وعندما أقبلت علينا بدا وجهها مكتئباً ولم تتطلق ضحكتها كالمعتاد بقية اليوم، ونهرت تشيما عندما أراد الجلوس بجانبها قائلة "دعنى وشأنى". اختفى جزء من شفيتها السفلى داخل فمها وارتجف فكها وكأنها تلوك شيئاً.

حضر الأب أمادى أثناء العشاء، وجذب مقعداً من حجرة المعيشة وجلس واحتسى ماءً من كأس زجاجى أحضرته له أماكا، التى عندما سألته عما قام به خلال اليوم قال:

- لعبت كرة القدم فى الاستاد، وبعد ذلك اصطحبتُ بعض الصبية إلى المدينة.

قاطعه أوبيورا.

- لماذا لم تخبرنى أنك ستلعب اليوم يا أبى.

- آسف، نسيت إخبارك.. لكن سأصطحبك أنت وجاتا معى فى نهاية الأسبوع نلعب سوياً.

لم أستطع النظر إليه لأننى لم أعرف أن قساً يمكنه لعب كرة القدم، وبدا لى ذلك أمراً آثماً ومبتدلاً. وعندما التقتُ عيناه بعينى سارعت بالنظر بعيداً.

- ربما تلعب معنا كامبيلى أيضاً.

سماعى اسمى بصوته ذى الإيقاع اللحنى أصابنى بالتوتر، ولم أشعر بأية رغبة فى قول شىء.

- أرادت اماكا اللعب معنا عندما جئت لأول مرة إلى هنا، لكن الآن تقضى وقتها فى سماع الموسيقى الإفريقية وفى الحلم بأحلام غير واقعية.

ضحك أبناء عمتى، وكانت أماكا أكثرهم ضحكاً، واكتفى جاجا بالابتسام، ولم تضحك العممة أفيوما التى كانت تنتظر إلى البعيد.

- أفيوما .. ماذا حدث؟

هزت رأسها وأطلقت تنهيدة، وكأنها أدركت فجأة أنها لم تكن بمفردها.

- تلقيت رسالة من قريتنا هذا الصباح تفيد بأن والدنا مريض منذ ثلاثة أيام.. أريد إحضاره إلى هنا.
في صوت حاد، سألت أماكا:

- بابا نوكوو مريض؟.. متى علمت بذلك يا أمي؟
جارته الطيبة نوامجبو تحدثت إلى هذا الصباح..
لقد توجهتُ إلى أوكبي حتى تجد هاتفاً
- كان يتعين عليك إخبارنا!

- ألم أخبركم الآن؟

- متى يمكننا الذهاب إلى أبا يا أمي؟
بهدوء سأل أوبيورا الذى بدا لى فى تلك اللحظة أنه أكبر فى العمر من جاجا.

- ليس لدى وقود يكفى فى السيارة، ولا أدرى متى يأتى الوقود، ولا يمكننى تحمل استئجار تاكسى، وإذا استعنت بالمواصلات العامة كيف يمكننى إحضار رجل عجوز مريض إلى هنا فى تلك الحافلات المكدسة بالراكبين، التى لا يمكن للمرء من شدة الزحام أن يبعد وجهه عن رائحة إبط الواقف أمامه.

هزت العمة أفيوما رأسها.

- أنا مرهقة.. مرهقة جداً.

قال الأب أمادى فى هدوء:

- لدينا بعض الوقود الاحتياطى للطوارئ فى
كنيستنا.. أستطيع أن أحصل لك على جالون منه..
هونى على نفسك.

هزت رأسها وشكرته، لكن وجهها ظل على حاله
مكتئباً لبعض الوقت حتى أن صوتها لم يرتفع كثيراً
عند الغناء بين الصلوات. فى تلك الأثناء، كنتُ أفكر
ملياً فى المكان الذى سينام فيه الأب نوكوو.. فحجرة
المعيشة يشغلها الصبيان، وحجرة العمه أفيوما لا
تتسع لأحد لكونها تستخدم كخزانة طعام ومكتبة
وحجرة نوم لها وتشيما. جال بذهنى احتمال أن
يشاركنا الأب نوكوو حجرة النوم التى نشغلها أماكا
وأنا، وما إذا كان يتحتم علىّ عندئذ أن أعترف لقس
الكنيسة بأن وثنياً شاركنى الحجرة، وأن أصلى للرب
حتى لا يكتشف بابا أبداً أن الأب نوكوو زارنا وأنى
شاركته الحجرة.

قبل انتهائنا من الصلوات، صلتُ ماما من أجل
الأب نوكوو، طالبة من الرب أن يلمسه بيده الشافية،
وطلبتُ من السيدة العذراء المباركة أن تصلى من أجله،
ومن الملائكة أن تتولى أمر العناية به.

جاء قولى "آمين" متأخراً قليلاً ويشوبه قدر قليل
من الدهشة لأن بابا عندما يصلى من أجل الأب نوكوو
كان يسأل الرب فقط أن يهديه إلى الدين حتى ينقذ
نفسه من نار الجحيم.

* * *

مبكراً فى صباح اليوم التالى، حضر الأب أمادى فى هيئة لا تنم عن كونه قساً بدرجة أكثر من المرة السابقة.. يرتدى بنطلوناً كاكى اللون يصل حتى أسفل الركبة، وبدا وجهه فى أشعة شمس الصباح غير حليق، تتناثر على فكيه نقاط سوداء صغيرة. صفاً سيارته إلى جانب سيارة العمه أفيوما، وجاء بوعاء الوقود وخرطوم قديم بالحديقة.

- دعنى أقوم بشفط هواء الخرطوم حتى يمكن سحب البنزين من الوعاء يا أبى.

- فقط، احرص على ألا تبتلع شيئاً منه.

أدخل أوبيورا أحد طرفى الخرطوم فى وعاء البنزين ثم أدخل الطرف الثانى فى فمه. راقبتُ انتفاخ وجنتيه، ثم بسرعة مفاجئة أخرج طرف الخرطوم من فمه وأدخله فى خزان بنزين سيارة العمه أفيوما. لفظ أوبيورا رشاش اللعاب من فمه ثم أعقب ذلك بسعال.

- هل ابتلعت شيئاً من البنزين؟

سأل الأب أمادى مربتاً بيده على ظهر أوبيورا الذى قال مزهواً "لا" واستمر فى السعال.

- جيد، أنت تعلم أن شفط هواء خرطوم البنزين مهارة يحتاجها المرء هذه الأيام.

ابتسامه الأب أمادى الساخرة لم تفد كثيراً فى إخفاء ملامحه التى تشبه الصلصال فى نعومتها.

خرجتُ العمة أفيوما مرتدية رداءً أسود وبغير أحمر شفاه لتعانق الأب أمادى.

- شكراً يا أبى

- يمكننى توصيلك إلى أبا بسيارتى بعد ظهر اليوم.

- لا يا أبى، شكراً.. سأذهب مع أوبيورا.

استقلت العمة أفيوما سيارتها وإلى جوارها أوبيورا فى المقعد الأمامى، وسريعاً غادر الأب أمادى، وصعد تشيما إلى شقة أحد الجيران، وذهبت أماكا إلى غرفتها وأدارت جهاز التسجيل فارتفع صوت الموسيقى إلى درجة أننى سمعتها بوضوح من مكانى بالشرفة، وأمكنتنى تمييز نغمات أونيككا اونوينو. جلس جاجا بجانبى وفى يده مقص كبير، ومعى الكتاب الذى قاربْتُ على الانتهاء من قراءته. فى همس قلت:

- أتعتقد أننا لسنا أسوياء؟

- ماذا؟

- أماكا قالت أننا لسنا أسوياء.

- غير سوى.. ماذا تعنى؟

سؤال لم تكن نريد له إجابة.. لحظات وغادر جاجا إلى الفناء ليشذب بعض الشجيرات.

بعد الظهر، عندما أوشك طنين النحل فى أرجاء الحديقة أن يسلمنى للنوم، عادت العمة أفيوما. ساعد أوبيورا الأب نوكوو فى الترتيل من السيارة، وأمسك به

فى الطريق إلى الشقة. هرعت أماكا خارجة وعانقته بلطف. كانت عيناه واهنتين، وجفناه متدليان كأنهما يحملان أثقالاً، لكنه ابتسم وقال شيئاً جعل أماكا تضحك.

- بابا نوكوو.

- كامبيلى.

قالها فى خفوت ووهن. أرادت العمة أفيوما من الأب نوكوو أن يستلقى على سرير أماكا، لكنه قال إنه يفضل الأرض. أحضر أوبيورا وجاجا حاشيات ووضعوها على الأرض، وقامت العمة أفيوما بمعاونة الأب نوكوو على أن يستلقى على مهل، وسرعان ما أغلق عينيه بالرغم من أن جفن عينه التى تكاد تفقد بصرها ظل مفتوحاً قليلاً، وكأنه يختلس النظر إلينا. بدا فى استلقائه أكثر طولاً، فتذكرتُ قوله أنه فى شبابه كان يمد ذراعه إلى أعلى الشجرة ويقتطف ثمارها بسهولة، قالت أماكا:

- سأعد عشاءً يحبه جدى

- أتمنى أن يأكل لأن تشينيلو قالت إنه يجد صعوبة فى ابتلاع الماء فى اليومين الأخيرين.

كانت العمة أفيوما ترمق الأب نوكوو، وتربتتْ - وفى لطف - براحة يدها على الجلد المتشقق فى باطن قدمه كتشققات فى حائط. سألت أماكا:

- ستأخذينه إلى المركز الطبى اليوم أم صباح غد،

ماما؟

- أنسيت أن الأطباء فى إضراب منذ الكريسماس؟.. لقد تحدثتُ هاتفياً مع الدكتور ندوما وأخبرنى بحضوره هذا المساء.

بعد ساعات قليلة، وأثناء ترحله من سيارته البيجو ٥٠٤ الحمراء، علمنا جاجا وأنا من أاماكا أن الدكتور ندوما يقطن فى مارجرىت كارترايت افنيو فى منزل من طابقين وحديقة كبيرة، وأمامه لافتة تحذر من الكلاب، وأنه منذ بدأ الأطباء فى الإضراب قام بفتح عيادة صغيرة له فى المدينة وأنها ذهبت إليها عند إصابتها بالمalaria لتحقن بالكلور بحقنة قامت الممرضة بتعقيمها بماء يغلى على موقد كيروسين يخرج دخاناً. بدت اماكا سعيدة بحضور الدكتور ندوما إلى المنزل، لأن الدخان والهواء الفاسد فى العيادة ربما يتسببان فى اختناق الأب نوكوو.

الابتسامة الدائمة الملتصقة بوجه الدكتور ندوما تجعله من السهل عليه إبلاغ المريض بأخبار سيئة عن مرضه. ضحك مع أاماكا وصافح جاجا وأنا، وتبعته أاماكا إلى حجرتها لكى يلقى نظرة على الأب نوكوو. قال جاجا:

- لقد فقد الكثير من وزنه وأصبح جلدأ على عظم كنا جالسين جنباً إلى جنب فى جزء من الشرفة وقد غربت الشمس وهبت نسمة هواء لطيفة. وبينما الكثير من أطفال الشقق المجاورة يلعبون كرة القدم فى الفناء ويضحكون مع كل ضربة كرة على جدران

الجراج، صاح صوت أجش من شقة علوية "إذا لم تمتنعوا عن ضرب الكرة فى جدران الجراج سأقطع آذانكم".

- هل تعتقد أن بابا سيكتشف الأمر؟

- ماذا؟

شيكْتُ أصابعى معاً.. كيف لا يعلم جاجا ما أعنى؟

- الأب نوكوو هنا معنا فى المنزل نفسه.

- لا أدرى.

نغمة صوته جعلتنى أستدير وألتفت إليه. لم يكن عاقداً حاجبيه قلقاً مثل تأكدى من حاجبى المعقودين.

- هل أخبرت العمّة أفيوما عن أصبعك؟

شعرت أنه ما كان يتعين على أن أسأله. لكن الفقاقيع المتجمعة فى حلقى وتمنعنى من الكلام لم تكن تجمعت، لأنها لا تتجمع ولا يعوقنى شيء عن الحديث عندما أكون وحدى مع جاجا.

- سألتنى وأخبرتها.

كان يدق بقدمه على أرضية الشرفة فى إيقاع نشط. حدقتُ فى يدي وأظافرى القصيرة التى اعتاد بابا قصها، وأنا أجلس بين ساقيه ووجنته تمس وجنتى برفق، إلى أن كبرت لأقصها بنفسى. هل نسى جاجا أن هناك أشياء كثيرة جداً لم يكن يتاح لنا أبداً معرفتها؟ إذا سألت البعض عن أصبع يده، كان دائماً

يقول إن شيئاً ما حدث له بالمنزل، وعلى هذا النحو لم يكن يكذب ويدعهم يتخيلون أن السبب هو حادث ربما يتصل بباب ثقيل أو شيء من هذا القبيل. أردتُ أن أسأله عن سبب إخباره العمدة أفيوما لكنني أحجمت، ربما لأنه سؤال هو نفسه ربما لا يعرف إجابة له. قال وهو ينهض واقفاً:

- أنا ذاهب لأغسل سيارة العمدة أفيوما التي غطاها الغبار.. أتمنى عودة المياه حتى أفعل ذلك بسهولة.

تابعته بنظري. لم يسبق له أن نظف سيارة أبداً في منزلنا. بدا عريض الكتفين أكثر مما كان، فتساءلتُ عما إذا كان من الممكن لكتفي مراهق أن يصبح عريضين أكثر خلال أسبوع واحد. ثقل هواء المساء برائحة الغبار وأوراق الشجر الملقاة على العشب والتوابل القادمة من المطبخ. تناهى إلى سمعى صوت دقات قدم جاجا على إيقاع أغنية بالاجبو تقوم العمدة أفيوما وأبناؤها بغنائها في صلواتهم.

بينما أجلس في الشرفة أقرأ، غادر الدكتور ندوما بعد أن تبادل حديثاً ضاحكاً مع العمدة أفيوما التي سارت معه إلى سيارته، مؤكداً أنه ما كان يمكنه رفض دعوتها على العشاء لو لم يكن هناك مرضى في انتظاره بعيادته، خاصة وأن رائحة الحساء التي تعده أماكا شديد الإغراء.

انتقلتُ العمّة أفيوما إلى الشرفة لتتابع سيارة الدكتور ندوما وهى تغادر المكان. التفتتُ إلى جاجا الذى ينظف سيارتها المتوقفة قائلة "شكراً لك، بابا". للمرة الأولى سمعتها تخاطبه "بابا" مثلما تخاطب أبناءها فى بعض الأحيان. عاد جاجا إلى الشرفة وقال لها "هذا لا شىء يا عمّتى"، ثم فى شىء من الزهو سأل:

- ماذا قال الدكتور؟

- يريد منا أن نجرى له بعض الاختبارات. سأصاحبه غداً إلى المختبر الذى لا يزال مفتوحاً بالمركز الطبى.

* * *

فى الصباح اصطحبتُ العمّة أفيوما الأب نوكوو إلى المركز الطبى للجامعة، وعادت بعد قليل وعلامات الاستياء على وجهها وشفتيها لأن موظفى المختبر أيضاً مضربون عن العمل، ولذلك لم يجر الأب نوكوو الاختبارات اللازمة. حدقتُ فى نقطة لا تبعد كثيراً وقالت بصوت خفيض إنها ستضطر إلى البحث عن مختبر خاص فى المدينة. ثم فى صوت أكثر انخفاضاً قالت إن المختبرات الخاصة رفعت أسعارها بدرجة كبيرة حتى أن اختبار حمى التيفود البسيط يكلف أكثر مما يكلفه شراء الدواء لعلاج المرض. كانت خطوط القلق ترتسم على جبينها وهى تمسك بالوصفة العلاجية التى كتبها الدكتور ندوما.

فى ذلك المساء، تحسنت حالة الأب نوكوو بعض الشىء، وأمكنه تناول العشاء، وبدا جبين العمة أفيوما يتحرر قليلاً من خطوطه وتجاعيده، وعلت وجه أماكا ابتسامة صامته أظهرت الفراغ بين سنتيها الأماميتين، هذه الابتسامة التى تعلى وجهها دائماً فى وجود الأب نوكوو الذى اعترض على الاهتمام المبالغ فيه من قبل العمة أفيوما وأماكا أثناء الإلحاح عليه لتناول المزيد من كرات البطاطا المغموسة فى الحساء قبل ابتلاع أقراص الدواء، وتمتم قائلاً:

- عندما يتقدم المرء فى السن يعاملونه معاملة الأطفال.

فجأة أطلق جهاز التليفزيون صوت خشخشة أشبه بصوت حب رمل جاف على صفحة ورقة، ثم انقطع التيار الكهربائى ولفَّت الحجرة عباءة سوداء. زمجرت أماكا.

- هذا الوقت ليس مناسباً لانقطاع التيار.. أنا أريد مشاهدة شىء بالتليفزيون.

تحرك أوبيورا فى الظلام فى اتجاه مصباحى الكيروسين بمنتصف الحجرة وأشعلهما، وفى الحال شممت رائحة دخان الكيروسين الذى دمعت له عيناي وتأثر بها حلقي. قال أوبيورا:

- جدى نوكوو، احك لنا حكاية فولكلورية كما فى أبا.. إنها أفضل من التليفزيون على أية حال.

- لكن أخبرنى أولاً كيف وصل هؤلاء الناس إلى داخل هذا الصندوق إلى التلفزيون.

ضحك أبناء عمتى على قول الأب نوكوو الذى كثيراً ما يقوله ليضحكهم. عرفتُ ذلك من الطريقة التى بدأوا بها ضحكهم حتى قبل أن يكمل كلامه. قال تشيما بصوته الحاد:

- أخبرنا لماذا للسلفاة ذلك الغطاء الصلب المتشقق.

وبالإنجليزية قال أوبيورا:

- أحب أن أعرف لماذا تتواجد السلفاة كثيراً فى قصص شعبنا.

- أخبرنا بقصة ذلك الغطاء الصلب المتشقق للسلفاة.

أطلق الأب نوكوو صوتاً لإخلاء ما تراكم فى حلقه ويعوق خروج صوته واضحاً.

- فى عهود قديمة تتحدث فيها الحيوانات، انتشرت مجاعة وجفت الحقول وتشققت التربة، وقتل الجوع الكثير من الحيوانات، ومن نجا منها لم يكن لديه القوة لكى يرقص رقصة الحداد فى الجنائز. وفى يوم من الأيام اجتمع كل ذكور الحيوانات ليقرروا ماذا يمكنهم عمله قبل أن يقضى الجوع على القرية بكاملها. توافدت جميع الحيوانات إلى مكان الاجتماع. ضعف صوت زئير الأسد حتى بات يشبه صوت الفأر.

والسلحفاة تحمل غطاءها الثقيل فى صعوبة. فقط الكلب بدا ممتلئاً ولا تظهر عظامه تحت جلده، لذلك أصبح مثار تساؤل جميع الحيوانات: كيف ظل الكلب بحالة جيدة مستمرة. كان جواب الكلب "الغائط هو طعامى دائماً".

اعتادت الحيوانات الضحك من الكلب الذى يتغذى هو وعائلته على الغائط فى حين ليس فى استطاعة أى حيوان آخر تخيل أن يكون الغائط طعامه. وفى اجتماع حضره جميع الحيوانات، اتخذ الأسد موقعه كرئيس للاجتماع وقال: "طالما أننا لا يمكننا تناول الغائط كغذاء مثل الكلب فيتحتّم علينا إذن أن نفكر فى طريقة نطعم بها أنفسنا". فكرت الحيوانات طويلاً إلى أن اقترح أرنب أن تقوم كل الحيوانات بقتل أمهاتها والتغذى عليها. لم توافق الكثير من الحيوانات على الاقتراح لأنها مازالت تتذكر المذاق الحلو لحليب أمهاتهم. لكن فى النهاية تمت الموافقة على الاقتراح باعتباره أفضل البدائل، طالما ستموت الحيوانات على أية حال إذا لم تتوصل إلى حل آخر.

فى ضحكة مجلجلة قال تشيما:

- لا يمكننى أبداً أن أكل ماما.

قال أوبيورا:

- ربما ليست فكرة جيدة، فجلودهن عصية على المضغ.

استمر الأب نوكوو فى الحكى.

- لم تجد الأمهات مانعاً فى التضحية بأنفسهن. وكل أسبوع يتم قتل أم وتتشارك الحيوانات فى أكل لحمها. وسرعان ما بدت الحيوانات فى صحة جيدة مرة ثانية. وقبل بضعة أيام من موعد قتل أم الكلب، ركض الكلب وأطلق نحيبه مغنياً أغنية الحداد على أمه التى ماتت نتيجة إصابتها بمرض. أبدت بقية الحيوانات تعاطفها مع الكلب وعرضت معاونتها له فى دفنها بعد رفضها التغذية عليها. لكن الكلب رفض أية مساعدة وقال إنه سيدفنها بنفسه مبدياً حزناً لأنها لم تحصل على شرف الموت مثل بقية الأمهات اللاتى ضحين بأنفسهن من أجل القرية.

بعد بضعة أيام فقط كان ذكر السلحفاة فى طريقه إلى مزرعته العطشى عله يجد شيئاً يأكله، وعند توقفه طلباً للراحة بالقرب من شجيرات قصيرة ذبلت أوراقها وأغصانها، أمكنه رؤية الكلب منشغلاً بالغناء وهو يتطلع إلى أعلى. جال بذهن السلحفاة أن فجيرة الكلب فى أمه ذهبت بعقله. لماذا يغنى الكلب ووجهه إلى السماء؟ أرهف ذكر السلحفاة أذنيه واستمع إلى غناء الكلب:

"انزلى الحبل وسأصعد إليك". توجه ذكر السلحفاة إلى الكلب وأصبحا وجهاً لوجه. أقر الكلب بحقيقة أن أمه لم تمت وأنها صعدت إلى السماء وتعيش مع صدقاء أثرياء، وتقوم على تغذيته يومياً من السماء،

ولذلك أصبح فى صحة جيدة. قال ذكر السلحفاة:
"أيها الكاذب، انتظر حتى تعرف القرية ما الذى
فعلته". ولأن ذكر السلحفاة يتسم بالمكر كعادته دائماً،
لم يعتزم أن يخبر القرية لعلمه أن الكلب سيعرض
عليه اصطحابه معه إلى السماء، وبالفضل عرض
الكلب عليه ذلك، فتظاهر ذكر السلحفاة بأنه سيفكر
فى الأمر. وعندما قام الكلب بالغناء مرة أخرى، نزل
الحبل من السماء وأمسك الاثنان به وارتفع بهما.

لم تكن أم الكلب راضية عن إحضار ابنها لصديقه،
لكنها قامت على العناية بهما على أى حال. أكل ذكر
السلحفاة كل ما قدم له من معجون البطاطا والحساء
وتجرع كأساً ممتلئة بنبيذ البلح. بعد انتهائهما من
الطعام نزلا بمساعدة الحبل إلى الأرض، وعندئذ
أخبر ذكر السلحفاة الكلب بأنه لن يخبر أحداً بما
حدث طالما أنه سيأخذه كل يوم لتناول الطعام فى
السماء. ولم يكن هناك خيار أمام الكلب غير القبول.
وفى يوم من الأيام قرر ذكر السلحفاة أن يصعد إلى
السماء بمفرده حتى يمكنه تناول نصيب الكلب من
الطعام بالإضافة إلى نصيبه، فذهب إلى منطقة
الشجيرات الجافة وشرع فى الغناء مقلداً صوت
الكلب، وعندئذ نزل الحبل. فى تلك الأثناء كان الكلب
قريباً من المكان وشاهد ما حدث. جن جنون الكلب
وبدأ يغنى بصوت مرتفع "ليس ابنك ذلك الصاعد إلى
السماء.. اقطعى الحبل يا أمى.. إنه ذكر السلحفاة
المالكر".

وسأل أوبيورا بالإنجليزية:

- أليس ما يدعو إلى التساؤل هو كيف صعدت أم
الكلب إلى السماء؟

أضافت أماكا:

- أو من هؤلاء الأصدقاء الأثرياء فى السماء؟

- من المرجح أن يكونوا أسلاف الكلب

ضحك أبناء عمتى وجاجا، كما ضحك الأب نوكوو
أيضاً ضحكاً هادئاً من الحلق وكأنه يعرف الإنجليزية،
ثم فرد جسمه وأغلق عينيه. كنت أراقبهما الواحد بعد
الآخر، وتمنيتُ لو كنتُ طرفاً فى أحاديثهما
وضحكاتهما.

استيقظ الأب نوكوو قبلنا جميعاً. أراد تناول الإفطار جالساً بالشرفة ليراقب شمس الصباح. طلبت العمّة أفيوما من أوبيورا أن يفرش حصيرة على أرضية الغرفة لنجلس عليها جميعاً ونتناول الإفطار مع العم نوكوو ونحن نسمعه يتحدث عن الرجال الذين يخرجون مع الفجر لتسلق أشجار النخيل واستخراج نبيذها قبل أن يفسد بعد طلوع الشمس. خالجنى شعور بأنه يفتقد القرية ويفتقد رؤية أشجار النخيل تلك التي يتسلقها الرجال بالاستعانة بحزام من ليف النخل يلتف حولهم وحول جذع النخلة.

قالت العمّة أفيوما بالإنجليزية بعد زوال سحابة القلق من وجهها.

- سيكون بخير.. وسريعاً سيبدأ التذمر والشكوى وسيطالنا بتركه يعود إلى القرية.

قالت أماكا:

- يتعين عليه البقاء معنا لبعض الوقت.. وربما يتحتم عليه العيش هنا معنا، ماما.. أنا لا أعتقد أن تلك الفتاة تشينيو تعتنى به جيداً.

- لن يوافق أبداً على العيش هنا.

- متى ستأخذينه لكي يجرى الاختبارات؟

- غداً.. قال الدكتور ندوما إنه يمكنني الاكتفاء بعمل اختبارين بدلاً من أربعة لارتفاع أسعار المختبرات الخاصة في المدينة، ولأنه يتعين على الذهاب إلى البنك أولاً وأقف في طوابير طويلة، ولذلك لا يمكنني أخذ الأب نوكوو معي اليوم.

اقتريت سيارة من المجمع السكنى. قبل أن تسأل أماكا "أهذا الأب أمادى؟" كنت أعلم أنه هو. رأيت السيارة تويوتا الصغيرة ذات الباب الخلفى الذى يفتح لأعلى مرتين فقط من قبل، ومع ذلك يمكنني التعرف عليها. بدأت يداى ترتعشان. قالت العمه أفيوما:

- قال إنه سيمر سريعاً لرؤية الأب نوكوو.

كان يرتدى لباس الكاهن بأكمامه الطويلة وأزراره الأمامية المفتوحة والحبل الأسود غير المحكم حول خصره. لفتت نظرى مشيته المزهوة حتى وهو يرتدى ملابس القس. استدرت وتوجهت بسرعة إلى داخل الشقة حيث يمكنني رؤية الفناء الأمامى جيداً من نافذة حجرة النوم، التى تغيب عنها بضعة عوارض خشبية. أسندت وجهى إلى النافذة بالقرب من خرق

صغير فى الشبكة الواقية من البعوض يسمح أثناء الليل بدخول فراشات ترفرف حول المصباح الكهربائى. جاء وقوف الأب أمدى بالقرب من النافذة بما يكفى لأرى شعره المتجدد والموج مثل موجة صغيرة فى جدول. قالت العمة أفيوما:

- إنه يتعافى بسرعة يا أبى.

- الرب هو الشافى.

قال بوجه يتهلل سعادة وكأن الأب نوكوو أحد أقربائه.. أخبرها أنه فى طريقه إلى إسينو لزيارة صديق عاد لتوه من عمل تبشيري فى "بابوانيوغينيا". التفت إلى جاجا وقال:

- سأحضر هذا المساء لكى أقلكما معى لنلعب معاً فى الاستاد مع بعض الصبية من المعهد اللاهوتى

بصوت قوى قال جاجا:

- وهو كذلك يا أبى

- أين كامبيلي؟

نظرتُ إلى أسفل نحو صدرى - الذى يعلو ويهبط - فى لهاث مستمر لا أجد له سبباً، لكن نطقه اسمى وتذكره أشعرنى بشيء من الغبطة. قالت العمة أفيوما:

- أعتقد أنها بالداخل.

- جاجا، أخبرها أنها يمكنها الذهاب معنا إذا أحببت.

عند عودته فى المساء، تظاهرتُ بالنوم. فلم أكن أريد الذهاب معهم. لكن بعد أن لم يعد فى استطاعتي سماع صوت دوران محرك السيارة التى غادرتُ وبداخلها جاجا وأوييورا، تمنيتُ أن أركض وراءها.

فى غرفة المعيشة راحت أماكا تدلك - ببطء - خصلات شعر الأب نوكوو بدهان الفازلين، ثم بدأت تمسح براحة يدها وجهه وصدره بمسحوق تجميل. فى اللحظة التى رآنى فيها قال:

- كامبيلى.. ابنة عمك تجيد الرسم.. مثلها فى الأيام الخوالى كان يتم اختيارها لتزيين المزارات المقدسة لألهتنا.

تحدث وكأنه يحلم.. ربما لأن بعض ما يبتلعه من أقراص الدواء تسبب النعاس. لم تنظر أماكا نحوى وهى تربتُ على شعره فى ملاطفة وتودد. عدلتُ من جلستها على الأرض أمامه. لفتتُ نظرى حركة يدها السريعة المسكة بالفرشاة ذهاباً وإياباً بين لوحة الألوان وسطح ورقة بيضاء. كانت ترسم بسرعة كبيرة حتى أننى دهشت عندما وجدت ألوانها وقد اتخذت شكل تكوين مائل رشيق على المسطح الأبيض للورقة. تناهت إلى سمعى دقائق ساعة الحائط بداخلها صورة البابا متكئاً على صولجانه. قطع صوت الصمت صرير جسم معدنى تقوم العمدة أفيوما بحكه وتنظيفه فى المطبخ، وحديث ثنائى خفيض متقطع بأقل الكلمات بين أماكا والأب نوكوو. أطلتُ النظر إليهما وشعرت بتوق شديد إلى شىء ما أعرف أننى لن أملكه أبداً.

أردتُ النهوض والذهاب بعيداً؛ لكن ساقى لم تطاوعانى فيما أردته منهما. أخيراً شحذتُ كل قوتى لأنتصب واقفة وذهبتُ إلى المطبخ بغير أن أجذب انتباه أى من الأب نوكوو وأماكا.

- لماذا يبدو وجهك على هذا النحو؟

- كيف أبدو يا عمتى؟

- توجد دموع فى عينيك.

شعرتُ ببلىل فى عيني.

- ربما شىء ما دخل عيني.

لاحظتُ نظرة شك فى عينيها، وجذبتُ مقعداً منخفضاً بغير ظهر وجلستُ إلى جوارها.

- رأيت ماذا يفعل الأب نوكوو.. لفترة طويلة يجلس أمام أماكا لترسمه.. إنها معجزة سيدتنا المباركة.

- كيف يمكن لسيدتنا المباركة أن تتشفع لوثنى يا عمتى؟

بعد نظرة صمت، نظرت نحوى وقالت:

- الأب نوكوو ليس وثنياً، لكنه متمسك بالتقاليد والعادات القديمة، التى وإن كانت غير مألوفة فى الوقت الراهن، إلا أنها تلقى الاحترام نفسه الذى تلقاه الممارسات الحديثة المألوفة.. فعلى سبيل المثال، ما يقوم به الأب نوكوو فى الصباح من طقوس إعلان البراءة والطهارة يشبه ما نقوله نحن فى صلواتنا

قالت العمه أفيوما بضعة أشياء أخرى، لكننى فى الحقيقة لم أكن أنصت لها لسماعى صوت ضحكات أماكا فى حجرة المعيشة مع الأب نوكوو.. وسألتُ نفسى عن السبب الذى أطلق هذه الضحكات وعمّا إذا كانت ستتوقف عند ذهابى إليهم.

* * *

عندما أيقظتنى العمه أفيوما، كانت الحجرة مظلمة قليلاً، وسرعان ما تناهت إلى سمعى عبر النافذة أعلى السرير، أصوات صرّار الليل وصياح ديك. ربتُ على كتفى.

- جدك نوكوو بالشرفة.. اذهبى إليه وراقبيه.

فرّكتُ عينى بأصابعى، وتذكرتُ كلماتها أمس الأول فيما يتصل بكون الجد نوكوو المحافظ على التقاليد وليس الوثنى. سألتُ نفسى، لماذا تريد منى الذهاب إليه فى الشرفة. همستُ حتى تتفادى إيقاظ أماكا:

- احرصى على أن تكونى هادئة.. راقبيه فقط.

تدثرتُ جيداً بنّثار ارتديه فوق منامتى المزينة بزهور باللونين البنفسجى والأبيض، وخرجت من الغرفة بخطى متثاقلة. تسلفتُ خيوط الفجر الأولى إلى حجرة المعيشة عبر الباب الموارب المؤدى إلى الشرفة. لم أرد إشعال المصباح الكهربائى حتى لأزعج الأب نوكوو. وقفتُ ساكنة بجوار الباب مستندة إلى الحائط.

كان يجلس على مقعد خشبي منخفض بغير ظهر، وساقاه ترسمان شكل مثلث، وقد انسدل دثاره على خصره وغطى المقعد. إلى يمينه مصباح كيروسين يلقى بقليل من ضوء رجراج على الشرفة الضيقة، وعلى الشعر الرمادي الكثيف فى صدره، وعلى جلد ساقيه بلون تراب الأرض. هل كان يتحدث إلى الرب أو إلى آلهة أسلافه؟ تذكرتُ قول العمه أفيوما الذى يفيد أن الاثنين، الرب وآلهة الأسلاف، قد يختلفان فى المظهر لكنهما يلتقيان فى الجوهر.

- أشكرك على هذا الصباح الجديد!.. أشكرك على شروق الشمس

ترتعث شفته السفلى أثناء حديثه الذى تتدفق كلماته بالاجبو الكلمة بعد الأخرى.

- لم أقتل أحداً، ولم أضع يدي على أرض أحد، ولم ارتكب خطيئة الزنا، وأتمنى الخير للآخرين، وكم ساعدتُ أولئك الذين لا يملكون شيئاً بالقليل الذى فى حوزتى ويمكننى بالكاد إنفاقه.

أطلق الديك صيحات حزينة، واحدة بعد أخرى، لمست قلبى.

- باركنى.. ارزقنى بما يكفى حاجتى للطعام.. بارك ابنتى أفيوما وارزقها بما يكفى حاجة أسرتها.. بارك ابنى ايوجين ولا تطفئ شمس رخائه، وارفع غضبك عنه.

دهشتُ لأنه صلى من أجل بابا! بمثل ما صلى به من أجل نفسه وأفيوما.

- بارك أطفال أبنائى، وابتعد بهم عن طريق الشر،
وحببهم فى طريق الخير.. بارك أولئك الذين يحبون
الخير للآخرين كما يحبونه لأنفسهم.

كان يتحدث مبتسماً. بدت أسنانه الأمامية القليلة
فى الضوء صفراء داكنة. حولها فجوات يغلب عليها
الأسود والبنى.

- بارك أولئك الذين يحبون الخير للآخرين كما
يحبونه لأنفسهم.

على مهل كرر الأب نوكوو العبارة الأخيرة، كلمة بعد
كلمة، وفى رضا وخشوع أكثر. نهض وفرد جسمه
وذراعيه تحت ضوء الفجر وابتسامة تملأ وجهه.
استدرتُ - فى هدوء - عائدة إلى حجرة النوم وأنا
أحدث نفسى بأننى لم أبتسم أبداً بعد الانتهاء من
الصلوات فى منزلنا، وكذلك كل أفراد أسرتى.

* * *

بعد الإفطار، عاد الأب نوكوو إلى الشرفة، وجلس
على المقعد المنخفض بغير ظهر. جلست أماكا إلى
جانبه على قطعة حصيرة من البلاستيك تفرك قدمه
بقطعة طوب أحمر رخوة داخل وعاء به ماء. أثناء
قيامها بتجفيف قدمه بعد ذلك ودهنها بالفازلين،
أبدى تدمره من أنها ستجعل قدمه ناعمة وسهلة
التعرض للجروح، وخاصة بعد إصرار العمة أفيوما
على ارتدائه الصندز.. برغم تدمره إلا أنه لم يطلب
من أماكا التوقف عما تفعل.

- سأرسمه فى الشرفة والشمس تلقى بأشعتها عليه.

خاطبتُ أماكا شقيقها أوبيورا، عند انضمامه إليها والأب نوكوو. فى الوقت نفسه خرجت العمه أفيوما ترتدى تنورة وبلوزة زرقاوين استعداداً للذهاب إلى السوق مع أوبيورا الذى قالت عنه إنه فى مسائل الجمع والطرح يفوق البائع الذى يستعين بالآلة الحاسبة.

- كامبيلى.. أريدك أن تساعدنى فى إعداد الخضراوات حتى أبدأ فى عمل الحساء فور عودتى.

- إعداد الخضراوات؟

- نعم.. ألا تعرفين كيف تجهزين الخضراوات؟

- لا يا عمتى.

- أماكا ستعدها إذن.

اندفعتُ أماكا قائلة:

- لماذا؟.. لأن الأثرياء لا يجهزون الخضراوات فى

بيوتهم؟.. ألا تشارك فى تناول حساء الخضراوات؟

بدتُ عينا العمه أفيوما متحجرتين.. لم تكن تنظر إلى أماكا.. كانت تنظر نحوى.

- كامبيلى.. أليس لك لسان؟.. أجيبى عليها!

تابعتُ عيناى سقوط زهرة سوسن إفريقية ذابلة من غصنها فى الحديقة، وزهرات أخرى تحركها

نسمات الضحى محدثة صوت حفيف خافت.. أخيراً
قلت:

- ليس من الضروري أن تتحدثى بصوت عال،
أماكا.. نعم، أنا لا أعرف كيف أعد الخضراوات، لكن
يمكنك أن ترينى كيف تعدينها.

لم أعرف من أين جاءتى الكلمات الهادئة، ولم أكن
أريد النظر إلى وجه أماكا العابس، ولم أرغب كذلك
فى إثارتها حتى لا توجه لى أى كلام آخر. خطر على
ذهنى أننى أتخيل سماع صوت ضحك متقطع، لكن
عندما نظرتُ إلى أماكا تأكدتُ أنها كانت تضحك.

- إذن.. هذا أعلى ما فى صوتك، كامبيلى

بينما كانت ترينى كيف أجهز الخضراوات، عادت
العمة أفيوما وجلست على المقعد المنخفض تهوى
بجريدة فى يدها وقد بدت آثار العرق فى خطوط
متوازية مع خطوط بشرتها الداكنة على جانبي وجهها.
أحضر أوبيورا وجاجا ما جلبته من مواد غذائية من
السوق.

- أماكا، خمنى ثمن هذه الأشياء

نظرتُ أماكا ملياً قبل أن تخمن الثمن، لكن العمة
أفيوما هزت رأسها بامتعاض لأنها أنفقت أربعين نايرا
أكثر من الرقم الذى خمنته أماكا.

- قال البائعون إنه من المتعذر نقل المواد الغذائية
لعدم وجود وقود للسيارات.

أوقف الأب أمادى سيارته أمام الشقة بعد أن عكس زجاجها الأمامى قرص الشمس. ممسكاً بيده ثوب الكاهن الفضفاض مثل عروس تمسك بأطراف ثوب الزفاف، قدم التحية للأب نوكوو قبل أن يعانق العمّة أفيوما ويصافح أيدي جاجا وأوبيورا وتشيما. عندما مددتُ يدي لمصافحته بدأتُ شفتي السفلى فى الارتجاف. احتفظَ بيدي فى يده لفترة أطول قليلاً وقال:

- كامبيلي!

سألتُ أماكا أثناء دخولها الشرفة:

- هل أنت فى طريقك إلى مكان ما يا أبى؟

- أحمل بعض الأشياء لصديقى القس القادم من "بابوانيوغينيا" .. وسيعود الأسبوع المقبل.

- بابوانيوغينيا .. أين تقع؟

أخبرنى بقصة نهر عبره بواسطة قارب صغير والتماسيح من تحته، وقال إنه لم يكن متأكداً مما حدث أولاً أهو سماعه صوت اصطكاك أسنان التماسيح أم اكتشافه وجود بلل بينظلونه.

قالت العمّة أفيوما ضاحكة وهى لاتزال تهوى جسدها بالجريدة وترشف من كأس به ماء:

- من الأفضل ألا يبعثوا بك إلى مكان كهذا

- ربما فى وقت ما من العام المقبل أذهب إلى هناك.

سأل الأب نوكوو بطريقة مفاجئة جعلتني أعتقد أنه
كان يتابع كل كلمة قيلت بالاجبو:

- ما الذى يبعث بك إلى هناك؟

- ينتمى الأب أمادى إلى مجموعة من القساوسة
التبشيريين الذين يذهبون إلى مختلف البلاد لتبشير
الناس بالمسيحية.

أوضحتُ أماكا، التى عندما تتحدث إلى الأب نوكوو
لا تدخل فى حديثها إلا القليل جداً من الكلمات
الإنجليزية مثل بقيتنا الذين نستخدم الكثير من
الكلمات الإنجليزية دون قصد.

حدّق الأب نوكوو فى وجه الأب أمادى بعينين غلب
عليهما لون البياض.

- أهكذا؟.. يذهب أبناؤنا الآن للتبشير فى أرض
الرجل الأبيض؟

- نحن نذهب إلى أرض الرجل الأبيض وأرض
الرجل الأسود يا سيدى.. أى مكان يحتاج إلى قس.

نظر الأب نوكوو بعيداً وهز رأسه قائلاً:

- حسناً يا بنى.. لكن يتعين عليك ألا تكذب عليهم
وألا تعلمهم الاستخفاف بأبائكم.

سألتُ أماكا:

- أسمعت ذلك يا أبى.. لا تكذب على تلك الأرواح
الفقيرة التى تعانى مرض الجهل.

- سيكون من الصعب ألا أفعل ذلك

تحدث الأب أمادى بالإنجليزية، وارتسمت ابتسامة على وجهه تجعدت لها زاويتا عينيه. قال أوبيورا:

- إذن، هناك صلة وثيقة بين الدين والقمع.

- أتعلم المثل الذى يقول إن الرجال العراة فى السوق ليسوا هم فقط المجانين.. وإنما هناك نوع آخر من المجانين هم الذين يتسببون كثيراً فى إزعاجك؟

ضحك أوبيورا وكذلك أماكا بتلك الطريقة المرتفعة التى تبدو أقرب إلى الاستهجان.

- تتحدث مثل قس تبشيري حقيقى يا أبى.. فعندما يتحدثك أحد تصفه بالجنون.

- أترين كيف تجلس ابنة عمك وتتابع بهدوء كل ما يجرى حولها؟.. إنها لا تهدر طاقتها فى الدخول فى جدال لا ينتهى، وأستطيع القول أنها ذات عقل راجح.

حدقتُ فيه.. رقعة دائرية مبللة بالعرق تحت إبطيه، أضفتُ اللون الداكن على رداءه الأبيض الفضفاض. استقرتُ عيناه على وجهى فنظرتُ بعيداً. عندما التقتُ عيناه بعينى داهمنى شعور بعدم الارتياح جعلنى أنسى كل ما حولى.

- كامبيلى.. أنت لم ترىدى الخروج معنا آخر مرة

- أنا.. أنا.. أنا كنت أرغب فى النوم.

- حسناً.. اليوم ستأتين معى.. أنت فقط.. سأجىء وأصطحبك معى فى طريق عودتى من

المدينة.. سنذهب إلى إستاذ كرة القدم ويمكنك اللعب
أو الاكتفاء بالمشاهدة.

- تبدو كامبيلي خائفة إلى حد الموت

شرعتُ أماكا في الضحك ونظرتُ نحوى بغير
النظرة التي اعتدتها منها.. نظرة تحمل اتهاماً لى
بأشياء لا أعلمها.. كانت نظرة مختلفة.. نظرة ناعمة
رخوة.

- لا شىء يجعلك تخافين.. ستترفهين عن نفسك
فى الإستاذ.

رمقتُ العمة أفيوما بنظرة تخلو من أى تعبير.
قطرات من العرق غطت أنفها. بدتُ سعيدة جداً وفى
سلام. تعجبتُ كيف يفمر المرء مثل هذا الشعور بينما
يحتدم بداخلى الخوف بالأمل.

على إثر مغادرة الأب أمدى، قالت العمة أفيوما:

- اذهبى وأعدى نفسك للخروج ولا تجعليه ينتظر
عندما يعود.. يفضل أن ترتدى بنطلوناً قصيراً لأن
الطقس سيصبح حاراً أكثر قبل غياب الشمس، ولأن
الإستاذ بلا أسقف.

تمتت أماكا:

- لأنهم أمضوا عشر سنوات فى بناء ذلك الاستاد
وذهبت الأموال فى الجيوب

- ليس لدى بنطلون قصير يا عمى.

لم تسأل العمه أفيوما عن السبب، ربما لأنها تعرفه، وطلبتُ من أماكا أن تقرضنى واحداً. على عكس ما توقعت لم تسخر منى أماكا وأعطتنى بنطلوناً قصيراً وقميص تى شيرت أرتديهما، دون أن أقف طويلاً أمام المرآة، كما تفعل أماكا، خشية إطالة نظرة اتهام فى عينيها، والخيلاء من الآثام.

بعد لحظات سمعت صوت السيارة تويوتا أمام الشقة. أخذتُ أحمر شفاه أماكا من فوق التسريحة ووضعتُ منه على شفتى. بدا غريباً وليس كما كان على وجه أماكا. أزلته فبدت شفتاى شاحبتين. ووضعتُ أحمر الشفاه على شفتى مرة ثانية، وارتعشت يداى عندما صاحت العمه أفيوما:

- كامبيلى.. الأب أمادى يطلق نفير سيارته بالخارج.

أزلتُ أحمر الشفاه بعيداً بظهر يدي وغادرتُ الحجرة. سيارة الأب أمادى لها نفس رائحته. بدا لى بنطلونه أقصر مما كان عليه فى آخر مرة رأيتُه فيها، عندما كان يمتد إلى أسفل ركبتيه، لكنه الآن ارتفع إلى أعلى، مظهرأً فخذاً قوياً يتناثر عليه شعر داكن. المسافة التى تفصلنا صغيرة جداً. دائماً كنت فى وضع الندام وأنا قريبة من القس فى لحظات الاعتراف. لكن من الصعب الشعور بالندم الآن ورائحة كولونيا الأب أمادى النفاذة تصل رئتى. شعرتُ بالذنب لعدم استطاعتى التركيز فى آثامى، ولعدم استطاعتى

التفكير فى أى شىء ما عدا كم هو قريب منى. بغير
تفكير قلت:

- أنا أنام فى الحجرة نفسها التى ينام فيها الأب
نوكوو.. إنه وثى.

استدار نحوى قليلاً، وقبل أن ينظر بعيداً، سألتُ
نفسى ما إذا كانت التماعه عينيه تشى بالمرح.

- لماذا تقولين ذلك؟

حدقتُ فيه وشعرتُ أنه فقد ما كان يتعين عليه
قوله.

- لا أعلم.

- والدك أخبرك بذلك

نظرتُ بعيداً عبر النافذة.. علىّ ألا أورط بابا طالما
لم يوافقنى الأب أمادى.

- أخبرنى جاجا القليل عن والدك أول أمس،
كامبيلى.

قضمتُ شفتى السفلى. ماذا قال له جاجا؟ ماذا
جرى لجاجا؟ لم يقل الأب أمادى شيئاً آخر حتى
وصولنا إلى الإستاد. بسرعة ألقى نظرة عجلي على
مجموعة من الناس يركضون فى طرق مخصصة
للكرض. لم يجد من يبحث عنهم، فجلسنا على أحد
مدرجين لهما سقف فى ملعب كرة القدم.

- لماذا لا نلعب حتى يأتى الشباب؟

- لكننى أجهل لعبة كرة القدم

- وكرة اليد؟

- لا

- وماذا عن الكرة الطائرة؟

نظرتُ إليه ثم إلى البعيد . سألتُ نفسى ما إذا فكرتُ أماكا فى رسمه من قبل، وما إذا كان فى استطاعتها رسم بشرته الناعمة كالصلصال وحاجبيه المستقيمين اللذين يرتفعان قليلاً عندما يرمقنى .

- لعبتُ الكرة الطائرة مرة واحدة مع فصلى لكننى توقفت عن اللعب عندما لم يختارنى أحد فى فريقه لافتقاده المهاره .

أطلتُ النظر فى جزء مهمل وغير مستخدم من مدرجات الملعب حيث بدأ العشب يجد مكاناً له فى شقوق الحوائط الإسمنتية . نهض الأب أمادى، وسألنى:

- أتحبين المسيح .

فى ارتباك، قلت:

- نعم .. نعم .. أحب المسيح

- أرينى إذن .. حاولى أن تمسكى بى .. أرينى أنك

تحبين المسيح .

لم يكن قد أكمل حديثه عندما اندفع راجضاً . لم أضع وقتاً فى التفكير ووقفتُ وركضتُ خلفه . استشعرتُ تيار هواء يلفح وجهى وعينى وجانبى أذنى .

لم أستطع مجاراته فى الركض ولم أمسك به إلا
عندما توقف بالقرب من مرمى كرة القدم، وعندئذ
قال مماًزحاً:

- هكذا، أنت لا تحبين المسيح.

قلت لاهثة:

- أنت تركض بسرعة كبيرة.

- سأدعك تستريحين ثم تأخذين فرصة أخرى
لترينى أنك تحبين الرب.

ركضنا أربع مرات ولم أتمكن من الإمساك به.
ارتمينا فى ثقاقل على العشب الأخضر، وأخيراً دفع
بزجاجة ماء نحوى.

- لديك ساقان جيدتان للركض. يجب أن تتمرنى
أكثر

نظرتُ بعيداً. لم يسبق أن سمعت أى شىء مثل
ذلك. بدا كلامه حميمياً جداً بما يعنى أنه ينظر إلى
ساقى وإلى أجزاء بجسدى.

- ألا تعرفين كيف تبسمين؟

- ماذا؟

اقترب منى وشد بلطف جانب شفتى.

- ابتسمى.

أردت أن أبتسم لكننى لم أستطع. أصاب التجمد
شفتى ووجنتى. سال العرق على جانب أنفى. كنت
متأكدة أنه يراقبنى.

- ما هذه البقعة الحمراء على يدك؟
نظرتُ إلى ظهر يدي وإلى أحمر الشفاه الذى أزلته
بيدى ومازال ملتصقاً بها. بدوت كحمقاء.

- إنه بقعة.

- أحمر شفاه؟

أومأتُ برأسى.

- أتستعملين أحمر الشفاه؟.. هل سبق لك
استعماله؟

- لا

شعرتُ أن ابتسامة بدأت تزحف على وجهى
وتحرك شفتى ووجنتى.. ابتسامة محرجة ومرحة.
إذن علم أننى حاولت وضع أحمر الشفاه للمرة الأولى
اليوم. ابتسمتُ. ابتسمتُ ثانية.

- مساء الخير يا أبى.

ثمانية شبان - هابطين من أعلى المدرج - ألقوا
عليه بالتحية فى صوت واحد. جميعهم فى نفس
عمرى تقريباً، يرتدون بنطلونات قصيرة وقمصاناً
تعرضت لغسيل كثير تسببت فى التحول الذى طرأ
على ألوانها الأساسية. على سيقانهم جميعاً آثار
متشابهة للدغات بعوض. قبل الانضمام إليهم بملعب
كرة القدم، قام الأب أمادى بخلع قميصه ووضعته على
ركبتى. نصف جسده الأعلى صار عارياً. بدا عريض

الكتفين. لم أنظر إلى قميصه في حجري بينما يدي تمر عليه ببطء. عيناى ترنو إلى ملعب كرة القدم وإلى ساقى الأب أمادى الراكضتين، وإلى الأبيض والأسود فى كرة القدم المستديرة التى تتطاير هنا وهناك، وإلى السيقان الكثيرة للشباب التى بدت وكأنها ساق واحدة. لمستُ يدي ما بين فخذى وتحركت بتردد. أطلق صفارة وتوجه إلى سيارته لإحضار البرتقال المقشر والماء. جلسوا جميعاً على العشب. لاحظتُ الأب أمادى يضحك بصوت عال ملقياً برأسه إلى الوراء مسنداً مرفقيه على الأرض المعشوشبة.

أمسكتُ بقميصه وأنا أتابع اللعب. بدأتُ ربح باردة تهب وتزيد من برودة العرق بجسدى، فى اللحظة التى أطلق فيها الأب أمادى صوت الصفارة كإشارة لانتهاى اللعب. تجمع الشباب حوله ورددوا معه الصلوات ورعوسهم محنية. تردد صوت "وداعاً يا أبى" بينما هو فى طريقه نحوى. شئ من ثقة فى مشيته التى تشبه مشية ديك مسؤل عن كل الدجاجات فى الجوار.

معاً فى السيارة، ضغطتُ مفتاح تشغيل جهاز الكاسيت لينساب صوت كورال يغنى أغنيات دينية. تعرفتُ على الأغنية الأولى التى تغنيها ماما عند إحضارنا جاجا وأنا بطاقة تقدير درجات الامتحان. غنى الأب أمادى مع صوت الكورال بصوت أكثر نعومة من صوت قائد الكورال فى الشريط المسجل. بانتهاء الأغنية خفّض صوته قليلاً.

- هل استمتعت بالمباراة؟

- نعم.

- أرى المسيح فى وجوههم.. فى وجوه الشبان

نظرتُ إليه. لم أستطع إجراء مصالحة بين المسيح
الأشقر المعلق على الصليب المصقول فى سار. نينيز
وبين سيقان أولئك الشبان التى عليها أثر لدغات
البعوض.

- إنهم يعيشون فى أجوو أوبا، ومعظمهم لن
يذهبوا إلى المدرسة بعد الآن، لأن عائلاتهم لا يمتنها
تحمل نفقاتها.. إكويم صاحب القميص الأحمر،
أتذكرينه؟

أومأتُ برأسى برغم عدم تذكرى له لأن كل
القمصان كانت تبدو متشابهة وبلا لون محدد.

- والده سائق بالجامعة هنا، لكنهم أنهوا عمله
ضمن خطة الجامعة لتخفيض عدد العمالة، ولذلك
كان يتعين على إكويم ألا يكمل دراسته فى مدرسة
نسوكا العالية وأن يعمل كمحصل تذاكر فى حافلة.
هؤلاء الشبان مصدر إلهام لى.

توقف عن الحديث ليغنى مع الكورال. هزرتُ
رأسى مع إيقاع اللحن. لم يكن بحاجة إلى الموسيقى
لعذوبة صوته. غمرنى شعور بالألفة لم أشعر به منذ
فترة طويلة. تابع الأب أمادى غناءه لبعض الوقت ثم
خفّض صوت الشريط ثانية.

- لم تسألينى سؤالاً واحداً

- لا أريد أن أسأل.

- المفترض أن تكونى قد تعلمت فن طرح الأسئلة من أماكاً.. لماذا ينمو جذع الشجرة إلى أعلى وجذرها يمكث فى باطن الأرض؟.. لماذا توجد السماء؟.. ما الحياة؟.. مجرد القول "لماذا؟"

ضحكتُ. بدا ضحكى غريباً. شعرتُ وكأننى أستمع إلى ضحك مسجل لشخص غريب. لم أكن متأكدة ما إذا كنت قد استمعت من قبل إلى نفسى وأنا أضحك.

- لماذا أصبحت قساً؟

سألتُ من غير تفكير. تمنيت لو لم أكن قد سألت حتى لا تتجمع فقايق الهواء فى حلقى.

- أردت أن أصبح طبيباً فى البداية، ثم ذهبتُ إلى الكنيسة مرة وسمعت القس يتحدث فتغيرتُ تماماً.

- هكذا.

-- كنت أمزح.

القي نحوى نظرة سريعة وبدا مندهشاً لأننى لم أدرك أنها مزحة.

- الأمر أعقد من ذلك، كامبيلى. كثير من الأسئلة كانت تكبر بداخلى ووجدتُ فى الكهانة أقرب الإجابات إلى هذه الأسئلة.

حدثتُ نفسى عن طبيعة هذه الأسئلة، وعماً إذا كان الأب بينيديكت أيضاً كانت لديه هذه الأسئلة.

- تأخرتُ على اجتماع مجلس الكنيسة.. سأوصلك
وأغادر مسرعاً.

- أنا آسفة

- لماذا؟.. لقد أمضيتُ وقتاً ممتعاً معك.. يتعين
عليك أن تأتي معي إلى الإستاد مرة ثانية.. سأقيد
يديك وقدميك وأحملك إذا اضطررتُ إلى ذلك.

ضحك. أطلتُ النظر إلى لوحة أجهزة القياس
بالسيارة التي عليها ملصق المباركة مريم باللونين
الأزرق والذهبي. ألم يعلم أنني لم أرد منه أن يغادر؟..
وأنني لست بحاجة إلى أن يقنعني بأن أذهب إلى
الإستاد أو إلى أى مكان معه؟. ترجلتُ من السيارة
أمام منزل العمه أفيوما. ابتسمتُ وركضتُ وضحكتُ.
امتلاً صدرى بشيء يشبه رغاوى الاستحمام. شئ
خفيف ورقيق وله مذاق حلو على لساني كالمذاق الحلو
لثمرة الكاجو الناضجة الصفراء اللامعة.

كانت العمه أفيوما واقفة خلف الجد نوكوو
بالشرفة تربت على كتفيه. حبيتهما.

- كامبيلي!

بدا متعباً وعيناه غائمتان. سألتُ العمه أفيوما
مبتسمة:

- هل استمتعت بالوقت؟

- نعم يا عمتي.

- والدك اتصل هاتفياً.

قالت بالإنجليزية. حدّقتُ فيها مدقّمة في الشامة
السوداء أعلى شفتها، منتظرة ضحكتها المجلجلة حتى
أعرف أنها مزحة. بابا لم يتصل أبداً في فترة بعد
الظهر ودائماً يجرى اتصالاته قبل خروجه إلى العمل.
إذن، لماذا اتصل ثانية؟ قالت بالإنجليزية أيضاً حتى
لا يفهم الجد نوكوو:

- شخص ما من القرية - من المؤكد أنه أحد أفراد
عائلتنا الممتدة - أخبره أنني أحضرت الجد نوكوو من
القرية إلى منزلي. قال والدك انه كان من المفترض
إخباره أن جدك هنا في نسوكا، وتحدث طويلاً عن
وجود وثى في المنزل نفسه الذي يتواجد فيه أطفاله.

هزت العمة أفيوما رأسها بما يعنى أن بابا غريب
الأطوار. لكن الأمر ليس كما تتصور، لأنه سيكون
غاضباً جداً لأننا جاجا وأنا لم نذكر له وجود الأب
نوكوو معنا في نسوكا أثناء حديثه معنا هاتفياً.

- أبلغنى أنه سيأتى هنا غداً ليعيدكما إلى
منزلكما، لكننى هدأته وأخبرته أنني سأقوم بذلك بدلاً
منه بعد غد وأعتقد أنه أبدى موافقته. أتمنى أن أجد
وقوداً بالسيارة.

استدرتُ ذاهبةً إلى الحجرة وبنى رغبة في النعاس.

- كامبيلى.. لقد أخرج رئيس تحرير جريدته من
السجن.

صافحتنى أماكا التي نجحت بحركتها المستمرة في
ذهاب النوم من عيني. كنت أتأرجح في المنطقة

الفاصلة بين اليقظة والنوم متخيلة قدوم بابا ليصبحنا بنفسه إلى منزلنا، ومتخيلة الغضب في عينيه الحمراوين وتدافع كلمات بالاجبو من فمه.

- لايزال الأب نوكوو نائماً وسيتضايق من الدواء الذى تسبب في نومه طويلاً وحرمه من الاستيقاظ مبكراً لرؤية شروق الشمس.. بابا نوكوو.. بابا نوكوو.

حركته ببطء أكثر من مرة دون أن يصدر عنه استجابة.. صاحت أماكا في فزع "ماما، ماما"..
حركت يداً محمومة فوق صدره باحثة عن نبض قلبه..
"ماما". أسرعت العمة أفيوما إلى الحجره دون أن تحكم رباط دثارها حول قميص نومها فأمكننى رؤية هبوط ثديها وتدليهما وبطنها المتضخمة من خلال نسيج القماش الشفاف. جثت على ركبتيها وتشبثت بجسد الأب نوكوو وهزته "بابا.. بابا". كان صوتها عالياً ويائساً وكأن علوه سيجمعه يسمع أفضل ويستجيب. توقفت عن الكلام وعن الإمساك برسغ يده. أسندت رأسها وأذنيها إلى صدره. كسر الصمت صياح ديك في الجوار. أمسكت أنفاسى؛ حتى لا أعوق العمة أفيوما من سماع صوت نبضات قلبه.

- غارق في نومه.. غارق في نومه.

دفنت رأسها في جسده وأماكا تجذبها بذراعيها "كفى.. ماما.. كفى". ظل جسداهما، الأب نوكوو والعمة أفيوما، يتأرجحان معاً حتى أننى فكرت للحظة أن العمة أفيوما على خطأ وأن الأب نوكوو مستغرق في نومه بالفعل.

- أبا!

تردد رجع صوتها العالى الذى بدا وكأنه قادم من السقف. كان صوتها الفاجع قوياً وعميقاً وله نغمة الصوت، التى أسمعها أحياناً فى أبا عند مرور موكب الحزانى المتفجعين أمام منزلنا، حاملين صورة الميت صائحين بأعلى أصواتهم. أطلقت العمة أفيوما صرخة عالية وهى لاتزال تتشبث بجسد الأب نوكوو. بذلت أماكا محاولات واهنة لجذبها بعيداً.

اندفع أوبيورا وجاجا إلى داخل الحجرة. جال بخاطرى أسلافنا الذين صلى الأب نوكوو من أجلهم يعودون إلى الحياة برعوسهم المتدلية من فوق عصى طويلة.

- ماذا حدث، ماما؟

سأل أوبيورا الذى التصق جانب كبير من بنطلونه المبلل بالماء بساقه.

- الأب نوكوو حى.

فى ثقة تحدث جاجا بالإنجليزية وكأن كلماته تلك ستتحول إلى حقيقة بمجرد نطقها. كان مرتدياً بنطلونه المبلل برشاش الماء ونصف جسده الأعلى عارياً. لأول مرة لاحظتُ شعر صدره الخفيف المتناثر. بدأ أوبيورا يلتقط أنفاسه فى احتياج. انحنى بجسده فوق والدته وأمسك بها بقوة، وببطء رفعها وحركها بعيداً عن جسد الأب نوكوو، قائلاً بصوت أجش غريب

مهتاج "ماما.. كفى.. لقد لحق بالآخرين!". ساعدها فى النهوض وصحبها لتجلس على السرير وفى عينيها نفس النظرة الخالية من التعبير التى فى عيني أماكا الواقفة هناك تحديق إلى أسفل حيث يرقد جثمان بابا نوكوو. قال أوبيورا:

- سأحدث إلى الدكتور ندوما.

انحنى جاجا وغطى جسد الأب نوكوو بدثار، لكنه لم يغط وجهه. أردتُ أن أذهب وأمس الأب نوكوو وأمس خصلات شعره البيضاء وجلد صدره المتجدد الناعم. لكن خشية أن يشتعل غضب بابا لم أفعل. أغلقتُ عيني حتى إذا سألتنى بابا عن قيام جاجا بلمس الجسد الآثم يمكننى القول بصدق "لا". ظلتُ عيناى مغلقتين لفترة طويلة، وبدت أذناى أيضاً مغلقتين لأننى لم أشأ أن أميز ما كانت تقوله الأصوات من حولى.

عندما فتحتُ عيني أخيراً رأيت جاجا يجلس على الأرض بجانب جسد الميت، وأوبيورا يجلس على السرير مع العممة أفيوما التى كانت تقول "أيقظوا تشيما حتى نخبره ويراه قبل حضور من سيأتون لنقله. وقف جاجا وبدأ يكفكف دموعه التى سالت على خديه قبل ذهابه لإيقاظ تشيما. قال أوبيورا بعد أن أطلق حلقة سراح الصوت المختق المتقطع لبكائه:

- سأنظف المكان الذى ترقد فيه الجثة، ماما.

عرفتُ أن السبب الذى دعاه إلى عدم البكاء بصوت عال كونه أصبح رجل المنزل الذى تريده العمه أفيوما إلى جانبها.

- لا.. دعنى أقوم بذلك

نهضتُ واقفةً واحتضنت أوبيورا، وظل عناقهما لوقت غير قصير. توجهتُ إلى دورة المياه وكلمة جثة تتردد فى أذنى. الآن أصبح الأب نوكوو جثة. استعصى على فتح الباب فحاولتُ مرة أخرى لأتأكد ما إذا كان يتعذر فتحه بسبب إغلاقه من الداخل. سمعتُ بكاء ونشيج أماكا مختنقاً ومرتفع الصوت. تبكى بنفس الطريقة التى تضحك بها، ربما لأنها لم تتعلم فن البكاء الصامت الذى ليست فى حاجة إليه. أردتُ أن أستدير عائدة لأتركها مع حزنها، لكن كان يتحتم على أن أسارع بإفراغ مثانتى.. همستُ:

- أماكا، من فضلك، يتعين على استعمال دورة المياه عندما لم تستجب، أعدتُ طلبى بصوت أعلى قليلاً من الهمس دون أن أطرق الباب احتراماً لدموعها. أخيراً سمعتُ صوت قفل الباب قبل أن تفتحه. أفرغتُ مثانتى بأقصى ما أمكننى من سرعة لأننى أعرف أنها واقفة فى انتظار دخولها ثانية لتسفع دموعها خلف الباب المغلق.

* * *

حمل الرجلان اللذان قدما مع الدكتور ندوما جثمان الأب نوكوو بأيديهما. أحدهما أمسكه من تحت

إبطيه، والآخر قبض على رسفى قدميه. لم يكن فى وسعهما إحضار نقالة الموتى من المركز الطبى لأن موظفى الإدارة الطبية به كانوا مضربين عن العمل. قدّم الدكتور ندوما واجب العزاء لنا جميعاً والابتسامة لاتزال على وجهه. أراد أوبيورا أن يكون بصحبة الجثمان أثناء وضعه فى ثلاجة المشرحة. طافت برأسى كلمة "ثلاجة". كنتُ أعلم أن مكان حفظ جثمان الميت يختلف عن المكان الذى توضع فيه جثث القتلى، لذلك تخيلتُ جسد الأب نوكوو مطويماً داخل ثلاجة كالتى فى مطبخنا.

وافق أوبيورا على عدم ذهابه إلى مستودع حفظ الموتى، لكنه وقف يراقب الرجلين أثناء قيامهما بوضع الجثمان فى سيارة الإسعاف ويتأكد من أنهما لن يضعاه فوق الأرضية الصدئة.

بعد مغادرة سيارة الإسعاف وخلفها الدكتور ندوما فى سيارته، قمتُ بمساعدة العمّة أفيوما فى حمل حشية للأب نوكوو إلى الشرفة وفى تنظيفها باستعمال صابون ومادة مطهرة والفرشاة نفسها التى اعتادت أماكا أن تنظف بها حوض الاستحمام.

- أرايتُ وجه جدك نوكوو ميتاً، كامبيلي؟

سألتُ العمّة أفيوما وهى تنشر الحشية النظيفة فوق الدرابزين الحديدى لتجف. هزرتُ رأسى بما يعنى أننى لم أنظر إلى وجهه.

- كان مبتسماً.. كان مبتسماً.

نظرتُ بعيداً؛ حتى لا ترى العمّة أفيوما الدموع
تسيل على وجهي؛ وحتى لا أرى الدموع في وجهها.
صمتُ ثقيلٌ ساد أرجاء الشقة. حتى تشيما انزوى في
ركن بالحجرة وانشغل برسم أشكال في هدوء. قامت
العمّة أفيوما بإعداد طعام سريع لنا من شرائح
البطاطا المسلوقة والفلفل الأحمر وزيت النخيل. بعد
ساعات خرجت أماكا من دورة المياه بعينين منتفختين
وصوت أجش.

- اذهبى وتناولى شرائح البطاطا المسلوقة يا
حبيبتي.

- لم أنته من رسمه بعد.. قال إننا سننهيها اليوم

- اذهبى وتناولى شيئاً يا حبيبتي.

- لو لم يكن المركز الطبى فى إضراب، لكان الآن
حياً.

- هذا أجله.. أتسمعيني؟.. إنه أجله.

حدقتُ أماكا فى والدتها ثم حولتُ نظرها بعيداً.
أردتُ أن أعانقها وأعزيها وأمسخ دموعها. أردتُ أن
أبكى بصوت عالٍ أمامها ومعها، لكن خشيتُ أن أزيد
من حجم غضبها البادى عليها إلى جانب أنه ليس لى
الحق فى أن أعزيها فى الأب نوكوو، لأنه كان جدها
هى أكثر من كونه جداً لى. دهنتُ شعره بينما ظللتُ
أنا بعيدة عنه. وضع جاجا ذراعه حولها وقادها إلى
المطبخ. تحررتُ من ذراعه وسارت بجواره وكأنها
تبرهن أنها ليست فى حاجة إلى مساعدة. أطلتُ

النظر إليهما وتمنيتُ لو أن ما فعله جاجا قد فعلته أنا بدلاً منه.

- هناك شخص أوقف سيارته أمامنا.

انفجر أوبيورا في البكاء للدرجة التي جعلته يخلع نظارته. الآن يتعين عليه أن يعيدها إلى مكانها ويضغط بأصبعه على إطارها من أعلى ثم ينهض لكي ينظر إلى الخارج.

- من هذا؟

سألتُ العمّة أفيوما في صوت واهن ودون اهتمام كبير.

- العم ايوجين

تجمدتُ في مقعدى. وقف بالباب ينظر إلى أوبيورا. ربما لو لم يقل أوبيورا "العم ايوجين" ما كنت عرفت أنه بابا، ذلك الغريب طويل القامة في حلته الأنيقة البيضاء. قلت بطريقة آلية:

- مساء الخير، بابا

- كامبيلي.. كيف حالك؟.. أين جاجا؟

خرج جاجا من المطبخ ووقف يحدقُ في وجه بابا.

- مساء الخير، بابا.

بصوت مرهق وبدون اهتمام قالت العمّة أفيوما:

- ايوجين.. طلبتُ منك ألا تأتم.. لقد أخبرتك أنني سأعيدهما غداً.

- لا يمكن أن أدعهما يمكثان يوماً آخر

قال بابا ذلك وعيناه تنظران فى فضاء حجرة المعيشة وفى اتجاه المطبخ ثم المدخل وكأنه فى انتظار ظهور الأب نوكوو كوثن تغطيه سحابة دخان. أمسك أوبيورا بيد تشيما وتوجها إلى الشرفة.

- ايوجين.. والدنا غارق فى نومه.

حدّق بابا فيها لبعض الوقت وقد اتسعت عيناه الضيقتان من الدهشة.

- متى؟

- أثناء نومه هذا الصباح.. لقد أخذوه إلى مستودع الموتى منذ ساعات فقط.

جلس بابا وببطء أمال رأسه إلى أسفل وأسندهما إلى يديه. حدثت نفسى ما إذا كان يبكى، وما إذا كان من المقبول منى أن أبكى أيضاً، لكنه عندما رفع عينيه إلى أعلى لم أجد آثار الدموع فى عينيه.

- هل أرسلت فى طلب قس ليمنحه البركة؟

تجاهلته العمّة أفيوما وتابعت النظر إلى يديها فوق حجرها.

- أفيوما.. هل أرسلت فى طلب قس؟

- أهذا كل ما يمكنك قوله، ايوجين؟.. أليس هناك شيء آخر تقوله؟.. والدنا مات!.. سوف لن تساعدنى فى دفن والدنا؟

- لا يمكننى المشاركة فى جنازة وثنى.. يمكننا مناقشة أن نرسل فى طلب قس وأن نجهز لإقامة جنازة كاثوليكية.

نهضت العمة أفيوما وبدأت فى الصياح بصوت لاوتيرة واحدة له.

- يمكننى أن أعرض قبر زوجى الميت للبيع ولا أقبل لوالدى جنازة كاثوليكي.. أتسمعى؟.. قلت أقبل بيع قبر افيديورا ولا أقبل جنازة كاثوليكية لوالدى.. أكان والدنا كاثوليكيًا؟.. أنا أسألك ايوجين.. أكان كاثوليكيًا؟

أشارت العمة أفيوما بأصابعها فى اتجاه بابا بازدرء ولا مبالاة وكأنها تلقى لعنتها عليه. تدحرجت دموعها غزيرة على وجنتيها واختنق صوتها وسارعت إلى حجرتها. قال بابا واقفاً:

- كامبيللى، جاجا.

عانقنا معاً بقوة وقبل أعلى رأسينا قبل أن يقول:

- اذهبا وجهزا حقيبتيكما.

كانت معظم ملابسى جاهزة فى الحقيبة. جلستُ أحرقُ فى النافذة والعارضه الخشبية المفقودة والجزء الممزق فى السلك المانع للبعوض، محدثة نفسى عما قد يحدث إذا شققتُ طريقى عبر الفتحة الضيقة، وقفزتُ إلى الجراج. دخلتُ العمة أفيوما الحجره فى صمت ومدتُ يدها نحوى وبها جدولى المطونى إلى أربعة أجزاء:

- أخبرى الأب أمادى أننى غادرت.. أننا غادرنا..
وأنا نقول له وداعاً.

كانت قد مسحت الدموع من وجهها وبدت كما
كانت ثابتة، شجاعة، صبورة، لا تعرف الخوف.
- سأفعل.

احتضنت يداها يدي وسرنا إلى الباب الأمامى.
كانت الريح الشديدة والمتربة فى الفناء الأمامى تحدث
اضطراباً فى أشجار النبات بالحديقة فتحنى لها
الأغصان، وتغطى السيارات الواقفة بمزيد من الغبار.
حمل أوبيورا حقيبتينا إلى السيارة المرسيديس التى
ينتظر كيفن أمام حقيبتها الخلفية المفتوحة. انفجر
تشيما فى البكاء. كنت أعرف أنه لا يرغب فى مغادرة
جاجا.

- تشيما حبيبي.. سترى جاجا ثانية قريباً جداً..
سيأتيان إلينا مرة ثانية.

عانقته العمة أفيوما بقوة. لم يقل بابا "نعم" ليؤكد
قولها، وبدلاً من ذلك قال "يكفى هنا"، وعانق تشيما،
ودس فى يد العمة أفيوما لفافة أوراق مالية لتشتري
هدية لتشيما الذى ابتسم. قالت أماكا - وعيناها
تطرفان وتختلجان بسرعة - "وداعاً". لم أتأكد إذا
كان ذلك بسبب الريح الترابية أو لأنها تحاول أن تمنع
انسكاب دموعها. بدا الغبار الذى يغطى أهداب عينيها
وكأنه مستحضر لصبغ الحواجب والأهداب بلون
الكاكاو. دست أماكا فى يدي شيئاً ملفوفاً فى ورقة

سلوفان أسود، ثم استدارتُ بسرعة عائدة إلى حجرتها. كانت لوحة الرسم غير المنتهية للأب نوكوو. خبأتها في حقيبتي وسارعتُ بركوب السيارة.

* * *

عند وصول السيارة إلى مجمعنا السكني، كانت ماما بالباب. وجهها منتفخ وظلال سوداء أرجوانية حول عينيها اليمنى. مبتسمة قالت "مرحباً.. مرحباً" وعانقتنا ودفنتُ رأسها في عنق جاجا ثم في عنقي.

- طال غيابكما كثيراً جداً.

- كانت أفيوما منشغلة برعاية وثني.

قال بابا - وهو يسكب في جوفه كأس ماء من زجاجة وضعتها سيسى فوق الطاولة:

- حتى أنها لم تأخذهما إلى أوكبي.

قال جاجا:

- مات الأب نوكوو.

في حركة مفاجئة وضعت ماما يدها على صدرها.

- متى؟

- هذا الصباح.. مات أثناء نومه.

لَفَّتْ ذراعيها حول جسدها وقالت:

- هكذا إذن.. ذهب ليستريح.

قال بابا وهو يعيد كأس الماء إلى الطاولة:

- ذهب ليواجه الحساب.. وأفيوما افتقدت
الإدراك السليم ولم ترسل فى طلب قس قبل موته..
ربما كان الرب قد هداه قبل أن يموت.

قال جاجا:

- ربما لم يرد أن يهتدى.

قالت ماما بسرعة:

- ربما هو يرقد الآن فى سلام.

نظر بابا إلى جاجا.

- ماذا قلت؟.. أهذا ما تعلمته أثناء إقامتك فى
المنزل نفسه مع وثنى؟

- لا

حدّق بابا فى وجه جاجا ثم فى وجهى، وهزّ يده
بيطء وكأن شيئاً يلزم إزالته من وجوهنا.

- اذهبا للاستحمام ثم اهبطا لتناول العشاء.

طالت صلاة بابا قبل العشاء أكثر من المعتاد. سأل
الرب أن يطهر أطفاله وأن يبعد عنهما تلك الروح التى
جعلتهما يكذبان عليه حول وجودهما فى المنزل نفسه
مع وثنى "إنه اللامبالاة والإهمال يا رب". قال وكأن
الرب لا يعلم. جال بخاطرى أثناء العشاء المكون من
الفاصوليا والأرز وقطع الدجاج أن كل قطعة دجاج فى
طبقى تقطع إلى ثلاث قطع فى منزل العمّة أفيوما.

- بابا، أيمكن أن آخذ مفتاح حجرتى، من فضلك؟

سأل جاجا وهو يضع شوكته فى الطبق. كنا فى منتصف عشائنا. أخذتُ نفساً عميقاً واحتفظتُ به. بابا دائماً يحتفظ بمفاتيح حجراتنا.

- ماذا؟

- مفتاح حجرتى.. أريده لأننى أرغب فى شىء من الخصوصية.

بدأ إنسان عين بابا يتحرك حركة سريعة داخل منطقة البياض فى عينيه.

- ماذا؟.. ما الذى تريده من الخصوصية؟.. لكى ترتكب إثماً ضد جسدك؟.. أهذا ما تريد فعله.. العادة السرية؟

حرَّك جاجا يده فاصطدمت بكأس الماء.

- أرايتِ ماذا حدث لطفلى؟.. أرايتِ كيف أن وجودهما مع وثى قد غيرهما وعلمهما الإثم؟

أنهينا عشائنا فى صمت. صعد بابا إلى أعلى وتبعه جاجا. جلستُ مع ماما فى حجرة المعيشة وأنا أفكر.. لماذا طلب جاجا المفتاح؟.. بالطبع لن يقبل بابا بإعطائه له، ويعلم جاجا بذلك، ويعلم كذلك أن بابا لن يدعنا نغلق أبوابنا. للحظة فكرتُ فيما إذا كان بابا على صواب، وفيما إذا كان وجودنا مع الأب نوكوو قد جعل جاجا آثماً وجعلنا جميعاً آثمين.

- هل شعرتِ بتغيير ما بالمنزل منذ عودتك؟

سألتُ ماما ناظرةً إلى الستائر الجديدة التي عادة ما تقوم بتغييرها كل عام قرب انتهاء الرياح الحارة الجافة المترية. في المعتاد يحضر كيفن قصاصات من أقمشة بألوان مختلفة إلى ماما لتختار منها ما تعرضه على بابا لكي يعطى قراره النهائي، وعادة ما يختار ما تفضله هي. البيج الداكن كان لون ستائر العام الماضي ولون ستائر العام قبل الماضي.

أردتُ أن أخبر ماما بالتغيير الذي شعرتُ به منذ عودتي.. تبدو حجرة معيشتنا بأرضيات - الرخام التي تقوم سيسى بتلميعها تبدو متسعة جداً وفارغة جداً.. وأسقف حجراتنا عالية جداً.. وأثاثنا تعوزه الحيوية والروح وكذلك الأرائك الجلدية الرطبة الباردة. لكن قلت:

- قمتِ بتلميع الخزانة الخشبية.

- نعم.

- متى؟

- أمس.

حدقتُ في عينيها التي بدت مفتوحة الآن.. ربما كان الورم قد أغلق عينيها تماماً بالأمس.

- كامبيلي!

بلغ سمعى صوت بابا قادماً من أعلى الدرج، فأمسكتُ أنفاسي ولم أحرك ساكناً.

- كامبيلي!

قالت ماما:

- اذهبي

على مهل صعدتُ الدرج. بابا فى دورة المياه. طرقتُ الباب المفتوح جزئياً ووقفتُ أفكر فى سبب استدعائه لى. "ادخلى". كان واقفاً بجانب حوض بانيو الاستحمام. "قفى داخل البانيو". حدقتُ فى بابا. لماذا يطلب منى هذا؟ نظرتُ حول أرضية دورة المياه ولم أجد أى أثر لعصا. ربما سيحتفظ بى داخل البانيو ثم يهبط الدرج متوجهاً إلى الخارج عن طريق المطبخ ليأتى بعصا من الأشجار فى الفناء الخلفى. عندما كنا - جاجا - وأنا صغاراً فى المدرسة الابتدائية، من السنة الثانية وحتى السنة الخامسة، كان يطلب منا إحضار العصا بأنفسنا، وكنا دائماً نختار شجرة أفرعها مجوفة حتى لا تؤلم عند نزولها على جسدنا، ثم بدأ يذهب بنفسه لكى يأتى بعصا قوية.

- قفى داخل البانيو.

تقدمتُ بساقى إلى داخل البانيو ووقفتُ أتطلعُ إليه. لم يكن يبدو عليه أنه فى سبيله إلى أن يأتى بالعصا. شعرتُ بخوف شديد تسلل إلى مثانتى، فلم أكن أعلم ما الذى سيفعله بى. إذن كان من الأيسر أن أرى العصا حتى أهينى نفسى وراحتى يدي وعضلات جسمى لها. لم يسألنى مطلقاً من قبل أن أقفُ داخل بانيو الحمام. بالقرب من قدمى بابا لمحتُ الغلاية

الخضراء التي اعتادت سيسى أن تغلى فيها الماء لعمل الشاي والتي تطلق صفيراً عند بداية غليان الماء. أمسك بابا بها وسأل بالاجبو:

- كنت تعلمين أن جدك سيأتى إلى نسوكا .. أليس كذلك؟

- نعم، بابا؟.

- هل رفعت سماعة الهاتف لتبلغينى بذلك؟

- لا .

- كنت تعلمين أنك ستنامين فى المنزل نفسه مع وثنى؟

- نعم، بابا .

- إذن شاهدت الإثم بوضوح وسرت نحوه مباشرة؟

- نعم، بابا .

فى صوت مرتجف مختنق بالانفعال مثل شخص يتحدث فى جنازة، قال:

- كامبيلى .. أنت جوهرة ثمينة .. يتعين عليك أن تكابدى من أجل الكمال .. لا يجب أن ترى الإثم وتتجهين إليه .

أنزل الغلاية قليلاً إلى أسفل بانىو الحمام وبدأ فى إمالتها تجاه قدمى .. وببطء صب الماء الساخن عليهما، وكأنه يقوم بعمل تجربة معملية ويريد معرفة ماذا سيحدث. كان يبكى والدموع تنهمر من وجهه.

كنت قد رأيتُ البخار قبل أن أرى الماء، وتابعتُ عيناى الماء يغادر الغلاية ويتدفق بحركة بطيئة فى شكل قوس على قدمى. عند التلامس كان الألم المفرط والحريق. لم أشعر بشيء للحظة ثم صرخت.

- ذلك ما تفعليه بنفسك عندما تسيرين فى اتجاه الإثم.. تحرقين قدمك.

أردتُ أن أقول "نعم بابا"، لكن عذاب ألم الحريق المفرط فى قدمى كان يتسلق جسدى بسرعة إلى رأسى وشفتى وعينى. كان أبى يمسك بى بإحدى يديه الكبيرتين ويصب الحريق بعناية على قدمى باليد الأخرى. لم أكن أعلم أن ذلك الصوت الصارخ الباكى "أنا آسفة.. أنا آسفة" هو صوتى حتى توقف نزول العذاب السائل وأدركتُ أن فمى كان يتحرك وأن الكلمات كانت لاتزال تخرج منه. وضع بابا الغلاية على الأرض ومسح عينيه. وقفتُ فى محرقة بانيو الحمام وأنا فى شدة الفزع والخوف من أن أتحرك فيتسلخ جلد قدمى إذا حاولتُ الخروج من البانيو.

وضع بابا يديه أسفل إبطى ليحملنى خارج البانيو، لكن سمعتُ ماما تقول "دعنى أقوم بذلك، من فضلك". لم أكن أعلم أن ماما أتت إلى دورة المياه. كانت الدموع تجرى على وجهها، وكان أنفها يسيل حتى أننى تساءلتُ ما إذا كانت ستستطيع أن تمسح أنفها قبل أن يصل المخاط إلى فمها وقبل أن تضطر إلى تذوقه. مزجتُ الملح بالماء البارد، ولصقتُ المزيج الرملى بلطف

على قدمي، وساعدتني في الخروج من البانيو،
وحملتني على ظهرها إلى حجرتي، وكدنا نسقط معاً
على الأرض. لم تتحدث ماما حتى وصلنا إلى
حجرتي.

- يجب أن تأخذي قرص بنادول.

أومأتُ برأسي وتركتها تعطيني البنادول بالرغم من
معرفتي بأنه لن يجدي نفعاً لقدمي.

- هل ذهبتِ إلى حجرة جاجا؟

سألتُ وهزتُ ماما رأسها، ولم تخبرني عنه شيئاً،
ولم أسأل ثانية.

- سينتفخ جلد قدمي غداً.

- ستشفى قدمك تماماً قبل افتتاح المدرسة.

بمغادرة ماما، حدقتُ في السطح الناعم المصقول
لللباب المغلق، وفكرتُ في الأبواب التي حال لونها
وتقشرتُ أسطحها الخشبية. جال بخاطري الصوت
الموسيقي للأب أمادي، وضحكة أماكا وظهور فراغات
أسنانها، وطعام العمة أفيوما المطهو على نار هادئة
فوق موقد الكيروسين، وضغط أوبيوزا قنطرة إطار
نظارتها، وانزواء تشيما في ركن بالأريكة واستسلامه
السريع للنوم.

بخطوات عرجاء نهضتُ وتوجهتُ نحو حقيبتي
وجئتُ بلوحة رسم الأب نوكوو التي تصوره مستلقياً في

استرخاء يلف ذراعيه ويمد ساقيه أمامه، والتي
سيعرف بابا بوجودها في منزله على أية حال. بمجرد
أن عدتُ وأنا أعرج إلى سريري فتح بابا الباب. أهو
يعلم؟. غيرتُ من وضعي بالسرير حتى يمكنني إخفاء
اللوحه. بحثتُ في عينيه لأعرف ماذا عرف وكيف
عرف. إنه الخوف الذي اعتدته في كل وقت. لكنه
خوف ليس كأى خوف عرفته من قبل.

- أى شىء أعمله لك فأنا أعمله من أجلك أنت.
أتعلمين ذلك؟

- نعم، بابا.

مازلت غير متأكدة من أنه يعلم بأمر اللوحه. جلس
على سريري وأمسك بيدي.

- مرة واحدة ارتكبتُ إثماً ضد جسدي، واعترفتُ
لوالدي الروحي الذي أقمْتُ معه فترة بكنيسة سان
جريجورى، فطلب منى أن أغلى ماءً لعمل الشاي، وقام
بصب الماء المغلى في إناء ثم قام بإدخال يدي فيه.

أثناء تحديقه في عيني، لم أكن أتخيل أنه ارتكب
أى إثم أو أنه باستطاعته ارتكاب أى إثم.

- ولم أرتكب أى إثم ضد جسدي مرة ثانية.. فعل
والدي الروحي ذلك من أجل صالحى أنا.

بعد مغادرته لم أفكر في يده داخل إناء الماء المغلى
أو في حريق جلده أو في خطوط الألم بوجهه.. بدلاً
من ذلك كنت أفكر في لوحه الأب نوكوو التي بحوزتي.

لم أجد فرصة لأخبر جاجا عن اللوحة حتى اليوم التالي، السبت، عندما جاء إلى حجرتي خلال وقت المذاكرة يرتدى جورباً سميكاً ويجر قدمه الواحدة بعد الأخرى بحذر شديد مثلما أفعل. لم نتحدث عن قدمي كليناً. بعد أن تحسس اللوحة بأصبعه، قال إن لديه شيئاً يريدني أن أراه. هبطنا الدرج وتوجهنا إلى المطبخ. شيء ملفوف بورقة سلوفان سوداء أيضاً قام بإخفائه من قبل داخل الثلاجة تحت زجاجات عصير الفانتا. عندما شاهد نظرتي المحيرة، قال إنها مجرد سيقان نبات الكركديه الأرجواني، وأنه سيعطيها للبيستاني، وأن العمة أفيوما أخبرته أن سيقان الكركديه تتجذر في الأرض وتنمو إذا رويت بالماء بانتظام، ولا تحب الكثير من الماء ولا تحب أيضاً الجفاف.

التمعتُ عينا جاجا أثناء حديثه عن نبات الكركديه وإمساكه بسيقانه التي عند لمسى لها وجدتها باردة وندية. بسرعة أعادها إلى مكانها بالثلاجة عند سماعنا صوت أقدام بابا.

* * *

انطلقتُ رائحةٌ ثريد البطاطا في فضاء المنزل حتى قبل أن نجلس إلى طاولة الطعام المكون من قطع سمك متبلة بمرق أصفر اللون مع مكعبات بطاطا وسلطة خضراء. وبعد أداء الصلاة، وبينما كانت ماما تضع أطباق الطعام أمامنا، قال بابا:

- جنازات أولئك الوثنيين مكلفة وغالية جداً. بعض القائمين بممارسة الطقس الجنائزى يطلبون بقرة، ويطلب الطبيب المشعوذ معزة للوثن الإله، ثم بقرة أخرى توزع على القرية. الغريب أنه لا أحد يسأل أبداً ما إذا كانت الأوثان الآلهة تأكل لحم الحيوانات، وبدلاً من ذلك يتقاسم الرجال الجشعون لحومها فيما بينهم. الوثنيون يعدون موت المرء مبرراً لأن يقيموا عيداً دينياً.

تعجبتُ لماذا يقول بابا كل هذا، وما الذى دعاه إلى ذلك. ظللنا جميعاً صامتين أثناء قيام ماما بتقديم الطعام.

- أرسلتُ إلى أفيوما كل ما أحتاجته لإقامة الجنازة.

- شكراً للرب.

قالت ماما، وكررنا جاجا وأنا قولها.

أنت سيسى قبل أن ننهي غداءنا، لكى تخبر بابا أن إد كوكر بالبوابة بصحبة رجل آخر، وأن أدامو طلب منهما الانتظار. دائماً يفعل أدامو هذا عند قدوم زائرين فى أوقات الطعام فى نهاية الأسبوع. توقعتُ من بابا أن يطلب منهم الانتظار فى باحة المنزل حتى نفرغ من طعامنا، لكنه أخبر سيسى أن يفتح لهم أدامو الباب الأمامى. أدى صلاة ما بعد الطعام بينما فى أطباقنا بقية من طعام، ثم طلب منا أن نكمل طعامنا وأنه سيعود سريعاً.

جلس الضيوف فى حجرة المعيشة. لم يكن فى استطاعتى رؤيتهم من طاولة الغداء. لكن خلال تناولى الطعام حاولتُ جاهدة فهم ما يقولون مثل جاجا الذى كان يصيح سمعه. رأيتُ بابا يحنى رأسه فى استخفاف ويثبّت عينيه فى الفضاء الشاغر أمامه على نحو اعتاد عليه. كانوا يتحدثون بصوت خافت، ولكن من السهل تمييز اسم يتردد كثيراً "نوانكىتى أوجيتشى"، خاصة عندما يتحدث إد كوكر لأنه لم يكن يخفض صوته بنفس درجة خفوت صوت بابا والرجل الآخر.

كان إد كوكر يقول إن مساعد رئيس الدولة استدعاه ليخبره أن بج أوجا رئيس الدولة يرغب فى منحه مقابلة حصرية.

- لكنهم أرادوا منى ألا أنشر قصة نوانكىتى أوجيتشى.. لك أن تتصور أن الرجل الأحمق قال إنهم يعلمون أن بعض الناس ممن لا فائدة منهم قد زودونى بقصص أخطط لاستخدامها فى مقالى، وأن هذه القصص كاذبة

لم أسمع جيداً مقاطعة بابا بصوت خافت، لكن سمعتُ ما أضافه الرجل الآخر عن أن الناس الأقوياء فى أبوجا لا يريدون نشر مثل هذه القصة الآن إبان اجتماع دول الكومنولث.

- أتعلم ماذا يعنى هذا؟.. يعنى أن أصدق مصادرى.. لماذا لم يبد اهتماماً بالأمر عندما نشرتُ آخر تقرير عنه؟.. لماذا يهتمون الآن؟

كنت أعلم أية قصة يشير إليها إد كوكر.. إنها القصة التي نشرت في صحيفة ذي ستاندرد قبل ستة أسابيع، في التوقيت نفسه تقريباً الذي اختفى فيه نوانكيتي أوجيتشي أول مرة بدون أن يترك أى أثر. تذكرتُ علامة الاستفهام السوداء الكبيرة التي تلت العنوان "أين نوانكيتي؟" .. وتذكرتُ أيضاً ذلك المقال الممتلئ بعبارات قلقة على السنة أفراد عائلته وزملائه، والمختلف تماماً عن أول تحقيق قرأته عنه في ذي ستاندرد بعنوان "قديس بيننا"، وكان يتركز على نشاطه السياسى وعلى قيادته تظاهرات تطالب بالديمقراطية امتلاً بها الإستاذ الرياضى فى سورولير.

قال الضيف الآخر:

- أقول للسيد إد إنه يتعين عليه أن ينتظر.. يجرى المقابلة مع بچ أوجا ثم ينشر قصة نوانكيتي أوجيتشي فى وقت لاحق

- لا.. أبداً.. إنهم لا يريدون أن يتحول نوانكيتي أوجيتشي إلى قضية كبرى الآن.. ببساطة، أنت تعرف ماذا يعنى هذا.. يعنى أن بچ أوجا يحاول أن يرشيني بإجراء مقابلة معى!.

قاطعها بابا، لكننى لم أستطع سماع الكثير مما قاله بسبب خفوت صوته ومحاولته تهدئة إد.. وما سمعته بعد ذلك كان "أطفالى يتناولون طعامهم.. هيا بنا إلى مكتبى". مروا بنا وهم فى طريقهم إلى الطابق

الأعلى. ابتسم إدا أثناء تحيته لنا، لكنها ابتسامة يغلب عليها التوتر والتكلف.. "أيمكننى القدوم وأجهز على طعامك؟" .. قال مداعباً وقام بمحاولة تمثيلية ساخرة للهجوم على طبق طعامى.

بعد الغداء، وأثناء جلوسى فى حجرتى أستذكر دروسى، حاولتُ جاهدة أن أستمع إلى ما يقوله بابا وإدا كوكر فى المكتب، لكننى لم أستطع. مرّ جاجا بضع مرات بجوار حجرة المكتب، ولكن عندما نظرت إليه، هز رأسه وكأنه يريد القول أنه لم يستطع سماع شىء عبر الباب المغلق.

رجعتُ بذاكرتى إلى ما قبل وقت العشاء فى ذلك المساء الذى قدم فيه موظفون حكوميون فى ثيابهم السوداء، ثم غادروا وهم ينتزعون بأيديهم زهرات الكركديه الأرجوانية من حديقة منزلنا.. وإلى جاجا الذى أخبرنى بعد مغادرتهم أنهم أتوا لرشوة بابا بآلاف الدولارات الأمريكية، لكنه طلب منهم مغادرة المنزل وطردهم من المنزل.

* * *

أدركتُ عند صدور العدد التالى لصحيفة ذى استاندرد أن قصة نوانكىتى أوجيتشى ستتصدر صفحتها الأولى. تضمنتُ القصة التى كُتبتُ على نحو مفصل وغاضب شهادة شخص أُشير إليه باسم "المصدر"، كشفتُ عن قيام جنود بإطلاق الرصاص

على نوانكيتى أوجيتشى فى أحراش منطقة ميناً، ثم قاموا بصب سائل حمضى على جسده لإسالة الجثة المقتولة أصلاً بنية إخفاء أى أثر له.

أثناء الوقت المخصص لجلوس الأسرة معاً، وبينما كنا - بابا وأنا - نلعب لعبة الشطرنج التى يفوز فيها دائماً، سمعنا فى الراديو أن نيجيريا قد علقت عضويتها فى رابطة دول الكومنولث بسبب أحداث القتل التى تجرى فيها، والتى جعلت كندا وهولندا يقومان باستدعاء سفيريهما احتجاجاً على هذه الأحداث. قرأ مذيع نشرة الأخبار جزءاً صغيراً من البيان الصحفى الذى أصدرته الحكومة الكندية، والذى أشاد بوطنية نوانكيتى أوجيتشى. رفع بابا بصره عن رقعة الشطرنج وقال:

- كل الشواهد كانت تدل على أن الأمور ستصل إلى ما وصلت إليه.. كنت أعرف أنها ستصل إلى هذا الحد.

بعد الانتهاء من العشاء مباشرة، حضر بعض الرجال. سمعتُ سيسى تخبر بابا أنهم من حزب الائتلاف الديمقراطى. مكثوا فى باحة المنزل مع بابا دون أن أتمكن من سماع أى شىء من حديثهم. فى اليوم التالى، حضر ضيوف أكثر، وتزايدت أعدادهم فى اليوم بعد التالى. جميعهم أخبروا بابا بأن يتوخى الحذر، وبألا يستقل سيارة العمل أثناء ذهابه وإيابه، وبألا يتوجه إلى الأماكن العامة، وبأن يتذكر جيداً

حدث انفجار قنبلة بالمطار أثناء اعتزام أحد المحامين المدافعين عن الحقوق المدنية السفر، وما حدث بالإستاد خلال اجتماع لناشطين مؤيدين للديمقراطية. كما أخبروه أيضاً أن يغلّق أبواب منزله جيداً، وألا ينسى ذلك الرجل الذى أطلق عليه النار فى حجرة نومه من قبل رجال يرتدون أقنعة سوداء.

أثناء حديثها إلينا، جاجا وأنا، بدا الخوف على وجه ماما، حتى أننى أردتُ أن أربّتُ على كتفها وأخبرها أن بابا سيظل بخير. كنتُ أعلم أنه وإد كوكر يقفان إلى جانب الحق، ومن ثم سيكونان فى خير.

- أعتقدون أن الرجال غير الأتقياء على صواب؟

سؤال يسأله بابا كل ليلة، على مائدة العشاء، خصوصاً بعد فترة يخيم فيها الصمت. أرقبُ بابا على العشاء يتجرع الكثير من الماء، فأسأل نفسى ما إذا كانت يدها ترتعشان فى الحقيقة أم أننى أتخيلهما كذلك.

لم نتحدث - جاجا وأنا - عن الكثير من الرجال الذين يأتون إلى المنزل.. فى كل مرة أهمُّ فيها بالتحدث عنهم، أجد جاجا ينظر بعيداً ويغير موضوع الحديث. المرة الوحيدة التى سمعته يتحدث فيها عن هؤلاء الرجال عندما اتصلت العمّة أفيوما هاتفياً لتستفسر ما يفعله بابا؛ لأنها سمعت عن الغضب الذى سببه نشر قصة نوانكىتى أوجيتشى بصحيفة ذى استاندارد. لم يكن بابا فى المنزل، لذلك تحدثت العمّة

أفيوما مع ماما التي أعطت سماعة الهاتف إلى جاجا،
وسمعه يقول:

- عمتي.. لن يمس أحد بابا بسوء.. يعلمون أن
لديه علاقات عديدة بالخارج.

بينما يقول جاجا للعممة أفيوما إن البستاني قد
غرس سيقان الكركديه في الحديقة وأن من المبكر جداً
معرفة ما إذا كانت ستعيش وتتمو، سألتُ نفسي: لماذا
لم يذكر جاجا لي ما يعرفه عن بابا. وعندما أمسكتُ
بدوري سماعة الهاتف، جاءني صوت العممة أفيوما
عالياً، وبعد تبادل التحية أخذتُ نفساً عميقاً وقلت:
- تحياتي للأب أمادي.

- يسأل عنكما أنت وجاجا دائماً.. انتظري
لحظة.. أماكا معك.

- كامبيلي.

بدأتُ أماكا مختلفة في الهاتف، مرحة وأقل رغبة
في التحدث بسخرية، أو ربما هكذا بدا لي.

- أنا بخير.. أشكرك على اللوحة.

- اعتقدتُ أنك ربما تريد الاحتفاظ بها.

- أشكرك

قلتُ هامسة، فلم أكن أعلم أن أماكا يمكن أن تفكر
فيّ أو حتى تفكر فيما أريد.

- أتعلمين أن تشييع جنازة الأب نوكوو الأسبوع

المقبل؟

- نعم

- سنرتدى اللون الأبيض، لأن اللون الأسود يبعث على الإحباط، خاصة درجة الأسود التي تشبه الخشب المحترق والتي يرتديها البعض فى الجنازة.. وسأقود رقصة الأحفاد.

غلب الزهو على صوتها. قلت:

- سيرقد فى سلام/

جال بخاطرى ما إذا كانت تدرك فى هذه اللحظة أننى أرغبُ مثلها فى ارتداء اللون الأبيض، وفى الانضمام إلى رقصة الأحفاد بالجنازة.

- شكراً للعم ايوجين

لم أدر ماذا أقول.. شعرتُ كأننى أقف على أرضية زلقة ويتعين علىّ أن أسير بحذر حتى لا أنزلق وأسقط.

- حقيقة كان الأب نوكوو شديد الاهتمام بأن تجرى له جنازة مناسبة.. الآن أعرف أنه سيرقد فى سلام؛ لأن العم ايوجين أعطى ماما كثيراً من المال جعلها تشتري سبع بقرات للجنازة!.. أتمنى أن تأتيا أنت وجاجا لقضاء عيد الفصح معنا، وربما عندئذ يمكننا الذهاب هذه المرة إلى أوكبى لمشاهدة ظهور السيدة المباركة، وهو ما سيجعل العم ايوجين راضياً.. كما سيتم تعميدى فى يوم عيد الفصح وأريدكما معى.

- أريد ذلك أيضاً

سرحتُ بفكرى فى يوم تعميدى العام الماضى فى كنيسة سان أجنيز، عندما اشترى بابا لى ثوباً أبيض مزركشاً ووشاحاً وجد القس صعوبة فى رفعه عن وجهى ليرسم علامة الصليب على جبهتى، قائلاً "روث، تقبلى هدية الروح القدس" .. كان بابا قد اختار لى اسم التعميد "روث".

- هل اخترتِ اسم التعميد؟

- لا .. ماما تريد التحدث إلى الخالة بياتريس.

قلت قبل أن أدع سماعة الهاتف لماما:

- تحياتى لتشيما وأوبيورا.

عدتُ أدراجى إلى حجرتى .. وبدأتُ أهدقُ فى طاولة المذاكرة وأسأل نفسى إذا كان الأب أمادى سأل عنا كما تقول العممة أفيوما .. وإذا كان الأمر كذلك، هل سأل عنا، جاجا وأنا معاً - وفى الوقت نفسه، أم سأل عنى - أنا أولاً ثم عن جاجا. عند سماعى صوت بابا قادماً من العمل، جلستُ إلى الطاولة، ونظرتُ فى كراستى، ومكثتُ أعبثُ أثناء استغراقى فى التفكير بكتابة اسم الأب أمادى مرات عديدة، ثم مزقتُ ما قمتُ بتسويده على الورق.

فى الأسابيع التالية، قمتُ بتمزيق الكثير من أوراق كراستى التى كتبتُ فيها مرة بعد مرة اسم الأب أمادى، وفى كل مرة كنتُ أكتبُ اسمه بحروف ذات أشكال مختلفة. لم أكن فى حاجة إلى كتابة اسمه على

الورق لكي أراه، لأننى كنت أرى مشيته الواثقة فى مشية البستانى، وأتبين عضلاته القوية فى عضلات كيفن، وعندما عدت إلى المدرسة تعرفتُ على ابتسامته المبتهجة فى ابتسامة الأم لوسى.

فى اليوم التالى لبدء النصف الثانى من العام الدراسى وأثناء تواجدى مع مجموعة فتيات فى ملعب الكرة الطائرة، لم ألحظ باهتمام همساتهن وضحكاتهن، ووقفتُ ويداى متشابكتان أنتظر أن تطلب إحداهن انضمامى إلى فريقها. كنت أرى فقط وجه الأب أمادى وأسمعه يقول: "لديك ساقان جيدتان للركض".

فى اليوم الذى شهد مصرع إيدكوكر، تساقطت الأمطار بغزارة.. أمطار غريبة صاخبة هطلت بشدة، وسط عصف الريح الجافة المتربة. كان إيدكوكر جالساً إلى مائدة الإفطار مع أسرته عندما تسلم طرداً بريدياً من أحد سعاة البريد. تجلس ابنته - مرتدية زى المدرسة الابتدائية، تجلس على الطرف المواجه من المائدة، وبالقرب من مقعده العالى، وقفت زوجته لتضع ملعقة معجون القمح فى فم طفلها الصغير. طاله الانفجار فى اللحظة التى شرع فيها بفتح طرد البريد . يعلم الجميع أن مصدر الطرد البريدى هو رئيس الدولة حتى لو لم تقل زوجته يواندا قبل فتح الطرد "عليه خاتم رئاسة الدولة".

توقفت السيارة بعيداً، عند عودتنا من المدرسة بسبب الأمطار الغزيرة التى كونت بحيرة صغيرة بجوار سيقان الكركديه، وتسلفت مياه داخل الحذاء

الجلدى لكلينا . بمفرده على أريكة بحجرة المعيشة،
جلس بابا يبكى وينشج . بدا صغيراً ومنكمشاً . بابا
طويل القامة، يخفض رأسه عند دخوله أبواب
الحجرات، والذي عادة ما يستخدم الترزى قماشاً أكثر
لعمل بنطلونه .. الآن يبدو صغيراً . قال:

- كان يتحتم علىّ أن أمنعه من نشر قصته .. كان
يتحتم علىّ أن أحميه وأقنعه بعدم نشر قصته .

جذبتة ماما إليها وأراحت وجهه على صدرها .

- لا .. لا تفعل ذلك

وقفنا - جاجا وأنا - ننظر إليهما . فكرتُ فى نظارة
إد كوكر وفى تحطم عدستها السميكتين الزرقاوين،
وفى انصهار إطارها الأبيض إلى مادة سائلة لزجة .
فى وقت لاحق وبعد أن أخبرتنا ماما بما حدث وكيف
حدث، قال جاجا "إنها إرادة الله، بابا" . ابتسم بابا
وربت على ظهره برقة .

رتَّبَ بابا لإقامة جنازة إد كوكر، وخصص لأرملته
يواندا وأطفاله وديعة مالية، واشترى لهم منزلاً
جديداً، ومنح العاملين بالصحيفة مكافآت كبيرة
وإجازة طويلة . وخلال الأسابيع تزايدت الكرات
السوداء المتهدلة أسفل عينيه اللتين فقدتا حيويتهما
وبريقهما .

بدأت تهاجمنى كوابيس تتناثر فيها بقايا إد كوكر
المحترقة على طاولة الإفطار، وزى ابنته المدرسى،

وداخل معجون القمح بإناء طفله الصغير، وفى طبق البيض أمامه على المائدة.. فى بعض هذه الكوابيس كنتُ أنا الابنة وكانت البقايا المحترقة لبابا.

بعد مرور أسبوع من وفاة إد كوكر، ظلت الكرات السوداء أسفل عيني بابا، وبدت حركة قدميه ويديه ثقيلة وبطيئة، وبدأ يأخذ وقتاً أطول عند الرد على من يتحدث إليه، وعند مضغ طعامه، وحتى عند بحثه عن الفقرات التى يريد قراءتها فى الكتاب المقدس.. لكنه كان يصلى أكثر مما قبل. استيقظ للذهاب إلى دورة المياه، وفى أحد الليالى وسمعتة يصيح من الشرفة وهو ينظر إلى الفناء الأمامى دون أن أدرك ما يقول.

أخبرتنا ماما أن نتذكر من وقت لآخر أن نعاقب بابا بقوة لنشعره بأننا إلى جانبه فى وقت يتعرض فيه لضغوط شديدة. أخبرتنا أيضاً بقيام جنود باقتحام أحد مصانعه وبحوزتهم صناديق كرتون بداخلها فئران، ثم أغلقوا المصنع متحججين بأنهم عشروا داخل المصنع على الفئران التى تنقل المرض للذين يتناولون منتجاته من البسكوت ورقائق الحلوى.

لم يعد بابا يذهب كعادته إلى المصانع الأخرى. فى يوم من الأيام زاره الأب بينيديكت قبل مغادرتنا - جاجا وأنا - المنزل إلى المدرسة، ومكثا معاً كل الوقت داخل مكتبه حتى وقت وصولنا إلى المنزل؟ قالت ماما إنهما يتحدثان فى أمر يتعلق بعبادة التاسعوية التى تستمر لمدة تسعة أيام. لم يعد بابا يخرج من مكتبه

لأيام ليتأكد من أننى وجاجا نتبع جدول مذاكرتنا،
ولذلك كان جاجا يأتى إلى حجرتى للتحدث أو لمجرد
الجلوس على سريرى أثناء مذاكرتى ثم يعود ثانية إلى
حجرتة.

فى أحد تلك الأيام التى جاء فيها جاجا إلى
حجرتى أغلق الباب وراءه، وسألنى:

- أيمكننى رؤية لوحة الأب نوكوو؟

استقرتُ عيني على الباب. لم أر اللوحة أبداً أثناء
وجود بابا بالمنزل.

- هو مع الأب بينيديكت ولن يأتى إلى هنا.

أخرجتُ اللوحة من الحقيبة وبسطتها. حدق فيها
جاجا وأجرى فوق سطحها الملون أصبعه المشوه الذى
لا يشعر به إلا قليلاً. اقتربتُ منه وفى صمت حدقنا
معاً فى اللوحة لفترة طويلة جداً. كنت أعلم أن بابا
سيأتى ليقول "تصبحين على خير" ويقبل جبهتى. كنت
أعلم أن جاجا لن يكون لديه الوقت الكافى ليعيد طى
اللوحة ويدخلها الحقيبة، وأن بابا سيتمكن من رؤيتها
بنظرة واحدة، ثم تضيق عيناه وينتفخ خداه وتندفع
كلمات بالاجبو من فمه.

ذلك هو ما حدث. ما حدث ربما كان الشيء الذى
نريده كلانا - جاجا وأنا - أن يحدث، بغير أن نكون
على وعى به. نحن جميعاً ربما قد تغيرنا بعد نسوكا،
حتى بابا نفسه. أشياء كثيرة كان من المقدر لها ألا
تصبح كما هى وألا تصبح كما كانت فى الأصل.

- ما هذا؟.. هل تحولتم جميعاً إلى وثنيين بشكل
أو بآخر؟.. ما الذى تفعلانه بهذه اللوحة؟.. من أين
حصلتما عليها؟ طوى جاجا اللوحة حول صدره
بذراعيه، وقال:

- إنها تخصنى

تمايل بابا فى حركة خفيفة من جانب إلى آخر،
قبل أن يستعيد توازنه.

- من أحضر هذه اللوحة إلى المنزل؟

قلت:

- أنا

قال جاجا:

- أنا

لو أن جاجا نظر إلى كنت سألته ألا يلوم نفسه.
انتزع بابا اللوحة من جاجا. يدها تحركتا معاً وبسرعة
خاطفة. ضاعت اللوحة. إنها تمثل على أية حال شيئاً
ضائعاً.. شيئاً لن أستعيده أبداً. الآن ذهب هذا
التذكار ليستقر قطعاً من الورق تحت قدم بابا. قطع
الورق كانت صغيرة جداً. فجأة وكمن أصابه مس من
الجنون تخيلتُ جثمان الأب نوكوو يتم تقطيعه إلى
قطع صغيرة جداً ويوضع فى الثلاجة.. صرختُ:

- لا

اندفعتُ إلى قطع الورق الصغيرة على الأرض
وكأني أنقذها، وكان إنقاذها يعنى إنقاذ الأب نوكوو.
جثوتُ على الأرض وانحنيتُ على قطع الورق.

- ما الذى جرى لك؟.. ماذا جرى لك؟

اتخذتُ انحناءَ جسمى على الأرض شكل صورة
طفل فى رحم أمه، الموجودة بكتاب العلوم فى المرحلة
الثانوية.

- انهضى!.. ابتعدى عن تلك اللوحة!

مكثتُ هناك لا أفعل شيئاً.

- انهضى!

قالها بابا ثانية، لكننى ظللتُ لا أتحرك. بدأ
يركلنى. الحلية المعدنية بحذائه أصابتنى بلدغات ألم
حاد كلدغات بعوض عملاق. فقد زمام نفسه ولم
يتوقف عن الكلام بخليط من الاجبو والإنجليزية..
إلحاد.. وثنية.. جحيم. تزايدت الركلات وتسارعت
وفى ذهنى إيقاعات موسيقى أماكا المعبرة عن الثقافة
الإفريقية، التى تبدأ أحياناً بنغمات هادئة لآلة
الساكسفون ثم تنعطف إلى غناء مفعم بالحيوية.
انكمشتُ والتفتتُ حول نفسى وحول أجزاء اللوحة
التي لاتزال تحمل لوحة ألوان أماكا. استمرت الركلات
والحلية المعدنية تلدغ جنبى وظهري وقدمى.. ركلة،
ركلة، ركلة. صوت خافت يقول "من فضلك.. من
فضلك". مزيد من الركلات. بلل دافئ له مذاق الملح
بفمى. أغلقتُ عيناى وذهب الوعى وتسلسل إلى البعيد
فى سكون.

* * *

عندما فتحتُ عينيّ أدركتُ في الحال أنني لستُ
في سريري، لأن الحشية أكثر صلابة من حشية
سريري بحجرتي. أمكنني النهوض قليلاً لكن الماءُ
مفرطاً قد انطلق في كل أنحاء جسدي أصابني
بالوهن فاستلقيتُ على ظهري ثانية.

- كامبيلي.. شكراً للرب!

وقفتُ ماما وضغطتُ يدها على جبهتي وواجهني
وجهها.

- شكراً للرب.. لقد استيقظتِ.. شكراً للرب.

وجهها غارق في الدموع. لمسة يدها الخفيفة
أيقظت آلام جسدي كله بداية من رأسي.. آلام أشبه
بآلام الماء الساخن الذي صبه بابا على قدمي، لكن
آلام الحريق الآن في كل جسدي.

- حريق في جسدي كله

- استريحى.. شكراً لله أنك استيقظتِ

لم أرغب في الاستيقاظ والشعور بأكثر من مطرقة
تطرق رأسي. حتى التقاط أنفاسي شديد الإيلام.
الطبيب في ثوبه الأبيض إلى جانب السرير. أعرف
ذلك الصوت. واعظ الكنيسة. يتحدث ببطء
وبالطريقة نفسها التي يقرأ بها في الكتاب المقدس.
لم أستطع سماعه. اقترب مني الطبيب، وبطء رفع
كم قميصي. دائماً كانت الحقنة تخيفني عند إصابتي
بالمalaria، وكنت أصلي حتى يصف لي الطبيب أقراصاً

أبتلعها وليس الحقن فى الوريد. الآن لا يعد وخز الحقن شيئاً بالمقارنة بما أعانيه من آلام. كان وجه بابا قريباً جداً منى. عيناها دامعتان. يتحدث ويبكى فى الوقت نفسه "ابنتى الغالية.. لا شىء سيحدث لك.. ابنتى الغالية". لست متأكدة إذا ما كنت أحلم. أغلقتُ عيني.

عندما فتحتُ عيني ثانية كان الأب بينيديكت واقفاً يرسم علامة الصليب على قدمى بزيت رائحته تشبه رائحة البصل. لمساته الخفيفة سببت لى ألماً. وبابا بالقرب منى يقرأ فى كتاب الصلوات ويده تلمس جبيني برفق. أغلقتُ عيني ثم فتحتهما بعد لحظات على حركة شفتى ماما وهى تقول فى همس أثناء مغادرة بابا والأب بينيديكت أن حالتى خطيرة. لم أكن فى حالة خطيرة. هى تعرف ذلك. لماذا تقول إن حالتى خطيرة؟ لماذا أنا هنا فى مستشفى سان أجنيوز؟

- ماما.. تحدثى إلى العمة أفيوما.

نظرتُ إلى البعيد.

- يتعين عليك أن تستريحى

- أريد العمة أفيوما، من فضلك

بسطتُ ذراعها لى تمسك بيدي. وجهها منتفخ من كثرة البكاء، وشفتها متشققتان، وأجزاء من بشرتها تغير لونها. رغبتُ لو أستطيع النهوض وأعانقها وأدفعُ بها لى تجلس على الكرسي وتسترخى.

* * *

عندما فتحتُ عيني، كان وجه الأب أمادى يتطلع
إلىّ. ربما كنتُ أحلم. ربما كان هذا خيالاً. تمنيتُ لو
أمكننى أن أبتسم.

- فى البداية لم يكن فى استطاعتهم العثور على
وريد، وكنتُ خائفة جداً.

صوت ماما قريب منى وحقيقى.. لم أكن أحلم
إذن.

- كامبيلى.. كامبيلى.. أنت مستيقظة؟

صوت الأب أمادى عميق وأقل غنائية عما هو فى
أحلامى.

- كامبيلى.. حبيبتى

صوت العمة أفيوما. بدا وجهها مجاوراً لوجه الأب
أمادى. حاولتُ أن أبتسم. شىء ما ينزلق منى بعيداً،
ويأخذ معه حيوية جسدى وصفاء ذهنى، ولا أملك من
نفسى شيئاً لإيقافه. أمسكتُ بيدي.

- حبيبتى.. يبعث أبناء عمتك لك بتحياتهم.
يرغبون فى رؤيتك لكنهم فى المدرسة. الأب أمادى هنا
معى.

أردتُ الاحتفاظ بعينى مفتوحتين لأرى الأب أمادى،
ولأشم رائحة الكولونيا المصاحبة له، ولأسمع صوته..
لكن يصعب إبقاء جفنى الثقيلين مفتوحين. قالت
العمة أفيوما:

- لا يمكن أن يستمر هذا. عندما يشبُّ حريق في منزل يتعين على من فيه الركض بعيداً قبل أن ينهار السقف على رأس من فيه.

- لم يحدث أبداً مثل هذا من قبل. لم يسبق له أن عاقبها بكل هذه القسوة من قبل.

- ستأتى كامبيلى إلى نسوكا فور مغادرتها المستشفى.

- لن يقبل ايوجين

- سأبلغه. والدنا قضى نحبه ولم يعد له وجود كوثنى فى منزلى. أريدهما كامبيلى وجاجا أن يقيما معنا على الأقل حتى عيد الفصح. وأنتِ اجمعى أغراضك وتعالى إلى نسوكا. من السهل عليك أن تغادرى طالما أنهما غادرا المنزل.

- لم يحدث أبداً مثل هذا من قبل.

- ألم تسمعى ما قلت؟

- أنا أسمعك.

مسافة كبيرة تفصل بين صوتيهما، وكأنهما على ظهر مركب يتحرك بسرعة فى البحر وقد ابتلعت أمواج البحر أصواتهما. قبل أن أفقد صوتيهما تساءلت، أين ذهب الأب أمدى. بعد ساعات فتحت عيني فى الظلمة. عبر الضوء الواهن المتسلل من أسفل الباب، أمكننى رؤية الصليب على الحائط، وكذلك ملامح جسد ماما على المقعد بجوار سريري.

- حبيبتي.. سأظل بجانبك طوال الليل.. نامى

نهضتُ وجلستُ على طرف سريري، وربّيتُ بلطف
على وسادتي. كنتُ أعرفُ أنها تخشى أن تلمسني
براحة يدها حتى لا تسبب لي أذى.

- والدك كان إلى جانبك كل ليلة طوال الأيام
الثلاثة الماضية ولم تغفل عنه لحظة واحدة
حركتُ رأسي بصعوبة، ونظرتُ بعيداً.

* * *

في الأسبوع التالي، جاءت معلمتي الخاصة التي
اختارها بابا بعد إجراء مقابلات مع عشر معلمات.
كاهنة شابة لم تنه دراستها بعد. صوت حفيف يصدر
عن حبات مسبحتها الطويلة الزرقاء الملتفة حول
خصرها كلما تحركت. خصلة من شعرها الأشقر
الناعم تظهر خلصة من أسفل وشاح يغطي رأسها.
دهشتُ عندما وجدتها تمسك بيدي وتتحدث بالاجبو
بطلاقة برغم كونها بيضاء. كانت تلتزم الصمت
وتجري أصابعها على المسبحة أثناء قراءتي فقرات من
موضوع معين بغرض معرفة مقدرتي على الفهم. رأيتُ
في بحيرة عينيها بلون البندق معرفتها بأمر كثيرة.
ودون أن تقول شيئاً، أدركتُ أنها تعرف أنني يمكنني
تحريك أجزاء من جسمي أكثر من التي أخبرتُ بها
الطبيب. وعندما حاول الطبيب جس جنبي، أطلقت
صرخة، ربما لأنني لم أكن أريد مغادرة المستشفى، ولم
أرغب في الذهاب إلى المنزل.

أديتُ امتحاناتي في المستشفى. أحضرتُ الأم
لوسى بنفسها أوراق الأسئلة، وجلستُ تنتظر على

مقعد مجاور لماما، ومنحتني وقتاً إضافياً لكل امتحان برغم انتهائى من الإجابة قبل الوقت المحدد. وبعد أيام قليلة، أفادتُ شهادة تقييم أدائى فى الامتحان، التى أحضرتها الأم لوسى أننى حصلتُ على المركز الأول بالفصل، ولم يتسن لماما أن تغنى أغانيها التى تمجد الرب بالاجبو، وقالت فقط "شكراً لله".

زارتنى فتيات فصلى بعد ظهر ذلك اليوم وأعينهم تمتلئ بالإعجاب بى والخشية منى. سمعوا عن نجاتى من حادث، وتمنوا عودتى بجبيرة فى ذراعى أو فى ساقى، حتى يمكنهم وضع توقيعاتهن على سطحها الأبيض. أهدتنى تشينوى جيديز بطاقة جميلة عليها كلمات "تعافى سريعاً لأنك مميزة بالنسبة لى"، وجلستُ بجوار سريرى وتحدثتُ إلى فى همس يغلب عليه طابع السرية وكأننا كنا دائماً أصدقاء. أطلعتنى أيضاً على شهادة تقييم أدائها فى الامتحان كان ترتيبها الثانى. وقبل مغادرتها سألتُ إزىنى:

- ستتوقفين عن الركض بعد المدرسة إذن.. أليس

كذلك؟

أخبرتتى ماما فى ذلك المساء أننى سأخلى حجرتى بالمستشفى فى غضون يومين، وأننى لن أعود إلى المنزل، وسأذهب إلى نسوكا لمدة أسبوع وسيأتى جاجا معى. لم تعرف ماما كيف استطاعت العممة أفيوما إقناع بابا، الذى وافق على أن هواء نسوكا مفيد لى لاستعادة عافيتى.

تساقطت قطرات المطر على الشرفة بالرغم من وهج الشمس الذى جعلنى أضيق عيني لكى أستطيع الرؤية عبر باب حجرة معيشة العمه أفيوما . اعتادت ماما أن تخبرنا أن الرب لم يقرر بعد أيهما يبعثُ به إلى الأرض: المطر أم الشمس، وكنا نجلس فى حجرتينا نتطلع إلى قطرات المطر وهى تتلألأ فى أشعة الشمس فى انتظار أن يتخذ الرب قراره. سألتنى أوبيورا:

- كامبيلي.. أتريدىن مانجو؟

أوبيورا يرغب فى مساعدتى منذ وصولنا الشقة بعد الظهر ، وتشىما يصرُّ على حمل حقيبتى، وكأنهما يريدان ألا أجهد نفسى حتى يزول ما تبقى من مرض لايزال فى مكان ما بجسمى، بعد أن أخبرتهما العمه أفيوما أن مرضى كان من النوع الخطير، وأننى كدتُ أموتُ تقريباً.

- سأتناول واحدة فى وقت لاحق

ضغط أوبيورا ثمرة مانجو صفراء فى اتجاه حائط غرفة المعيشة حتى يصبح ما بداخلها ليناً، ثم فتح فتحة صغيرة فى أحد طرفيها، وبدأ فى مص سائلها حتى لم يتبق داخل جلد الثمرة غير بذرتها. فى الوقت نفسه كانت العمة أفيوما وأماكا يتناولان ثمرة مانجو أيضاً، لكن باستخدام سكين يقطع لحمها الأصفر إلى شرائح بعد إخلاء البذرة بعيداً.

خرجتُ إلى الشرفة، ووقفتُ بجانب القضبان المعدنية المبللة، لأشم رائحة الهواء المنعشة، وأرقب تحول المطر من خيوط رفيعة إلى رذاذ إلى أن توقف تماماً بعد أن اتخذ الرب قراره بإرسال أشعة الشمس.

ارتدتُ العمة أفيوما حذاءها الخفيف وصعدتُ الدرج لتتحدث إلى إحدى جاراتها، وتركتنى مع أماكا واقفين جنباً إلى جنب بالشرفة. تقدمتُ إلى الأمام لتتكئ على القضبان وكتفها يمس برفق كتفى فى ألفة.

- أصبحت حبيبة قلب الأب أمادى.. كان يشعر بقلق حقيقى أثناء مرضك، وتحدث عنك كثيراً جداً.. لم يكن اهتمامه بك مجرد اهتمام قس.

- ماذا قال؟

التفتتُ أماكا لتبين اللفه فى وجهى.

- أنت متعلقة به.. أليس كذلك؟

لم تقتربُ من حقيقة الشعور الذى أحمله له.

- نعم

- مثل كل فتاة فى حرم الجامعة.

أحکم قبضتى على قضبان الشرفة. أدركتُ أن
أماكا لن تخبرنى بالمزيد، لأننى لم أسأل، ولأنها تريد
منى أن أتحدث أكثر.

- ماذا تعنين؟

- كل الفتيات فى الكنيسة متعلقان به وحتى بعض
النساء المتزوجات.. الناس يتعلقون بالقساوسة كل
الوقت.

أجرتُ أماكا يدها على القضبان فأمحت معالم
قطرات المطر.

- أنتِ مختلفة.. لم يسبق أن سمعته يتحدث عن
أى شخص كما تحدث عنك. قال إنك لا تضحكين
أبداً، وكم أنت خجولة، بالرغم من تأكده من أن أموراً
كثيرة تجرى فى رأسك. لقد أخبرته أنه يشبه شخصاً
يحزنه مرض زوجته.

- سعدتُ لأنه جاء إلى المستشفى.

كان من السهل على أن أقول ذلك وأن أدع الكلمات
تجرى على لسانى، بينما عينا أماكا تتقبان بداخلى.

- العم ايوجين.. فعل بك هذا؟

حررتُ يدي من قضبان الشرفة، بعد أن شعرتُ
فجأة بحاجة إلى أن أسترخى. لم يسأل أحد، حتى
طبيب المستشفى أو الأب بينيديكت، ولم أعرف ما إذا
كان بابا قد أخبرهما بأى شىء.

- هل أخبرتك العمه أفيوما؟

- لا.. لكن خمنتُ ذلك.

- نعم.. هو

قلتُ، ثم اتجهتُ إلى دورة المياه. لم أرغب فى رؤية
رد فعل أماكا.

* * *

انقطع التيار الكهربائى قبل غروب الشمس،
وارتجتُ الثلجة ثم ران عليها الصمت. لم ألحظ
صوت أزيزها المرتفع إلى أن توقفتُ تماماً. أحضر
أوبيورا مصابيح الكيروسين إلى الشرفة، وجلسنا
حولها نهشُ الحشرات الصغيرة التى تتبع الضياء
الأصفر فى تهور وتحترق على السطح الزجاجى
للمصباح. فى وقت متأخر من المساء، جاء الأب أمادى
حاملاً قراطيس من ورق جرائد قديمة بها ذرة مشوية.
قالت أماكا:

- الأب أمادى هو الأفضل!.. هذا ما كنتُ أفكر
فيه.. ذرة مشوية.

- أحضرتها معى بشرط ألا تدخلينا فى أى نقاش
اليوم.. أنا فقط أريد الاطمئنان على كامبيلى.

ضحكتُ أماكا وأخذت قراطيس الذرة المشوية إلى
الداخل لتفرغها فى أطباق.

- جميل أن تعودى إلى نفسك ثانية.

قال الأب أمادى وهو يتفحصنى وكأنه يريد أن يتأكد من وجودى على نحو كامل. ابتسمتُ. تحرك فى اتجاهى على نحو يشير لى أن أقف لى أعانقه. جسده المشدود الشهى يلامس جسدى. تراجعتُ إلى الخلف بسرعة وإن كنت أرغبُ لو أن تشيما وجاجا وأوبيورا والعمة أفيوما وأماكا جميعهم اختفوا لفترة. رغبتُ لو أننى وحيدة معه. رغبتُ لو استطعتُ أن أخبره كم أشعر بالدفء لوجوده هنا، وكيف أن لونى المفضل الآن هو الصلصال المحروق فى بشرته. أغلقتُ عيني لى أدع صوته يتخللنى.

* * *

قالت العمة أفيوما أننى لن أساعد فى إحضار الماء من الصهريج إلا بعد التأكد من استرداد عافيتى.. لذا أستيقظ بعدهم جميعاً عند دخول أشعة الشمس إلى حجرتى وانعكاسها فى المرآة. خرجتُ وكانت أماكا تقف بجوار نافذة حجرة المعيشة. اتجهتُ إليها ووقفتُ بجانبها. كانت تنظر إلى الشرفة وإلى العمة أفيوما التى تجلس على مقعد بلا ظهر وتحدث إلى امرأة تجلس بجانبها لها عينان ثاقبتان وشفتان مزمومتان ولا تضع مساحيق على وجهها. قالت العمة أفيوما وهى تنحنى بجسدها إلى الأمام وتشققات صغيرة تبدو على شفيتها البرونزيتين :-

- لا يمكننا التراجع عن المفترض حدوثه.. مجلس الجامعة يصوتُ على اختيار رئيس الجامعة. هذا هو

المعمول به منذ أنشئت هذه الجامعة، والمفروض أن يظل الأمر كذلك.

نظرت المرأة إلى البعيد، وهزت رأسها بشكل مستمر على النحو الذى يفعله الناس عند البحث عن الكلمات الصحيحة. عندما تحدثت أخيراً تحدثت ببطء مثل شخص يخاطب طفلاً عنيداً:

- قالوا إن هناك قائمة بأسماء الأساتذة غير الموالين للجامعة، والذين يتعين طردهم، واسمك فى هذه القائمة.

- أنا لا أحصل على راتبى لكى أكون موالية.. إذا أنا تحدثتُ بصدق أصبح غير موالية؟

- أفيوما.. أتعقدين أنك الشخص الوحيد الذى يعرف الصدق؟.. ألسنا جميعاً نعرف الصدق والحق؟.. لكن هل سيفذى الصدق والحق أطفالك؟.. هل يدفع الصدق والحق مصاريف مدارسهم ويشترى ملابسهم؟

- متى نُعبّر عن رأينا بحرية دون خوف؟.. عندما يقوم الجنود بتعيين الأساتذة ويصوبون البنادق إلى رؤوس الطلاب؟.. متى نتكلم ونعبر عن رأينا بحرية ودون خوف؟

علا صوت العمة أفيوما، لكن الوهج فى عينيها لم يكن موجهاً إلى المرأة. كانت غاضبة من شىء أكبر من المرأة التى أمامها. نهضت المرأة، وقالت:

- يتعين علينا الذهاب.. متى محاضرتك؟

- الثانية

- ألدك وقود؟

- لا

- دعيني أوصلك.. لدى قليل من الوقود.

تابعتُ بعيني العممة أفيوما والمرأة وهما يسيران
ببطء وتثاقل إلى الباب وكأنهما يرزحان تحت ثقل
ما تحدثتا عنه وما لم يتحدثا عنه. انتظرتُ أماكا إلى
أن أغلقت العممة أفيوما الباب من خلفهما حتى تغادر
النافذة وتجلس.

- ماما قالت إنه يتعين عليك أن تتذكرى تناول
مسكّن الألم.. كامبيلي.

- ما الذى كانت تتحدث العممة أفيوما بشأنه مع
صديقتها؟

سألتُ، رغم علمى أننى لم أكن أسأل من قبل..
كنت أتساءل، لكن لم أكن أطرح السؤال.

- ما يجرى فى الجامعة.

أجابتُ أماكا باقتضاب، وكأننى سأفهم على الفور
كل ما كانتا تتحدثان بشأنه. قال أوبيورا:

- الجامعة تُعدُّ صورة مصغرة من الدولة.

لم أعلم بوجوده. كان مستلقياً على أرضية حجرة
المعيشة يقرأ كتاباً.

قالت أماكا:

- يطلبون من ماما أن تغلق فمها .. أغلقت فمك إذا أردت ألا تفقدى عملك، فهم يمكنهم طردك .. هكذا.

طرقتُ أماكا بأصبعيها لكي تبين قدر السرعة التي يمكن بها فصل العمدة أفيوما من الجامعة. قال أوبيورا:

- يتعين عليهم فصلها حتى يمكننا السفر إلى أمريكا

- أغلق فمك .. أمريكا؟

نقلتُ بصري من أوبيورا إلى أماكا التي قالت بمرارة وكأنها تتهم شخصاً ما بشيء ما:

- العمدة فيليبيا تطلب من ماما أن تذهب إلى هناك، حيث على أقل تقدير يتقاضى الناس رواتبهم المفترض أن يتقاضوها.

- وماما ستحصل على عمل محترم في أمريكا بدون تدخل سياسات غير مقبولة.

هز أوبيورا رأسه مؤكداً حتى لو لم يوافق في الرأي أحد. ضربتُ أماكا المقعد بحركة سريعة.

- هل تعلمين كم من الوقت مضى هنا وهم ينظرون في ملفها؟ .. كان من المفترض أن تحصل على ترقية منذ سنوات.

- العمدة أفيوما أخبرتك بذلك؟

سألتُ دون أن أكون متأكدة مما أعنيه بسؤالى..
ربما لأننى لم أستطع التفكير فى شىء آخر أقوله..
ربما لأننى لا يمكننى تخيل حياتى بدون أسرة العمه
أفيوما وبدون نسوكا. لم أتلق رداً من أوبيورا وأماكا.
كانا يرمقان بعضهما فى صمت وشعرتُ أننى خارج
حديثهما. خرجتُ ووقفت بجوار قضبان الشرفة. كان
جاجا جاثياً على ركبتيه يزيل الأعشاب الضارة فى
الحديقة. لم يكن فى حاجة إلى ربيها لأن السماء
أمطرت بالليل. أخذتُ نفساً عميقاً وحبسته ولم أطلق
سراحه سريعاً، مستمتعة برائحة الأوراق الخضراء
المغسولة بالمطر، تماماً مثلما يفعل المدخن ليستمتع
بآخر نفس من السيجارة.

* * *

فى ذلك المساء، توقف الأب أمادى ليصحبنا جميعاً
معه إلى الإستاد، حيث يقوم بتدريب بعض الصبية من
أجوو أجيدي المشاركين فى مسابقة محلية لرياضة
الوثب العالى. رفض أوبيورا الذى استعار جهاز ألعاب
الفيديو من شقة علوية وجلس بصحبة أطفال أمام
شاشة التليفزيون فى حجرة المعيشة. ضحكتُ أماكا
عندما طلب منها الأب أمادى أن تصحبه.

- تحاول أن تكون لطيفاً يا أبى؟.. أنت تعرف أنك
تُفضل أن تتفرد بحبيبة قلبك.

ابتسم الأب أمادى ولم يقل شيئاً.

ذهبت وحدى معه. شعرتُ بجفاف فمى من شدة الارتباك أثناء قيادته السيارة إلى الإستاد. كنتُ ممتهة له لأنه لم يعلّق على ملاحظة أماكا، وتحدث عن الرائحة الطيبة للمطر، وغنى مصاحباً صوت الكورال الصادر من جهاز كاسيت السيارة. عند وصولنا الإستاد، كان الصبية من أجوو أجيدي فى انتظاره. كانوا أكثر طولاً من الصبية الذين رأيتهم المرة السابقة، وزيهم الرياضى أكثر قدماً. علا صوت الأب أمادى أثناء تشجيعهم على أداء أفضل، مؤكداً لهم أن بمقدورهم تحقيق وثبات أعلى. ومع توالى صيحات استيائه وتشجيعه افتقدتُ جمال صوته وعذوبته.

ما كان يفعلهُ الأب أمادى من تشجيع للصبية لتحقيق مستويات أعلى للوثب، هو نفسه تماماً، ما كانت تفعله العمّة أفيوما من تشجيع لأبنائها على أن بمقدورهم تحقيق المزيد من التقدم، وعلى أنها تتوقع منهم المزيد من النجاح. لكن جاجا وأنا لم نكن نحقق تقدماً لأننا نثق بقدراتنا، وإنما لأننا كنا نخشى وبنتابنا الذعر من عدم قدرتنا على تحقيق ما يتوقعه بابا منا من نجاح.

- لماذا سحابة الحزن على وجهك؟

سألنى الأب أمادى الجالس بجانبى وكتفه يلامس كتفى، ورائحة الكولونيا تملأ خياشيمى.

- لا شىء.

- أخبرينى عن هذا اللاشىء إذن.

- أنت تثق بقدرات هؤلاء الصبية.

- نعم.. هم لا يحتاجون منى أن أثق فيهم بقدر ما
أنا أحتاج هذه الثقة فى نفسى.

- لماذا؟

- لأننى فى حاجة إلى الإيمان بشيء لا تساورنى
أسئلة بشأنه.

أمسك بزجاجة الماء ورفعها إلى فمه. راقبتُ
تموجات حلقة مع استمرار انسياب الماء إلى أسفل،
وتمنيتُ لو كنتُ أنا الماء الذى يسرى فيه لأكون معه. لم
يسبق لى أن حسدتُ الماء من قبل. التقتُ عيناه بعينى،
ونظرتُ بعيداً متسائلة ما إذا كان قد شاهد الشوق
فى عينى.

- شعرك يحتاج إلى أن يُضفر.

- شعرى؟

- نعم.. سأصحبك إلى المرأة التى تضفر شعر
عمتك فى السوق.

بسطَ يده ولمس شعرى. كانت ماما قد ضفرته فى
المستشفى، لكن بسبب صداع برأسى لم تحكم حبك
ضفائرى التى بدأت حبكتها الآن فى الانفلات. أجرى
يده على الجزء المنفلت من ضفائرى فى حركة ناعمة
رقيقة. كان ينظر فى عينى مباشرة ورأسه قريبة من
رأسى. أردتُ للمسته الرقيقة أن تدفع رأسى فى
اتجاهه، وأردتُ أن أضغط رأسه إلى رأسى وجسدى
حتى يستشعر الدفء الذى تسلل إلى لحمى ودمى.

ترك شعري. أردته أن ينهض ويركض عائداً إلى
الصبية في الملعب.

* * *

كان الوقت مبكراً في صباح اليوم التالي، عندما
تسببت حركة أماكا في إيقاظي. لم تكن أشعة الفجر
الأرجوانية قد تسللت إلى الحجر، عندما رأيته على
الضوء الخافت لمصابيح الإضاءة في الخارج، تحاول
لف الدثار حول صدرها وعنقها استعداداً للذهاب إلى
دورة المياه.

- أماكا.

استطعتُ التعرف على صوت العمة أفيوما قادماً
من الشرفة، وأنا أتساءل عما تفعله في هذه الساعة
المبكرة. تنهى إلى سمعي صوت هتاف جماعي. قالت
أماكا:

- الطلبة يتظاهرون.

نهضتُ. ماذا يعني أن الطلبة يتظاهرون؟ جاجا
وأوبيورا بالشرفة مع العمة أفيوما. ذراعاى العاريتان
استشعرتا برودة الجو. قالت العمة أفيوما:

- أطفئ مصباح الإضاءة.. قد يلقون بالحجارة
في اتجاه الضوء عند مرورهم.

أطفأتُ أماكا كل مصابيح الإضاءة. أصبح الغناء
والهتاف أكثر وضوحاً وحيوية. ربما يزيد عددهم عن

خمسائة: "فليرحل رئيس الدولة" .. "أين الكهرباء؟" ..
"أين مياه الشرب؟" .. "أين الوقود؟".

قالت أماكا:

- الهتافات عالية، لدرجة اعتقدت أنهم قرييون.

- هل يأتون إلى هنا؟

سألتُ. وضعتُ العمة أفيوما ذراعها حولي
وجذبتني إليها. شممتُ رائحة مسحوق التالك المعطر
الذي يستعمل للبشرة. قالت:

- نحن بخير.. الذين يتعين عليهم أن يشعروا
بالقلق هم أولئك الذين يعيشون بالقرب من نائب
رئيس الجامعة.

وسط الهتاف الجماعي، علا صوت فردي وارتفعتُ
أصوات الحشد محيية. ربح الليل الباردة برائحة
الحريق تحمل أجزاء من صوت يتحدث بخليط من
الإنجليزية والاجبو في شارع غير قريب.

- انظر

قال أوبيورا بصوت خفيض حتى لا تسمعه
مجموعة تتكون من نحو أربعين طالباً أثناء ركضهم
أسفل المنزل ممسكين بأيديهم مصابيح إنارة كاشفة
وعصياً محترقة. قالت أماكا بعد ابتعاد الطلاب:

- ربما في طريقهم إلى الانضمام إلى المظاهرة.

أثناء وقوفنا في الشرفة، قالت العمة أفيوما إن
علينا أن نذهب إلى الفراش.

* * *

جاءت العمة أفيوما بعد ظهر اليوم ببعض الأخبار عن أحداث الشغب التي وصفتها بأنها الأسوأ من تلك الأحداث التي نشبت منذ بضع سنين، بسبب إشعال المتظاهرين النار في منزل رئيس الجامعة واستراحة الجامعة وسبع سيارات. قالت ملوحة بنشرة بيدها:

- قالوا إنه تم تهريب رئيس الجامعة وزوجته في حقيبة سيارة بيجو ٤٠٤.

عندما قرأتُ النشرة شعرتُ بانقباض في صدرى بسبب إغلاق الجامعة إلى أجل غير مسمى نتيجة للأضرار التي لحقت بممتلكات الجامعة ولأجواء عدم الاستقرار. حدثتُ نفسى: هل يعنى ذلك أن العمة أفيوما ستفادر قريباً؟.. وهل يعنى أننا لن يكون في استطاعتنا المجيء إلى نسوكا؟

حلمتُ أثناء نومي المتقطع في فترة القيلولة، بأن رئيس الجامعة كان يصبُ الماء الساخن على قدمى العمة أفيوما من صنوبر الماء في منزلنا في انوجو، ثم قفزتُ خارج حوض الاستحمام إلى أمريكا بالكيفية التي تجرى في الأحلام، ولم تلتفتُ إلى الوراء عندما طلبتُ منها أن تتوقف. بينما كنتُ لا أزال أفكر في الحلم ونحن نجلس جميعاً في حجرة المعيشة نشاهد التلفزيون في المساء، سمعتُ صوت سيارة تتوقف أمام انشقة. يداى المرتعشتان أمسكتُ إحداهما الأخرى بقوة. من المؤكد أنه الأب أمادى. لكن الطرق القوى

والفظ على الباب لا يدل عليه. نهضت العمدة أفيوما
من مقعدها بسرعة.

- من هذا الذي يريد تحطيم الباب؟

فتحت الباب وأبقته موارباً، لكن يدين عريضتين
امتدتا وفتحتا الباب بعنف. رعوس الرجال الأربعة
ارتطمت بأعلى حلق الباب لحظة اندفاعهم إلى
الداخل. فجأة بدت الشقة ضيقة وصغيرة ومزدحمة
بريهم الأزرق المحمل بروائح السجائر والعرق.

- ما هذا؟.. من أنتم؟

- نحن هنا لتفتيش منزلك. نحن نبحث عن وثائق
تكشف ضلوعك في أعمال التخريب والإخلال بالسلم
في الجامعة. لدينا معلومات تشير إلى علاقتك
بمجموعات الطلبة المتظاهرين وبأحداث الشغب.

بينما كان أحد الرجال الأربعة يتحدث بصورة آنية
وكأنه يقرأ من ورقة، اتجه الرجال الثلاثة في خطوات
سريعة إلى داخل الشقة. أحدهم فتح أدراج صوان
السفرة، والاثنان الآخران دخلا حجرات النوم.

- من أرسلكم إلى هنا؟

-- نحن من وحدة الأمن الخاص في "بورت
هاركورت".

- هل لديكم أية أوراق تطلعونني عليها؟.. لا يمكنكم
التحول في منزلي هكذا.

قطب الرجل جبينه ودفع العمة أفيوما جانباً.
تحدث أوبيورا بمزيج من الإنجليزية والاجبو وشيء من
الخوف فى عينيه:

- كيف تأتون هكذا وتقتحمون منزلنا؟

- أوبيورا

بهدوء قالت العمة أفيوما، وبسرعة جلس وقد بدا
عليه الارتياح لإشارة والدته لنا جميعاً، قبل أن تتبع
الرجال إلى الحجرات، بأن نظل جالسين ولا نتفوه
بكلمة. لم ينظروا بداخل الأدراج التى تركوها مفتوحة،
فقط نثروا ما بها من ملابس وأشياء أخرى على
الأرضية، وقاموا بقلب الصناديق والحقائب داخل
حجرة العمة أفيوما رأساً على عقب، ولكنهم لم
يفتشوا محتوياتها. كانوا يبعثرون ما تقع عليه أيديهم
دون البحث والتفتيش فيها. عند مغادرتهم قام الرجل
الذى على وجهه علامات تشى بأصوله القبلىة -
بالتلويح بأصبعه ذى الأظافر المقوسة فى وجه العمة
أفيوما، قائلاً:

- احذرى.. توخى الحذر جداً.

ظللنا صامتين إلى أن اختفى تماماً صوت محرك
سيارتهم. قال أوبيورا:

- يتعين علينا الذهاب إلى قسم الشرطة.

ابتسمتُ العمة أفيوما، لكن حركة شفيتها لم تفلح
فى إضاءة وجهها. سأل جاجا:

- لماذا يتهمونك بإثارة أعمال الشغب يا عمتي؟
- هذا كلام فارغ.. يريدون تخويفي.. منذ متى
يحتاج الطلبة من يخبرهم متى يتظاهرون؟
قالت أماكا:

- لا أعتقد أنهم بغير سبب اقتحموا منزلنا وقلبوه
رأساً على عقب.. أنا لا أعتقد ذلك.
قالت العمّة أفيوما:

- حمداً لله أن تشيما نائم
قال أوبيورا:

- علينا أن نرحل.. ماما.. يتعين علينا الرحيل..
هل تحدثتِ إلى العمّة فيليبيا ثانية؟

هزت العمّة أفيوما رأسها وهي تعيد ترتيب الكتب
والحقائب والأدراج بمساعدة جاجا. سألت أماكا:

- ماذا تعنى بالرحيل؟.. لماذا يتوجب علينا أن
نهرب من بلدنا؟.. هل الهروب هو الحل؟

- لنكن واقعيين.. عندما يحين وقت التحاقنا
بالجامعة سيكون الأساتذة الأكفاء قد فاض بهم الكيل
بكل هذه الممارسات وسافروا إلى الخارج.

- كفاكما.. هيا معاً لنرتب هذه الفوضى.

للمرة الأولى نتحدث العمّة أفيوما بحدة وغضب
ولا تنظر برهو وإعجاب بمناقشات أبناء عمتي.

عند ذهابى لأخذ حمام فى الصباح، لفتت نظرى دودة تزحف خارجة من صنوبر الماء. كثيراً ما تحدثه أماكا عن تقادم شبكة أنابيب المياه، وعن الدود الذى يجد طريقه إلى صنابير المياه فى فصل المطر من كل عام، وعن قيام العمدة أفيوما بالكتابة إلى وزارة الأشغال حول سوء حال شبكة المياه، ولكن بالطبع تمر سنوات قبل أن يستجيب أى مسئول إلى تلك الشكوى. أما أوبيورا الذى كان يميل إلى دراسة دودة الأرض، فقد اكتشف أنها تموت عندما يتم صب الملح عليها، وأنها إذا قُطعت إلى جزئين فإن كل جزء ينمو ويتحول إلى دودة من جديد.

بعد أن فرغتُ من حمامى، صببتُ لى العمدة أفيوما كأساً من الحليب.

- كيف حالك الآن.

- أنا بخير يا عمتى.

أمسكتُ بكأس الحليب ونظرتُ بدهشة إلى اللون البيج بداخله. قالت العمدة أفيوما:

- حليب من فول الصويا، أعددته لك.. مغذى جداً.. تبيعه زميلة متخصصة فى الزراعة.

قالت أماكا:

- له مذاق ماء الطباشير.

- هل سبق لك أن شربت ماء الطباشير؟

سألتُ العمدة أفيوما ضاحكة. لكننى رأيتُ خطوطاً

رفيعة كخطوط العنكبوت حول فمها ونظرت ذاهلة في عينيها. قالت بصوت متعب:

- لم أعد أتحمل تكلفة اللبن الحليب الآن.. لعلكم ترون الآن كيف يرتفع سعر الحليب الجاف بدون توقف.

دق جرس الباب. في كل مرة أسمعه أستشعر تقلصات بمعدتي بالرغم من أنني أعرف أن الأب أمادي اعتاد الطرق على الباب بهدوء. كانت إحدى طالبات العمدة أفيوما وجهها فاتح البشرة بعض الشيء بسبب كريم تفتيح البشرة، وترتدي قطعتين ضيقتين من قماش الجينز الأزرق، وتقبض بيدها على دجاجة رمادية كبيرة الحجم كهدية منها بمناسبة عقد قرانها الشهر المقبل. قالت إن خطيبها عندما علم بإغلاق الجامعة أبلغها أنه لا يمكنه الانتظار حتى تتخرج، وخصوصاً أنه لا يوجد أحد يعلم متى ستفتح الجامعة أبوابها ثانية. كانت تتحدث عن خطيبها بنبرة زهو بينما تحرك بهزة من رأسها جديدة شعرها المصبوغ باللون الأحمر الذهبي.

- أنا لست متأكدة إذا كنت سأعود ثانية إلى الجامعة عند افتتاحها، لأنني أريد إنجاب طفل.

ضحكت بصوت عال، ثم طلبت عنوان منزل العمدة أفيوما حتى يمكنها إرسال بطاقة الدعوة إليها لحضور حفل عقد القران، وغادرت مسرعة. قالت العمدة أفيوما وكأنها تحدث نفسها:

- لم تكن واحدة من طلبتي الأذكاء، فلا يتعين عليّ
إذن أن أحزن.

ضحكتُ اماكا وقالت:

- ماما!

الدجاجة المستلقية على أحد جانبيها وقدمها
مقيدتان معاً، أطلقتُ صيحات حادة. قالت العمّة
أفيوما:

- أوبيورا، من فضلك اذبح هذه الدجاجة وضعها
في الثلاجة قبل أن تفقد وزنها خاصة وأن لا شيء
لدينا تتغذى عليه.

قالت أماكا:

- ما رأيك، نأكل نصفها ونضع النصف الآخر في
الثلاجة.

- وهو كذلك.

-- سأذبحها أنا.

قال جاجا. التفتنا جميعاً إليه. سألت العمّة
أفيوما:

- لم يسبق لك أن ذبحت دجاجة.. أليس كذلك؟

لا.. لكن يمكنني ذبحها.

- وهو كذلك.

دهشتُ لأن العمّة أفيوما وافقت على طلب جاجا
بسهولة.. ربما لانشغال ذهنها بالتفكير في طالبتها..

هل تعتقد أن جاجا بإمكانه ذبح الدجاجة؟. تبعتُ جاجا إلى الفناء الخلفى وراقبته يضع جناحي الدجاجة تحت قدمه، ويحنى رأسها إلى الخلف؛ وتلمع فى ضوء الشمس سكين فى يده. توقفتُ الدجاجة عن الصباح.. ربما استسلمت للمصير المحتوم. ثم نظرتُ إلى جاجا وهو يفصل بالسكين عنق الدجاجة، لكن رأيتُ رقصات موتها ورفرفات جناحيها الرماديين فى بقعة الدم على الأرض. أخيراً قام جاجا بوضعها فى قدر به ماء ساخن وبدأ فى نزع ريشها.

- إذا قررتُ العمة أفيوما الرحيل فسأرحل معهم أيضاً.

ثم أقل شيئاً. ما أريد قوله كثير جداً، وما لا أريد قوله كثير جداً. حلق نسران فوقنا ثم هبطا على الأرض على مسافة قريبة.

انظروا. النسران قريبان منا جداً.. يزداد جوعهما يوماً بعد يوم، لأن لا أحد يذبح دجاجاً هذه الأيام. ولأنهما لا يجدان أحشاءً يأكلانها.

التقط أوبيورا حصاة، وألقى بها فى اتجاه النسرين اللذين حنفاً قليلاً ثم هبطا ثانية على أفرع أشجار المانجو على مسافة غير بعيدة. قالت أماكا:

- اعتاد الأب نوكوو القول أن النسر فقدت هيبته، بعد مضى سنوات طويلة على زمن كان فيه الناس يحبونها لأنها تتغذى على أحشاء الحيوانات التى تُقدم كأضحيات وقرابين للآلهة التى كانت تجد سعادتها فى ذلك.

قال أوبيورا:

- فى أيامنا هذه، علينا أن نعترف بكرم أخلاق
النسور التى تنتظر طويلاً من يقدم على ذبح دجاجة
قبل أن تنزل إلى الأرض.

حضر الأب أمادى بعد أن انتهى جاجا من قطع
رقبة الدجاجة، وقامت أماكا بلف نصفها داخل كيس
بلاستيك ووضعها فى الثلاجة. ابتسمتُ العمة أفيوما
عندما أخبرها الأب أمادى أنه سيأخذنى معه لأصنف
شعرى.

- أنت تقوم بما يتعين على القيام به يا أبى.. شكراً
لك.. تحياتى لماما جو.. أخبرها أننى سأتى إليها
سريعاً لأضفر شعرى قبل عيد الفصح.

* * *

سقيفة ماما جو فى السوق، أشبه بكشك صغير
يتسع بالكاد لكرسى مرتفع بلا ظهر تجلس هى عليه،
وكرسى صغير أمامها جلستُ أنا عليه، ولأن الأب
أمادى لم يكن باستطاعته التواجد داخل السقيفة
بسبب كتفيه العريضتين، فقد وقف فى الخارج بجانب
عربة يد وخنازير وأناس ودجاجات تسير هنا وهناك.
كانت ترتدى قبعة صوف على الرغم من العرق الذى
رسم مساحات تحف كمي بلوزتها. فى الأكشاك
المجاورة يعمل رجال ونساء آخرون فى قص الشعر
وتصفيفه وتضيفه. أمام كل كشك لافتات خشبية
عليها كلمات غير متناسقة تستند على مقاعد

مكسورة. أقرب اللافات تشير إلى "ماما تشايندو مصففة الشعر الذهبى" و"مصففة الشعر الدولية ماما بومبوى". نساء وأطفال يصيحون فى اتجاه كل امرأة أو فتاة ماضية فى طريقها "هيا لنضفر لك شعرك" .. "تصبحين أجمل عندنا" .. "سأضفر لك شعرك جيداً". فى معظم الأحيان تبدى الفتيات والنسوة استهجاناً للأيدى التى تمسك بهن ويمضين فى طريقهن.

رحبتُ ماما جو بى وكأنتى كنتُ أضفر شعرى لديها لسنوات وسألتنى عن حالة العمه أفيوما، قائلة "منذ شهر تقريباً لم أر هذه المرأة الطيبة التى تعطينى ملابسها القديمة، وإن كنت أدرك أنه ليس لديها الكثير منها على أية حال، لأنها تحاول بقدر استطاعتها تربية أطفالها بشكل جيد.. إنها امرأة قوية". بدا غريباً حديثها بالاجبو الذى تسقط منه كلمات فيصعب فهمه. كانت قد أخبرتُ الأب أمادى أنها ستفرغ من تضيف شعرى فى خلال ساعة، لذلك قبل أن يغادر، أحضر زجاجة كوكا ووضعها بجوار قدم مقعدى.

- أهو شقيقك.

- لا.. إنه قس.

أردتُ أن أضيف أنه الشخص الذى يقود أحلامى بصوته.

- قس كاثوليكي حقيقى؟

- نعم

سألتُ نفسي ما إذا كان هناك قساوسة كاثوليك
غير حقيقيين.

- كل تلك الفجوة تذهب هباء

قالتُ وهي تمشطُ شعري الغزير وتضفره، مستعملة
أصابعها بطريقة تختلف عن الطريقة التي اعتادت
ماما أن تضفر بها شعري دائماً:

- هل لاحظت الطريقة التي ينظرُ بها إليك؟.. إنها
تعني شيئاً.. دعيني أقول لك.

ثم أعرف ماذا نتوقع ماما جو منى قوله، نكنها
كانت قد بدأت تصيح في ماما بومبوى المقابلة لها، ولم
تتوقف ثرثرتها كذلك أثناء تضفيرها لشعري مع
ماما كارو التي كنت أسمع صوتها دون أن أراها لأنها
على بعد بضعة أكشاك. أثناء ذلك تحرك دلو
مغطى في مدخل كشك ماما جو، وخرجت منه كابوريا
بتية. قفزتُ في مقعدى، فلم أكن أتوقع ما يمكن أن
يكون بداخل الدلو. وقفتُ ماما جو وأعدت
الكابوريا إلى مكانها. كانت على وشك الانتهاء من
تضفير شعري عندما دخلت امرأة إلى كشكها،
وطلبت رؤية انكابوريا. رفعتُ ماما جو غطاء الدلو
وقالت:

- أحجامها كبيرة.. أطفال شقيقتى قاموا بجلبها
فجر اليوم بالقرب من بحيرة أدا.

أمسكتُ المرأة الدلو وهزته باحثة عن كابوريا
صغيرة بين الكبيرة، ثم قالت إنها ليست كبيرة بالقدر

الذى تريد، وغادرتُ وسط صيحات ماما جو خلفها
"لن تجدى مثل حجم الكابوريا التى لدى فى أى مكان
آخر فى السوق". أمسكتُ ماما جو بالكابوريا التى
كانت تزحف خارجة من الدلو، وألقت بها داخله،
وتمتمتُ "توقفوا". اعترتني رغبة فى أن أشتري كل
ما بالدلو ثم أقوم بإطلاق سراحها جميعاً،
خصوصاً تلك التى لا تملُّ من محاولة فك أسرها.
فرغتُ ماما جو من شعري قبل عودة الأب أمادى،
وأعطتني مرآة حمراء مكسورة من منتصفها، رأيتُ
فيها قصة شعري وضمائري.

- شكراً.. قصة جميلة.

- لا يصحب رجل شابة جميلة لتصف شعرها ما
لم يكن يحبها.. أنا أقول لك.

أوماتُ برأسى لأننى للمرة الثانية لم أعرف ماذا
أقول.

- أنا أقول لك

كررتُ ماما جو عبارتها ثانية. لمحتُ صرصاراً
يركض خلف مقعدها، وسرعان ما دهسته بقدمها
العارية، ثم بصقتُ فى راحة يدها وفركت يديها معاً،
وقربت إليها الدلو، وبدأت فى ترتيب وضع الكابوريا
داخله. فكرتُ فيما إذا كانت قد بصقت فى كف يدها
قبل أن تبدأ فى تصفيف شعري. قبل لحظات من
عودة الأب أمادى، جاءت امرأة ترتدى دثاراً أزرق
اللون، وتدسُ حقيبة يدها تحت إبطها، واشترت

كل الكابوريا بالدلو . وصفتها ماما جو بالجميلة بالرغم من أنها لم تكن بها أية مسحة من الجمال . تخيلت الكابوريا بعد إعادها من قبل المرأة لعمل حساء .

كان الأب أمادى كريماً مع ماما جو التى أظهرت احتجاجاً واهناً وقالت إنها لا يتعين عليها أن تأخذ مالا نظير تضيفر شعر ابنة شفيق العمه أفيوما . شكرته أثناء سيرنا إلى السيارة . تجاهل شكرى له بطريقة مهذبة تشى بأنه قام بما كان يتعين عليه أن يفعله . ثم وهو يتطلع إلى وجهى قال :

مازلنا نبحث عن يلعب دور البطولة النسائية فى عرضنا المسرحى . ما رأيك لو تجربين التمثيل .. دائماً نختار أجمل فتاة لتلعب دور البطلة .

أخذتُ نفساً عميقاً وصليتُ من أجل ألا تصدر منى فآفة أو تآتاة .

- لا أجد التمثيل .. لم يسبق أن قمتُ بذلك .

- يمكنكِ المحاولة

أدار مفتاح تشغيل محرك السيارة التى بدأت ترتجف وتطلق صريراً حاداً ، وقبل أن يهدئ من سرعتها فى منطقة السوق ، نظر إلى وقال :

- يمكنكِ عمل أى شىء تريدينه .. كامبيلي

أثناء قيادته السيارة قمنا بغناء جماعى بالاجبو .. رفعتُ صوتى حتى صار ناعماً ومعبراً مثل صوته تماماً .

كنيسة سان بيتر الكاثوليكية: جامعة نيجيريا" ..
كلمات مضاءة بالأبيض الفوسفوري، تحملها اللافتة
الخضراء المثبتة خارج الكنيسة. لحظة دخولنا إليها
استنشقنا أمّاكا وأنا عبق بخورها. جلسنا سوياً في
الصف الأمامي، وفخذانا متلامسان. كانت العمّة
أفيوما والآخرون قد سبقونا إلى القداس الصباحي.

ثم يكن لدى كنيسة سان بيتر الشموع الضخمة
والمذبح الرخامي المزخرف مثلما في كنيسة سان
أجنيز. النساء لا يحكمن ربط أوشحتهن حول دءوسهن
لتغطية أكبر قدر ممكن من شعرهن. بعضهن يرتدين
بنطلونات جينز، الشيء الذي يستهجنه أبنا، الذي
يؤكد دائماً ضرورة أن تغطي المرأة شعرها وألا ترتدي
ملابس الرجل خصوصاً في بيت الله.

بينما الأب أمادي واقفاً خلف المذبح مرتدياً زداءه
القطنى الأبيض، يناولنى العشاء الريانى، وأصبعه

تمس لساني، اعترتني رغبة في أن أجتو عند قدميه، لكن غناء الكورال المدوي أعادني إلى نفسي وخطوتُ عائدة إلى مقعدي. شرع في الغناء بالاجبو "تحية السلام.. أختي العزيزة.. أختي العزيز.. اليد في اليد". تصافحتُ الأيدي، وتبادل الجميع العناق. عانقتني أماكا ثم استدارت للخلف لتتبادل العناق مع أفراد عائلة تجلس خلفنا. من مكانه أمام المذبح، ابتسم لي الأب أمادي وتحركت شفثاه. لم أتأكد مما قاله وفكرتُ كثيراً فيما تحركت به شفثاه. أثناء اصطحابه أماكا وأنا في سيارته بعد انتهاء القداس ليوصلنا إلى المنزل، قال لأماكا إنه لم يتسلم اسم تعميدها بعد. قالت إنها غير راغبة في اختيار اسم إنجليزي، فضحك وعرض مساعدته لها في اختيار اسم إذا أرادت.

نظرتُ عبر نافذة السيارة إلى الخارج، حيث المصابيح الكهربائية مطفاة، ومباني الجامعة تبدو وكأن عباءة عملاقة زرقاء داكنة تغطيها. الشوارع مظلمة كأنها أنفاق يحفها سياج من شجيرات على الجانبين. ومن خلف نوافذ البيوت يتبدى وميض أصفر ذهبي خافت لمصابيح الكيروسين، يشبه عيون مئات القطط البرية.

كانت العمة أفيوما تجلس على كرسي بغير ظهر في الشرفة بصحبة صديقة لها، وأوبيورا يجلس على الحصير بين مصباحي كيروسين، وظلال أجسادهم

من حولهم. قمنا. أماكا وأنا، بتحية صديقة العمه
أفيوما وابتسمت لنا.

- الأب أمادى يبعث بتحيته لك ماما. لم يتمكن من
البقاء بعض الوقت لكى يلحق بأناس يريدون لقاءه
بمكتبه فى الكنيسة.

بينما كانت أماكا تهم بالإمساك بأحد المصباحين،
قالت العمه أفيوما:

- اتركى المصباح.. لدى جاجا وتشيفا شمعة
مضاءة بالداخل.

تخفتُ من الوشاح وجلستُ بجانب العمه أفيوما،
أرقتُ حركة الحشرات حول زجاجتى المصباحين.
ذباب صغير أصفر يحلق بعيداً عن ضياء المصباح
متخذاً مساراً قريباً جداً من عيني. العمه أفيوما
تسرد قصة اقتحام أفراد وحدة الأمن الخاص
شقتها. فى جلستهما التى يغلفها ضوء ضبابى، كانت
العمه أفيوما تضيف أبعاداً درامية لقصتها، وصدقتها
لا تكف عن القول "وماذا بعد؟". تقول العمه أفيوما
"انتظرى"، ثم تتحدث باستفاضة. بعد أن أنهت قصتها
صمتت صديقتها لوقت غير قصير قبل أن تسأل:

-أسمعت ما حدث لابن البروفيسور أوكافور؟

تحدثتُ بالاجبو وبقليل من الإنجليزية السليمة
التي تختلف عن إنجليزية بابا التي تأتى على لسانه
عندما يكون بصحبة أناس بيض، والتي ينطق نصف

عباراتها بلهجة أقرب إلى اللهجة النيجيرية، ونصفها الآخر أقرب إلى الإنجليزية السليمة. سألت العمّة أفيوما:

- أوكافور؟

- أوكافور الذى يقطن فى فالتون أفنيو.. ابنه تشيديفو.

- هذا.. صديق أوبيورا؟

- نعم.. لقد سرق أوراق إجابة امتحانات والده وباعها للطلبة.

- ذلك الصبى الصغير؟

- نعم.. والآن بعد إغلاق الجامعة، يتوافد الطلاب إلى منزله لاستعادة أموالهم التى كان قد أنفقها بالكامل.. وبالطبع، أوكافور الذى ضرب ابنه وكسر أسنانه الأمامية، لن يتحدث عما يجرى من أخطاء فى الجامعة، وسيفعل أى شىء ليكسب رضا الرجال الكبار فى ابوجا. إنه أحد الذين يعدون قائمة أساتذة الجامعة من غير الموالين. لقد سمعتُ أنه وضع اسمى واسمك فى هذه القائمة.

- سمعتُ هذا أيضاً.. وماذا سيجرى لتشيديفو؟

- أتريدان علاج الورم السرطانى أم السرطان نفسه؟ لم يعد فى استطاعتنا توفير مصروف جيب لأطفالنا.. وليس بمقدورنا توفير اللحم والخبز لهم.. لذلك علينا أن نعالج المرض وليس أعراضه.. أما إذا

لم نفلح فیتعین علينا إذن ألا ننظر إلى الطفل فى دهشة عندما يقدم على فعل السرقة.

- لا يمكنك تبرير السرقة.

- أنا لا أبررها.. ما أقوله هو ألا يدهش أوكافور وألا يضيع طاقته ويكسر عصاه على جسد ابنه المسكين.. يحدث كل هذا عندما نسترخى ولا نفعلى شيئاً إزاء الطغيان.. وعندئذ يصبح أطفالنا على النحو الذى لم نكن نتوقعه منهم.

أطلقتُ العمّة أفيوما تنهيدة حارة ونظرتُ إلى أوبيورا.. ربما جال بذهنها ما إذا كان من الممكن أن يصبح على النحو الذى لم تكن تتوقعه منه.

- لقد تحدثتُ إلى فيليبيا أمس الأول.

- كيف حالها فى تلك الأرض الغريبة؟

- هى بخير.

- وتعيش كمواطنة من الدرجة الثانية فى أمريكا؟

- تشياكو.. كفاك سخرية.

- إنها الحقيقة.. طوال سنوات إقامتى فى كامبردج كنتُ مثل قردة طورت قدرتها على الجدل.

- لعل الأمر ليس بهذا السوء الآن.

- ذلك ما يخبرونك به. كل يوم يذهب أطباؤنا إلى هناك، وينتهى بهم الأمر إلى القيام بغسيل الأطباق. فى أمريكا لا يصدقون أن النيجيرى يمكنه دراسة

الطب كما يدرسه الأمريكي. ومحامونا يسافرون إلى هناك ويعملون سائقى تاكسى، لأن أمريكا لا تثق فى مهارة المحامى النيجيرى فى القانون.

قادتُ انعمة أفيوما صديقتها.

- أرسلتُ سيرتى الذاتية إلى فيليبيا.

جمعتُ صديقتها أطراف ثوبها معاً ودستها بين ساقها المفتوحتين، ثم نظرت إلى عتمة الليل. ضاقت فتحنا عينيها ربما لاستغراقها فى تفكير عميق.

- أنت أيضاً: أفيوما.

بعد فترة صمت قالت:

-- من سيدفع مصاريف تعليم أماكا وأوبيورا فى الجامعة

- المتعلمون الأقرباء الذين يمكنهم إصلاح الأخطاء يغادرون البلاد ويتركون خلفهم أتضعفاء الذين ليس فى استطاعتهم مقاومة حكم الطغاة.. من إذا سيكسر هذه الدائرة المغنقة؟

قال أوبيورا:

- هذا الكلام غير واقعى وغير معقول يا عمتى تشياكو.

نفترة، ساد صمت مفعم بقدر كبير من التوتر، إلى أن كسر حاجز الصمت صوت بكاء طفل فى الطابق العلوى. قالت العمة أفيوما:

- اذهب إلى حجرتي واستظرنى هناك، أوبيورا

نهض أوبيورا وغادر مكفهر الوجه. اعتذرتُ العمة أفيوما لصديقتها، لكن شيئاً ما حال دون عودتهما لما قبل مداخلة النصبى ذى الرابعة عشرة. وأصبح من الصعب عليهما الاستمرار فى الحديث. سريعاً غادرتُ الصديقة، وسرعان ما اندفعت العمة أفيوما إلى الداخل وكادت تصدم مصباح الكيروسين. سمعتُ صوتاً مكتوماً، ثم صوتها المرتفع:

- أنا لا أنتقد عدم موافقتك على ما قالتة صديقتي، ولكننى أنتقد الطريقة التى أديت بها عدم موافقتك. أنا لا أربى أطفالاً غير محترمين فى هذا المنزل. أتسمعنى؟ أنت لست النصبى الوحيد فى المدرسة الذى ترقى من صف إنى آخر متخطياً ما بينهما. أنا لن أتسامح مع تصرفك الرديء هذا.

خَفَضَتْ صوتها ثم سمعتُ صوت إغلاق باب حجرة نومها. انضمتُ إلى أاماكا فى الشرفة وقالت:

- أنا دائماً أتلقى العصا على راحة يدي، وأوبيورا يتلقاها على ردفه. أعتقد أن ماما لم تكن ترغب فى أن أتلقى العصا على ردفى، ربما لأنها خشيت أن يتسبب ذلك فى تعثر نموى أو شىء من هذا القبيل.

ضحكتُ أاماكا وأصافت:

- أتعرفين؟.. لقد فسرتُ لى ماما سبب تعرضك لذلك العقاب القاسى. وأخبرتتى بما توقعتُ منك، فعنه حتى لا تتعرضين مرة ثانية لمثل ذلك العقاب شديد القسوة.

نظرتُ بعيداً. أمسكتُ أماكا يدي ووضعتها بين راحتي يدها الدافئتين. لم تتحدث ولكنني شعرت أننا نفكر في الشيء نفسه. كم كنا جاجا وأنا مختلفين تماماً في منزلنا عن أبناء عمتي في منزلهم. أخليتُ فقاعات الهواء من حلقي وقلت:

- هل يعتزم أوبيورا حقيقة مغادرة نيجيريا؟

- إنه أحمق.

اعتصرتُ يدي بقوة قبل أن تطلق سراحها.

* * *

شرعتُ العمة أفيوما في تنظيف غرفة التجميد بالثلاجة، التي بدأت تصدر رائحة غير طيبة، بسبب الانقطاع المتواصل للتيار الكهربائي. أزالنا المياه الراكدة التي تسربتُ إلى الأرضية، ثم أخرجتُ أكياس اللحم ووضعتها في قدر. تحولتُ قطع لحم البقر الصغيرة إلى لون بني مرقش، وقطع الدجاجة التي ذبحها جاجا إلى لون أصفر داكن. قلت:

- لحم كثير مهدر.

ضحكت العمة أفيوما.

- مهدر؟.. سأغلي جيداً اللحم مع التوابل.

- ماما.. إنها تتحدث كابنة للرجل الكبير.

قالت أماكا التي شعرتُ بالامتنان لها لأنها لم تسخر مني، وبدلاً من ذلك أطلقت ذات ضحكة

والدتها. كنا جالسين فوق حصير بأرضية الشرفة وتحت شمس الصباح المعتدلة بعد المطر، نستبعد حصوات صغيرة من الأرز نضعها فوق الحصير. بعد الانتهاء من تنقية الأرز فى الآنية المسطحة المطلية بالمينا، تقوم أماكا بتقسيمه إلى أكوام صغيرة تتفخ فى كل كومة لإبعاد القش.

- هذا الأرز الرخيص يسبب مشكلة عند طهيه، فهو يتعجن مهما كان الماء المضاف إليه قليلاً.

تمتت أماكا بعد مغادرة العمة أفيوما. ابتسمتُ. شعرتُ بدفء صحبتها وأنا جالسة بجانبها أستمع إلى أشرطة كاسيت فيلا وأونيكا من مسجلها الصغير الذى زودته بحجرى بطارية جافة. لم يسبق أن شعرتُ بمثل هذا الصمت المريح الذى نتقاسمه أثناء قيامنا بتنقية الأرز بعناية. حتى الهواء بدا ساكناً وزاد من نشاطه قليلاً بعد سقوط المطر وبعد انقشاع السحب من السماء رويداً رويداً.

صوت محرك سيارة تتجه نحو شقتنا عكّر صفونا. كنتُ أعلمُ أن الأب أمادى يمارس عمله المكتبى بالكنيسة هذا الصباح، ومع ذلك تمنيتُ أن يكون هو القادم. تخيلته مبتسماً يتجه إلى الشرفة ممسكاً بإحدى يديه رداء الكاهن حتى يمكنه قفز الدرجات القليلة. استدارت أماكا لتتظر.

- العمة بياتريس!

بسرعة التفتُ إليها. كانت تترجل من تاكسى أصفر متهالك. ماذا تفعل هنا؟.. ماذا حدث؟. لماذا ترتدى

خفها المطاطى طوال الطريق. من انوجو؟. خطت بيضاء
ممسكة بأطراف دثارها الذى بدأ فضفاضاً ويكاد
ينزل عن خصرها فى أية لحظة، وبلوزتها غير مكوية.

- ماما!.. حدث شىء؟

عانقتها بسرعة حتى يمكننى التراجع خطوة لأنظر
إليها. يدها باردة. عانقتها أماكا وحملة حقيبتها
عنها.

- العمة بياتريس.

جاءت العمة أفيوما من الشرفة مسرعة وهى
تجفف يديها فى مقدمة بلوزتها. عانقت ماما ثم
قادتها إلى حجرة المعيشة وهى تمسك بها وكأنها
تعاونها على الحركة.

- أين جاجا؟

قالت العمة أفيوما:

- اجلسى.. أماكا.. خدى نقوداً من حافظتى
واذهبى لتشتري زجاجة مياه غازية لعمتك.

- لا تقلقى.. سأشرب ماءً.

- الماء ليس بارداً بسبب انقطاع التيار الكهربائى

- لا يهم.. سأشربه

جلست ماما بحرص على حافة كرسى من
الخيزران وغشاوة فى نظرات عينيها. أكاد أجزم أنها
لم تتمكن من رؤية الصورة ذات الإطار المكسور
وزهرات الزنبق التى تزين الزهرية.

- أشعر بصداع شديد فى رأسى

ضفطتُ بظهر يدها على جبينها مثل شخص يتحقق من درجة حرارة جسمه المريض بالحمى.

- خرجتُ من المستشفى اليوم، ونصحنى الطبيب بالراحة. لكننى أخذتُ نقوداً من ايوجين وطلبتُ من كيفن أن يوصلنى إلى موقف السيارات. وهناك استأجرتُ تاكسياً وأتيتُ إلى هنا.

- كنت فى المستشفى؟.. ماذا حدث؟

بسرعة سألتُ العمة أفيوما. تطلعتُ ماما فى أحد جوانب الحجرة وحملتُ فى ساعة الحائط المكسور أحد عقريها، ثم نظرتُ إلى.

- تلك الطاولة الخشبية التى نضع عليها الكتاب المقدس.. لقد كسرها على بطنى.

كانت تتحدث وكأنها تقصد بكلامها شخصاً آخر، وكأن الطاولة ليست مصنوعة من نوع قوى من الخشب.

- نزفتُ دماءً كثيرة على الأرض قبل أن يأخذنى إلى سان أجنيز.

هزت ماما رأسها ببطء. خيط دموع رفيع زحف على خديها بالرغم من محاولتها عدم السماح لها بالخروج من عينيها. همست العمة أفيوما:

- لإنقاذه؟

- كان عمره ستة أسابيع.

اتسعت عينا العمة أفيوما.

- ايوجين لم يعلم.. لم أخبره

جلست ماما على الأرض ومدت ساقها أمامها،
وجلستُ إلى جانبها وتلامس كتفانا وتشابكت أيدينا.
أجهشتُ بالبكاء بينما العمة أفيوما تطهى اللحم الذى
تلفت أنسجته على نار هادئة بعد إضافة التوابل
الحريفة إليه. انخرطتُ فى بكاء متصل حتى راحت
فى نوم عميق ورأسها يستند إلى المقعد. قام جاجا
ببسط جسدها على حشية بأرضية حجرة المعيشة.

فى ذلك المساء، وبينما نحن نجلس حول مصباح
الكيروسين بالشرفة، دق جرس الهاتف وكان المتحدث
بابا. تحدثتُ إليه العمة أفيوما وجاءت تخبر ماما:

- أنهيتُ المكالمة.. أخبرته أنني لن أدعك تأتين إلى
الهاتف.

نهضتُ ماما من مقعدها.

- لماذا؟.. لماذا؟

- اجلسى الآن!

ردتُ العمة أفيوما بحدة، لكن ماما لم تجلس.
لحظات ودق جرس الهاتف وكان المتحدث بابا.
سارعتُ ماما بالرد وبعد مرور ربع ساعة تقريباً عادت
ماما وهى تحديق فى نقطة فى الفراغ أعلى من
مستوى عيوننا، وقالت:

- سنغادر غداً، الأطفال وأنا.

- تغادرون إلى أين؟.

- انوجو.. سنعود إلى منزلنا.

- هل جنت؟.. لن تذهبي إلى أى مكان.

- ايوجين سيأتى بنفسه ليأخذنا.

- استمعى إلى.

خَفَضْتُ العمة أفيوما من صوتها. أدركتُ أن الصوت الحازم لن يفيد فى الابتسامة الثابتة على وجه ماما. كانت الغشاوة لاتزال فى عيني ماما. بدتُ وكأنها امرأة مختلفة عن التى جاءت فى ذلك الصباح. بدتُ وقد استحوذتُ عليها قوة غير معلومة.

- على الأقل امكثى بضعة أيام.. لا تعودى بهذه السرعة.

هزتُ ماما رأسها. كان وجهها خالياً من التعبير ما عدا شفتاها المزمومتان.

- ايوجين ليس فى حالة طيبة.. يعانى من الحمى والصداع النصفى.. يحمل على كاهله ما لا يطيقه أحد.. أتعرفين تأثير مصرع إد عليه؟

- ما الذى تقولينه؟

بنفاد صبر، ضربتُ العمة أفيوما بعنف حشرة طارت بالقرب من أذنيها.

- أفيديورا عندما كان حياً، مرت بنا أوقات لم تصرف فيها الجامعة الرواتب لعدة أشهر، ولم نكن

أفيديورا وأنا نملك شيئاً.. ومع ذلك لم يرفع يده على
أبدأ

- أتعلمين أن ايوجين يدفع المصروفات الدراسية
لأكثر من مائة شخص؟.. أتعلمين أن الكثيرين من
الناس يعيشون على ما يقدمه شقيقك لهم؟

- هذا ليس موضوعنا وأنت تعرفين هذا.

- أين أذهب إذا أنا غادرتُ منزل ايوجين؟..
أخبريني.. أين أذهب؟

لم تنتظر إجابة العمة أفيوما.

- أتعلمين كم من الأمهات دفعن بناتهن في
طريقه؟.. أتعلمين كم منهن طلبوا منه أن يدخل
بيناتهن بغير أن يطلبن حتى مهر العروس؟

انفجرت العمة أفيوما في الصباح.

- وبعد؟.. أسألك.. وبعد؟

ألقَتْ ماما بجسدها على الأرضية، وقام أوبيورا
ببسط حصير لكنها استلقت على الجزء الأسمنتي
المكشوف من الأرضية.

- عدت ثانية إلى حديث الجامعة، أفيوما.

قالت ماما بصوت خفيض، ثم نظرت بعيداً راغبة
في انتهاء الحديث بينهما. لم يسبق أن شاهدتُ ماما
على هذا الشكل.. لم يسبق أن شاهدتُ تلك النظرة
في عينيها.. لم يسبق أن سمعتها تقول الكثير في وقت

قصير كهذا. بعد وقت طويل من ذهابها والعمه أفيوما إلى الفراش، جلستُ في الشرفة مع أماكا وأوبيورا الذي علمنى جميع ألعاب الورق.

- الورقة الأخيرة

باعتداد بالنفس، قالت أماكا، ثم وضعت الورقة على الطاولة أمامها.

- أتمنى أن تأخذ العمه بياتريس قسطاً مريحاً من النوم.

التقط أوبيورا الورقة.

- ستكون بخير.

نظرتُ أماكا نحوى وكررتُ.

- ستكون بخير

بسط أوبيورا ذراعه وربتُ على كتفى. لم أدر ماذا أفعل، لذلك سألتُ رغم معرفتى الإجابة:

- هذا دورى

قالت أماكا:

- العم ايوجين ليس رجلاً سيئاً فى الحقيقة.. الناس جميعاً يرتكبون أخطاءً.. أعنى أن بعض الناس لا يمكنهم التعامل تحت الضغوط.

نظرتُ أماكا إلى أوبيورا متوقعة منه أن يقول شيئاً، لكنه ظل صامتاً يدقق فى ورق اللعب بيده. التقطتُ أماكا ورقة لعب إضافية.

- لقد تحمل تكلفة جنازة الأب نوكوو .

كانت لاتزال تنظر إلى أوبيورا، لكنه لم يستجب لها، وبدلاً من ذلك وضع ورقة اللعب على الطاولة قائلاً: "هكذا اللعب". فاز أوبيورا ثانية.

وأنا مستلقية على السرير لم أفكر فى العودة إلى انوجو.. فكرتُ فى ألعاب الورق التى خسرتها.

* * *

على أثر وصول بابا بسيارته المرسيديس، بدأتُ ماما فى ترتيب حقائبنا ثم وضعتها فى السيارة. عانق بابا ماما واستبقاها بجانبه، فأسندتُ رأسها على صدره. لاحظتُ فقدان بابا كيلوجرامات من وزنه، لكننى لم ألحظ الطفح الجلدى على وجهه إلا عند اقترابى منه لأعانقه. بدا وجهه منتفخاً وقد تغير لونه. كنت أنوى عناقه وأدعه يقبل جبهتى، لكننى بدلاً من ذلك وقفتُ وحدقتُ فى وجهه، قال:

- أشكو من بعض الحساسية.. شىء لا يدعو إلى القلق.

عندما ضمنى بذراعيه، أغلقتُ عينى وهو يقبل جبهتى.

همستُ أماكا قبل أن نتبادل عناق الوداع:

- نراكِ سريعاً

وقفتُ خارج الشقة ملوحة حتى لم يعد فى إمكانى رؤيتها من الزجاج الخلفى للسيارة.

فور مغادرتنا، بدأ بابا فى تلاوة الصلاة. كان صوته مختلفاً ومرهقاً. حدقتُ فى ظهر عنقه الذى بدا مختلفاً أيضاً.. بدا أكثر نحافة. التفتُ إلى جاجا. أردتُ أن تلتقى عينانا لأخبره كم رغبتُ كثيراً فى أن أقضى عيد الفصح فى نسوكا، وكم أردتُ أن أحضر تعמיד أماكا، والقداس الذى يقيمه الأب أمادى، وكم خططتُ لكى أغنى بصوت عال. لكن جاجا ثبتَّ عينيه فى النافذة. وفيما عدا متماته بتلاوة الصلاة، ظل صامتاً حتى وصولنا إلى انوجو.

رائحة ثمار الفاكهة ملأت خياشيمى عندما فتح أدامو بوابات منزلنا الكبير، وكأن الأسوار العالية قد احتضنت داخلها رائحة الكاجو والمانجو والافوجادو.

- انظرى، شجيرات الكركديه الأرجوانية على وشك أن تزهر.

قال جاجا لحظة نزلنا من السيارة. كان يشير بأصبعه بالرغم من أننى لم أكن فى حاجة إلى إشارته. شاهدتُ البراعم البيضاء الشكل النائمة وهى تتراقص بفعل نسيم المساء.

فى اليوم التالى، كان أحد السعف.. اليوم الذى لم يذهب فيه جاجا لتناول القربان.. اليوم الذى ألقى فيه بابا الكتاب المقدس فى فضاء الحجرة وكسر التماثيل.

بعد أحد السَّعَف

عمَّ الاضطراب كل شىء بعد أحد السعف. أمطار
غاضبة صاحبت رياح عاصفة اقتلعت جذور شجيرات
النباتات فى الفناء الأمامى للمنزل، واستقرت زهورها
البيضاء والبنفسجية وجذورها الممتزجة بطين التربة
على العشب. وأحدث الطباق المتصل بالقمر الصناعى
المثبت بأعلى الجراج ضجة عالية عند اقتلاعه
وسقوطه فى الطريق المؤدى إلى البوابة الخارجية.
وباب خزانة ملابسى فقد اتزانته وسقط. وسيسى
كسرت طاقم السفارة الصينى الذى تعتزه به ماما
كثيراً.

عندما طلبت ماما من سيسى أن تنظف حجرة
المعيشة للتأكد من عدم وجود قطع متكسرة من بقايا
تماثيل راقصات الباليه المكسورة قد تتسبب فى أذى
لأحد، لم يأت حديث ماما لسيسى بصوت هامس
كالمعتاد. ولم تقم ماما كذلك بإخفاء إدخالها طعام

جاجا إلى حجرته ملفوفاً في ملابس غسيل، لكن بدلاً من ذلك، وضعتُ طعامه في أطباق على طاولة خشبية.

سأل بابا عن جاجا للمرة الأولى في اليوم التالي لأحد السعف. لم يستطع بابا فتح باب حجرته لأن جاجا كان قد أسند طاولة مذاكرته خلف الباب بدلاً من إغلاقه بالمفتاح. قال بابا وهو يدفع الباب:

- جاجا.. جاجا.. هيا لتتناول عشاءك معنا..
أسمعني؟

لم يخرج جاجا من حجرته، ولم يقل بابا شيئاً طوال العشاء. لم يكمل طعامه وشرب ماءً كثيراً، وطلب من ماما أن تطلب من "تلك الفتاة" أن تحضر المزيد من زجاجات الماء. بدا وجهه منتفخاً وقد تزايد الطفح الجلدي.

قبل أن ننهي عشاءنا، جاءت يواندا كوكر وابنتها الصغيرة. وأنا أصافحها محيبة دققتُ النظر في وجهها وجسدها باحثة عما اختلف في حياتها الآن بعد موت إد كوكر، لكنها بدت لي غير مختلفة، ما عدا ملابسها: دثار أسود، بلوزة سوداء، ووشاح أسود يغطي كل شعرها ومعظم جبينها. جلستُ على الأريكة. قالت يواندا وعيناها تنظران إلى ابنتها:

- لقد تكلمتُ أخيراً، يا سيدي.

- حمداً للرب.

قالها بصوت عال جداً حتى أنني قفزت من مقعدي قليلاً. وقالت ماما:

- شكراً للرب.

وقفتُ يواندا وجئتُ أمام بابا.

- شكراً لك يا سيدى.. شكراً لك على كل شىء..

لولا ذهابنا إلى المستشفى بالخارج لما شفيت ابنتى.

- انهضى يواندا.. الفضل كله للرب وحده.

* * *

فى ذلك المساء، وبينما بابا فى حجرة مكتبه
يصلى، ذهبتُ إلى باب حجرة جاجا، دفعته وسمعتُ
صوت احتكاك طاولة مذاكرته بالأرضية قبل أن يفتح.
أخبرته عن زيارة يواندا فأوماً برأسه، وقال إن ماما
أخبرته أن ابنة إد كوكر فقدتُ النطق منذ موت
والدها، وقام بابا بتوفير المال الذى أتاح لها العرض
على أفضل أطباء ومعالجين نفسيين فى نيجيريا وفى
الخارج. قلت:

- لم أعلم أنها عجزتُ عن الكلام منذ مصرع
والدها.. لقد مرت أربعة أشهر الآن.. شكراً للرب.

نظر جاجا فى صمت لفترة. تعبير وجهه ذكرنى
بالنظرات القديمة التى اعتادتُ أماً أن توجهها لى
والتي جعلتنى أشعر بالأسف لأشياء لم أكن متأكدة
منها. قال جاجا:

- لن تشفى أبداً.. ربما استعادتُ النطق الآن..
لكنها لن تشفى أبداً

عند مغادرتي حجرة جاجا، دفعتُ طاولة مذاكرته قليلاً، وتساءلتُ لماذا لم يستطع بابا فتح باب جاجا عندما حاول ذلك من قبل مع أن طاولة المذاكرة لم تكن ثقيلة.

* * *

كلما فكرتُ فيما سيحدث عندما لا يذهب جاجا لتناول القربان مرة ثانية يتملكني الفزع. كنتُ أعلم أنه لن يذهب. رأيتُ ذلك في فترات صمته الطويلة وفي شفتيه المزمومتين وفي عينيه المثبتتين لوقت طويل على نقاط غير مرئية.

في يوم الجمعة الكبيرة، تحدثتُ العمة أفيوما إلينا هاتفياً لأننا لم نذهب لأداء صلوات الصباح كما خطط بابا من قبل. أثناء الإفطار ظلتُ يدا بابا ترتعشان إلى درجة أنه سكب بعضاً من كوب الشاي الذي يمسك به. راقبتُ قطرات الشاي وهي تزحفُ على الطاولة الزجاجية. قال إنه يحتاج إلى قسط من الراحة قبل أن نذهب في المساء إلى الاحتفال بآلام المسيح بين ليلة العشاء الأخير وموته، ذلك الاحتفال الذي يؤمه عادة الأب بينيديكت قبل تقبيل الصليب.

كنا قد ذهبنا وحدنا إلى الاحتفال المسائي في الجمعة الكبيرة العام الماضي لأن بابا كان منشغلاً بشيء ما في صحيفة ذي استاندرد. سرنا جاجا وأنا إلى الصليب الخشبي أولاً، ثم قبلتهُ أنا وشعرتُ ببرودة في شفتي وبرجفة غمرت جسدي كله. عند جلوسنا

بكيْتُ بكاءً صامتاً بدموع تجرى بفزارة على وجنتي.
كثير من الناس حولي شاركوني البكاء. كان بابا دائماً
يبدي سروره بدموعي. مازلت أذكر بوضوح كيف
انحنى مرة ورَبَّتْ بلطف على وجنتي. وبالرغم من عدم
تأكيد وقتها من سبب بكائي إلا أنني شعرتُ بالزهو
لما فعله بابا.

كنتُ أفكر في ذلك قبل أن تتصل العمّة أفيوما
هاتفياً. دق جرس الهاتف كثيراً. كان بابا نائماً،
فاعتقدتُ أن ماما سترفع سماعة الهاتف وتجيب،
لكنها لم تجب، لذلك ذهبتُ إلى حجرة المكتب
وأمسكت بالسماعة. كان صوت العمّة أفيوما خافتاً
جداً على غير المعتاد.

- أخطروني بإنهاء خدمتي.

وبدون أن تنتظر حتى أجيها، قالت:

- كيف حالك؟.. بسبب ما أسموه بالنشاط غير
القانوني..! أماي شهر واحد وتنقطع صلتى بالجامعة.
لقد تقدمتُ للسفارة الأمريكية بطلب تأشيرة زيارة..
أبلغتُ الأب أمادي.. سيفادر لعمل تبشيري في ألمانيا
نهاية الشهر.

لطمتان في وقت واحد. أصابتنى حالة من
الذهول. سألتُ العمّة أفيوما عن جاجا. وأنا أتعثّر في
سيرى، ذهبتُ إلى حجرته. قال بعد أن أنهى حديثه
مع العمّة أفيوما:

- سنذهب إلى نسوكا اليوم.. سنقضى عيد الفصح
في نسوكا.

لم أسأله ماذا يعنى أو كيف سيقنع بابا لكى يسمح
لنا بالذهاب. راقبته يقرع باب حجرة بابا ويدخل:
- سنذهب إلى نسوكا.. كامبيلى وأنا.

سمعتة. لم أسمع ما قاله بابا، ثم سمعتُ جاجا
يقول:

- سنذهب إلى نسوكا اليوم وليس غداً.. إذا لم
يوصلنا كيفن فسندذهب حتى لو اضطررنا إلى السير
على الأقدام.

وقفتُ ساكنة أمام الدرج. يداى ترتعشان بشدة.
ذهبتُ إلى حجرتى وجلستُ بجوار النافذة أنظر إلى
شجرة الكاجو بالخارج. جاء جاجا إلى حجرتى
ليبلغنى بموافقة بابا، وبأن كيفن سيوصلنا إلى هناك.
كان يمسك بحقيبة رتبها على عجل دون أن يفلقها.
وقف يراقبنى وأنا أضع بعض أغراضى فى حقيبة.
سألتُ:

- بابا لايزال فى سريره؟

لم يجب واستدار ليهيبط الدرج. طرقتُ باب حجرة
بابا وفتحته. كان جالساً على السرير ومنامته
الحريرية غير مهندمة، وماما تصب له ماءً فى كأس.
قلت:

- وداعاً، بابا.

نهض ليعانقنى، ثم قال وهو يقبلنى فى جيبى:

- نراكما سريعاً.

عانقتُ ماما قبل أن أغادر الحجرة. سرتُ ببطء حتى هبطتُ الدرج. كان جاجا فى انتظارى عند أسفل الدرج. مدَّ ذراعه وتناول حقيبتى. كان كيفن واقفاً بجانب السيارة عند خروجنا.

- من سيأخذ والدك إلى الكنيسة؟.. والدك ليس فى صحة جيدة تسمح له بقيادة السيارة.

سأل وهو ينظر إلينا فى ريبة. ظل جاجا صامتاً لفترة طويلة حتى أدركتُ أنه لن يجيب. قلت:

- بابا طلب أن تأخذنا إلى نسوكا.

هز كتفيه استهجاناً وتمتم قبل إدارة محرك السيارة.

- ألا يمكنكما الذهاب غداً؟

ظل كيفن صامتاً طوال الطريق. رأيتُ عينيه من وقت لآخر فى المرآة الخلفية تتظران فى حدة نحونا، وفى أكثر الأحيان إلى جاجا.

* * *

غمر العرق جسدى كله. كنا قد تركنا الباب الخلفى لمطبخ العمه أفيوما مفتوحاً على آخره بالرغم من الحشرات التى تطنُّ من حولنا وتطير فى دوائر فوق قدر الحساء. قالت أماكا إن علينا أن نختار بين

الحشرات وبين الجو الحار. ارتدى أوبيورا قميصاً
كاكى اللون وبنطلوناً قصيراً ولا شيء آخر. انحنى فوق
موقد الكيروسين محاولاً ضبط شعلة النار وتقليل
الدخان المتصاعد. كانت عيناه قد تلطختا ببقع
سوداء. قال:

- علينا أن نستعمل موقد البوتاجاز لكل شيء الآن،
فلا فائدة من توفير الغاز الآن طالما أننا لن نحتاجه
طويلاً.

بدأ العرق يحدد موضع ضلوع ظهره. التقط جريدة
قديمة وحرك بها الهواء نحوه لفترة ثم وجه عدة
ضربات للحشرات.

- لا تضربها فى اتجاه القدر.

كانت أماكا تصب زيت النخيل فى القدر. قال
أوبيورا وهو يتابع توجيه الضربات للحشرات:

- علينا أن نستعمل أيضاً زيت الخضراوات فى
هذه الأسابيع القادمة.

- تتحدث مثل ماما وكأنها حصلت بالفعل على
التأشيرة.

قالت أماكا فى حدة وهى تضع القدر على موقد
الكيروسين الذى أحاطتْ شعلته بالقدر بلون لهب
برتقالى يبعث دخاناً، فى انتظار محاولات أوبيورا
للتوصل إلى شعلة ذات لهب أزرق نظيف بغير دخان.

- ستحصل على التأشيرة.. لنكن إيجابيين

- ألم تسمع كيف يعامل موظفو السفارة الأمريكية النيجيريين؟.. إنهم يهينونك ويتهمونك بالكذب، وفوق كل هذا يرفضون منحك تأشيرة.

- ستحصل ماما على التأشيرة. الجامعة تكفلها.

- الجامعات تكفل الكثيرين الذين لم يحصلوا على تأشيرة.

هاجمنى السعال بسبب دخان الموقد الذى امتزج بحرارة الجو وبالذباب، وشعرتُ بدوار. قالت أماكا:

- كامبيلى.. اذهبى إلى الشرفة حتى يذهب الدخان.

- لا.. لا شىء..

- اذهبى.

خرجتُ إلى الشرفة ولم تهدأ نوبة السعال. لكن لم يكن هناك استياء فى عينى أماكا، ولا حدة فى صوتها، ولم تقلب شفيتها. شعرتُ بامتنان لها عندما نادتُ علىّ بعد قليل من الوقت وطلبتُ مساعدتى لها فى تقطيع خضراوات الحساء. تناولنا الطعام فى الشرفة برغم أن الجو الحار بها لا يقل كثيراً عن جو المطبخ. كانت قضبان الشرفة لا تختلف كثيراً عن يد قدر يغلى ما بداخله. قالت أماكا ونحن نجلس على حصير حول الطعام:

- اعتاد الأب نوكوو القول أن شمساً غاضبة فى فصل ممطر يعنى أن أمطاراً غزيرة قادمة؛ وأن الشمس تحذرنا من المطر.

تناولنا طعامنا بسرعة بسبب حرارة الجو. كانت العمة أفيوما قد ذهبتُ بصحبة جاجا إلى مركز الشرطة لكي تحصل على بيان يثبت أنها لم يسبق لها أن اتهمت بارتكاب جريمة لتقدمه في المقابلة بالسفارة الأمريكية. قالت أماكا:

- أعتقد أننا لن نحتاج إلى حماية أبوابنا بالقضبان الحديدية في أمريكا.

- ماذا؟

عندما قام بعض الطلبة باقتحام مكتب ماما بالجامعة وكسره وسرقة أسئلة الامتحان، أبلغت المسؤولين باحتياجها إلى قضبان حديدية لباب مكتبها ونافذة، لكنهم قالوا إنه ليس لديهم نقود مخصصة لذلك.. أتدرين ماذا فعلت؟

استدارتُ أماكا ونظرتُ إلىّ. وابتسامة صغيرة على جانب شفيتها. هزرتُ رأسي متسائلة:

- ذهبتُ إلى موقع بناء وهناك زودوها بقضبان حديدية بالمجان، ثم طلبتُ مساعدتنا أوبيورا وأنا في تأمين مكتبها. قمنا بثقب فتحات في الحائط الملاصق للباب والنافذة، وأدخلنا القضبان فيها وثبتناها في الحوائط بالاسمنت.

- هكذا؟

- ثم بعد ذلك وضعتُ لافتة على باب مكتبها كتبت عليها "أسئلة الامتحان في خزانة البنك".

ابتسمتُ أماكا وقالت:

- لن أكون سعيدة فى أمريكا.. فمثل هذه الأشياء
غير موجودة هناك.

- ستشربين حليباً.. حقيقياً.. صافياً من زجاجة
بدلاً من مسحوق اللبن المجفف أو حليب الصويا.

ضحكتُ أماكا ضحكة من قلبها، وقالت:

- كم أنت خفيفة الظل، كامبيلي

لم يسبق أن سمعتُ مثل هذا من قبل. ردّدتُ
عبارتها أكثر من مرة بينى وبين نفسى حتى يمكننى
استرجاعها فيما بعد مرات أخرى. لقد أمكننى أن
أجعلها تضحك.

هطلتُ أمطار غزيرة وانسكبت بكثافة إلى درجة
أصبح من المستحيل رؤية المباني المجاورة. امتزجتُ
السماء والأرض والمطر فى شكل صفائح رقيقة فضية
اللون تهبط على نحو مستمر ومتصل. قمنا بوضع
دلاء بالشرفة لجمع ماء المطر، وسرعان ما امتلأ على
آخره. هرع الأطفال راكضين إلى الفناء بقمصانهم
وينظلوناتهم القصيرة يرقصون ويتقافزون تحت
المطر.. هذا النوع النظيف من المطر الذى لا يهطل
مصحوباً بالغبار ولا يترك بقعاً بنية على الملابس. ثم
توقف المطر فجأة بالسرعة نفسها التى بدأ بها
هطوله، وطلعت الشمس مرة ثانية.

من الشرفة رأيتُ سيارة الأب أمادى تستدير فى اتجاه المجمع السكنى. رآها أوبيورا أيضاً وسأل ضاحكاً:

- يزورنا الأب أمادى كثيراً عندما تكون كامبيلى هنا لم يتوقفا - أماكا وأوبيورا - عن الضحك أثناء صعود الأب أمادى الدرج بقفزات سريعة.
- أعلم أن أماكا مارست هوايتها وتناولتني بعباراتها الساخرة.

لاحظتُ كيف تشبث به تشيما، وكيف التمعتُ عيون أماكا وأوبيورا وهما ينظران إليه. سألته أماكا عن عمله التبشيرى فى ألمانيا، لكننى لم أسمع كثيراً مما قال. غمرتنى انفعالات تسببت فى إحداث تقلصات بمعدتى.

- هل رأيت كامبيلى تزعجنى مثلك هكذا؟
وجه الأب أمادى سؤاله لأماكا بينما كان ينظر نحوى. أعرف أنه قال ذلك ليلفت نظرى.
قالت أماكا:

- التبشيريون البيض أحضروا لنا هنا إلههم الأبيض ليعظنا بلغتهم.. الآن نحن نعيد إلههم إليهم.
بابتسامة متكلفة قال:

- نحن نذهب فى معظم الأحيان إلى أوروبا وأمريكا حيث يقل عدد القساوسة.

ضاحكة قالت أماكا:

- يا أبى.. أصدقنى القول!

- فقط إذا حاولت أن تكونى مثل كامبيلى ولا
تضايقينى كثيراً.

دق جرس الهاتف. رسمتُ أماكا تعبيراً على وجهها
قبل أن تتجه إلى داخل الشقة. جلس الأب أمادى
بجانبى.

- يبدو عليكِ القلق.

قبل أن أفكر فيما سأقول، بسط يده وضرب
ساقى، ثم فتح راحة يده ليرينى بقايا بعوضة ودماء.
قال وهو يرمقنى:

- تبدو سعيدة وهى تتغذى عليكِ.

- شكراً لك.

مد يده ليمسح بقعة فى ساقى. شعرتُ بدفء
وحيوية أصبعه. لم أدرك أن أبناء عمتى غادروا. الآن
والشرفة ساكنة أمكننى سماع قطرات المطر وهى
تنزلق فوق أوراق النبات. قال:

- أخبرينى.. ما الذى تفكرين فيه؟

- لا شىء يهم

- ما تفكرين فيه يهمنى دائماً، كامبيلى.

وقفتُ وسرت خطوات إلى الحديقة. قطفْتُ زهور
الألامندا الصفراء التى لاتزال رطبة واحتفظت بها فى
راحة يدي.

- كنتُ أفكر فى بابا.. لا أدرى ما سيحدث عند عودتنا.

- هل اتصل هاتفياً؟

- نعم.. جاجا رفض الذهاب ليحيب على الهاتف، ولم أذهب أنا كذلك.

- هل أردتِ ذلك؟

سأل برقة. لم أكن أتوقع منه أن يسأل.

- نعم.

همستُ حتى لا يسمع جاجا بالرغم من عدم تواجده بالقرب منا. لم أرد أن أتكلم مع بابا، أو أن أسمع صوته، أو أن أخبره ماذا أكلتُ وماذا صليتُ حتى يبدى استحسانه وبيتسم ابتسامة عريضة تفضنُ زاويتي عينيه. لذلك أردتُ ألا أتكلم معه.. وأردتُ أن أرحل مع الأب أمادى أو مع العممة أفيوما ولا أعود أبداً. قلتُ:

- موعد رحيل العممة أفيوما ربما يحل بعد بدء المدرسة بأسبوعين.. لا أدرى ماذا سنفعل.. جاجا لا يتحدث عن الغد أو الأسبوع المقبل.

تقدم الأب أمادى خطوة فى اتجاهى ووقف قريباً جداً منى حتى كاد جسدانا يتلامسان. أخذ يدي فى يده وبعناية حرك زهرة من أصبعى إلى أصبعه.

- عمته تفكر فى ضرورة التحاقكما جاجا وأنت بمدرسة داخلية.. أنا ذاهب إلى انوجو الأسبوع المقبل

لأحدث مع الأب بينيديكت.. أعلم أن والدك يستمع له.. سأطلب منه أن يقنعه بالمدرسة الداخلية حتى يمكنكما جاجا وأنت بدء النصف الثاني من العام هناك.. سيكون هذا مرضياً؟

أومأتُ برأسى ونظرتُ بعيداً. صدقتُ قوله بأن كل شيء سيكون على ما يرام لأنه قال ذلك. فكرتُ فى دروس التعلم بطريقة السؤال والجواب، وفى الإجابة "لأنه قال ذلك، ولأن كلماته صادقة".. لم أستطع تذكر السؤال.

- انظرى إلى كامبيلي

كنت أخشى النظر إلى اللون البنى الدافئ فى عينيه.. خشيتُ إحساس الخدر الذى قد يدفعنى لأن ألقى بذراعى حوله وأشبك أصابع يدي معاً خلف عنقه ولا أدعه يذهب. استدرتُ.

- أهذه الزهرة التى يمكنك امتصاص رحيقها؟
الزهرة ذات الرحيق الحلو؟

كان قد حرك زهرة الألامندا بعيداً عن أصبعه وراح يدقق فى بتلتها الصفراء. ابتسمتُ.

- لا.. إنها زهرة الاكسورا التى يمتص رحيقها الحلو.

ألقى بالزهرة بعيداً وصغرّ خده مستاءً.. ضحكتُ وأنا أتخيله يمتص الرحيق المر لزهرة الألامندا.

ضحكتُ؛ لأن في عيني الأب أمادى البنية أمكننى رؤية
صورتى منعكسة فيهما.

* * *

في تلك الليلة، استحممتُ بنصف دلو من ماء
المطر. لم أفرك يدي اليسرى التي أمسك بها الأب
أمادى برقعة وحرك الزهرة بعيداً عن أصبعي. أيضاً لم
أقم بتسخين ماء المطر لأننى خشيت أن يزيل التسخين
رائحة السماء من ماء المطر. وجدتُ نفسى. وجدتتى
أغنى وأنا أستحم. كانت هناك دودة فى حوض
الاستحمام.. تجنبتها وراقبتُ الماء يحملها ويهبط بها
إلى فتحة الصرف.

بعد توقف هطول المطر، هبتْ نسمات باردة
أجبرتنى على ارتداء سترة، وارتدتْ العمة أفيوما
قميصاً طويل الكم. كنا جميعاً نجلس فى الشرفة
نتحدث عندما اقتربتْ سيارة الأب أمادى أمام الشقة،
قال أوبيورا:

- قلتَ لنا إنك مشغول جداً اليوم يا أبى.

- قلتَ ذلك لأبين نفاذ صبرى من الكنيسة

بدا الأب أمادى متعباً. ناول أماكا قطعة من الورق
وأخبرها بأنه كتب فيها بعض الأسماء المناسبة التى
تبعث على الضجر، وعليها فقط أن تختار واحداً.

لم تأخذ أماكا الورقة، وضحكت:

- أخبرتك أننى لن آخذ اسماً إنجليزياً يا أبى.

- هل لى أن أسألك لماذا؟

- ولماذا أضطر إلى ذلك؟

- لأن السائد هكذا. دعينا الآن ننسى إذا كان ذلك خطأ أم صواب.

لاحظتُ ظلالاً تحت عينيه.

- عندما قدم التبشيريون لأول مرة، أصرُّوا على أن يتم التعميد بأسماء إنجليزية وليست بالاجبو.. ألا يجب أن نتقدم خطوة إلى الأمام؟

بهدوء قال الأب أمادي:

- ليس من الضروري أن يستخدم أحد اسم تعميده.. انظري إلى.. أنا دائماً استخدم اسمي بالاجبو، رغم أنني عمّدتُ باسم مايكل.

رفعتُ العمة أفيوما بصرها عن الأوراق التي تقوم بملئها:

- أماكا.. اختاري أي اسم ودعي الأب أمادي يذهب لعمله.

- ما تقوله الكنيسة هو أن أي اسم إنجليزي يجعل التعميد سليماً.. إن اسم تشياماكا بالاجبو يعني "الرب جميل"، وكذلك اسم "تشيما" يعني "الرب يعرف أفضل"، وأيضاً اسم "تشيوكا" يعني "الرب هو الأعظم".. أليست هذه الأسماء بالاجبو تعظم الرب وتجله، مثلها مثل الأسماء الإنجليزية بول وبيتر وسيمون؟

بدأ الضيق يتملك العمة أفيوما.. أعرف ذلك بصوتها العالي وبنبرته الحادة.

- أماكا.. ليس عليك أن تبرهنى لنا عدم معقولية هذا الشيء.. فقط تعمدي بأى اسم ولن يجبرك أحد على استخدامه بعد ذلك!

قالت أماكا لأمها إنها لا توافق على ذلك، ثم توجهت إلى حجرتها وأدارت مفتاح تشغيل المسجل بموسيقى عالية الصوت. قامت العمدة أفيوما بالطرق على باب حجرتها، وقالت لها بصوت مرتفع إنها إذا لم تغلق صوت المسجل فى الحال فسيكون الصنف نصيبها. خفّضت أماكا صوت المسجل فى الحال، وغادر الأب أمادى بابتسامة مرتبكة ترتسم على وجهه.

فى ذلك المساء، تناولنا العشاء معاً فى جو عائلى حميم، لكن دون ضحك كثير. فى اليوم التالى، الموافق أحد الفصح، لم تنضم أماكا إلى بقية الشابات اللاتى ارتدين جميعاً ملابس بيضاء وحملوا شموعاً مشتعلة وأوراق جرائد مطوية لاصطياد الشمع المنصهر قبل أن يلوث ملابسهن، وعلى صدر كل منهن ثبتت ورقة عليها اسم التعميد: مارى، وفيرونيكا. شبان آخرون علقوا على صدورهم أسماء التعميد: بول، وجيمس. بعض الفتيات كن أشبه بالعرائس. تذكرتُ تعميدى وكيف أن بابا وصفنى ساعتها بعروس المسيح، ودهشت لأننى كنت أعتقد أن الكنيسة هى عروس المسيح.

* * *

اعتبرت العمة أفيوما رغبة في الحج إلى أوكبى. أخبرتنا أنها لم تدر سبب رغبتها الفجائية تلك، وإن أرجعت السبب إلى اعتقادها أن سفرها ربما يستغرق وقتاً طويلاً. أماكا وأنا أبدينا رغبتنا في الذهاب معها إلى أوكبى، لكن جاجا قال إنه لن يذهب ثم صمت لفترة كافية وكأنه يتحدى أى شخص يسأله لماذا. قال أوبيورا إنه سيظل بالمنزل أيضاً مع تشيما. لم تلق العمة أفيوما أهمية لذلك. ابتسمت وقالت إنه طالما ليس معهن رجل فستطلب من الأب أمادى أن يصحبهن إذا أراد. قالت أماكا:

- سأتحول إلى خفاش إذا وافق الأب أمادى.

بعد أن أنهت العمة أفيوما مكالمتها الهاتفية، قالت إنه سيأتى معنا. قالت أماكا:

- وافق لوجود كامبيلى معنا.. لم يكن سيقبل أبداً لولا كامبيلى.

أقلتنا العمة أفيوما بالسيارة إلى قرية مترية على بعد ساعتين. جلستُ فى المقعد الخلفى مع الأب أمادى، تفصلنى عنه مسافة فى الوسط. اشترك الأب أمادى وأماكا فى الغناء بينما كان الطريق غير الممهّد يتسبب فى تمايل السيارة من جانب إلى آخر، الأمر الذى جعلنى أتخيل ذلك التمايل رقصاً. انضممتُ إلى الغناء أحياناً وفى أحيان أخرى اكتفيت بالسماع، وأنا أتساءل عما سيكون عليه الأمر إذا ما اقتربتُ أكثر وقطعتُ تلك المسافة بينى وبينه وأرحتُ رأسى على كتفه.

عندما استدارت السيارة فى اتجاه طريق قدر على يمينه لافتة كتب عليها "مرحباً فى أوكبى"، أول ما رأيت هو مئات السيارات التى تحمل ملصقات كتبت حروفها على عجل وبغير إتقان: "حجاج كاثوليك". تحركت السيارة بصعوبة شديدة داخل القرية الصغيرة، التى قالت العمدة أفيوما عنها إن عدد سياراتها لم يكن يزيد عن عشر سيارات إلى أن حدث ورأت فتاة قروية صورة "المرأة الجميلة". التزاحم الشديد جعل البعض يألف رائحة البعض الآخر على اعتبار أنها رائحتهم. النساء يتعثرن فى سيرهن ويسقطن على ركبهن والرجال يجأرون بالصلوات وسط حفيف حبات مسبحة الكاهن. الناس يصيحون ويشيرون بأيديهم "انظروا.. هناك أعلى الشجرة.. هذه سيدتنا!". آخرون يشيرون فى اتجاه الشمس "هى هناك".

وقفنا تحت شجرة ضخمة من أشجار الغابة فى أوج إزهارها.. بتلات زهورها بلون النار تغطى الأرض. عندما خرجت الفتاة الشابة، تمايلت أشجار الغابة المتوهجة وتساقطت زهورها المتوهجة كسقوط المطر. الفتاة نحيلة ووقورة ومرتدية البياض، ورجال أقوياء يقفون من حولها لكى لا تتصرف بقسوة أو باستعلاء. أشجار أخرى بدأت فى الاهتزاز بقوة مخيفة وكأن شخصاً يهزها. الأشرطة التى تحدد وتحيط موقع الرؤية كانت تهتز أيضاً برغم عدم وجود ريح. تحولت الشمس إلى البياض. ثم رأيتها.. العذراء

المباركة. صورة في الشمس الشاحبة. ابتسامة على وجه رجل في رده المزين بحبات مسبحة يضغط بذراعه على ذراعى. كانت في كل مكان.

أردت أن أمكث فترة أطول لكن العمة أفيوما قالت إنه يتعين علينا المغادرة، لأنه سيكون من الصعب جداً قيادة السيارة للعودة إذا انتظرنا حتى وقت مغادرة معظم الزائرين معاً. اشترت وشاحاً يتدلى من الكتفين ومسبحة وقارورات صغيرة تحتوى على ماء مقدس من بعض البائعين أثناء سيرنا إلى السيارة. بعد صعودنا وقبل أن يدور محرك السيارة، قالت أماكا:

- لا يهم إذا ظهرت سيدتنا أو لم تظهر.. ستظل أوكبي دائماً لها وضع خاص لأنها كانت سبباً في حضور كامبيلي وجاجا لأول مرة إلى نسوكا.

- أيعنى هذا انك تعتقدين في ظهور العذراء المباركة؟

سأل الأب أمادى مماًزحاً في شىء من سخرية.

- لا.. لم أقل ذلك.. ماذا عنك؟.. هل تعتقد في ذلك؟

لم يقل شيئاً وانشغل في إنزال زجاج نافذة السيارة لإخراج ذبابة طنانة. قلت من غير تفكير:

- أنا شعرت بوجود العذراء المباركة هناك.

كيف يمكن لأى شخص ألا يعتقد في ذلك بعد الذى رأيناه؟.. التفت إلى الأب أمادى ونظر مدققاً.

رأيته من زاوية عيني. كانت هناك ابتسامة رقيقة على وجهه. أَلَقْتُ العمة أفيوما نظرة سريعة علىّ ثم أعادت وجهها إلى الطريق، وقالت:

- كامبيلي على صواب.. شيء من عند الرب كان يجرى هناك.

* * *

رافقتُ الأب أمادي إلى الحرم الجامعي لكي يودع العائلات هناك. تشبث كثير من أطفال الأساتذة به، وكأن كلما زاد تشبثهم به أمكنه البقاء ولا يغادر نسوكا. لم نتحدث كثيراً في السيارة وإن غنينا معاً بالاجبو مع غناء الكورال بالمسجل.. إحدى هذه الأغنيات أزلت جفاف فمي، وقلت "أحبك".

استدار نحوي وعلى وجهه تعبير لم يسبق أن رأيته. كانت عيناه حزينتين دائماً. مال بجسده نحوي وضغط وجهه في وجهي. أردتُ أن تلتقي شفاهنا لكنه حرك وجهه بعيداً.

- أنت في السادسة عشرة، كامبيلي.. أنت جميلة.. ستجدين من الحب أكثر مما تحتاجين إليه في حياتك لم أدر أضحك أم أبكي.. لم يقل الصواب.. أبدأ لم يقل الصواب.

عند عودتي سألتني العمة أفيوما إذا كنت على مايرام. كانت تنظر إليّ ولسان حالها يقول إنني لست على مايرام.

- أمتأكدة أنك بخير؟

- نعم يا عمتي.

- ابتهجى إذن.. ومن فضلك صلى من أجل أن أوفق فى مقابلة التأشيرة.. سأذهب إلى لاجوس غداً

غمرتنى موجة حزن، وقلت:

- سأفعل يا عمى

أعرف أنني لن أفعل.. لا يمكننى أن أصلى لكى تحصل على تأشيرة. أعرف أن هذا ما تريده، وأنها لاتملك خيارات أخرى أو أى خيارات أخرى. لكننى أجد نفسى لا أصلى لكى تحصل على التأشيرة.. لأستطيع أن أصلى من أجل شىء لا أريده أنا.

كانت أماكا مستلقية على السرير فى حجرة النوم تستمع إلى الموسيقى ومسجل الكاسيت بجوار أذنها. جلستُ على السرير وتمنيتُ ألا تسألنى عن الوقت الذى أمضيته مع الأب أمادى. لم تقل شيئاً. فقد ظلت تهز رأسها مع إيقاع الموسيقى. بعد فترة قالت:

- كنتِ تصاحبين فيلا فى الغناء.

- أنا؟

- كيف يمكننى الحصول على أشرطة فيلا فى أمريكا؟

أردتُ أن أخبر أماكا أنني متأكدة أنها ستعثر على أشرطة فيلا فى أمريكا وأية أشرطة أخرى تريدها، ولكن لم أفعل.. ربما لأننى أفترض بذلك أن العمه أفيوما ستحصل على التأشيرة، كما أنني لم أكن متأكدة من أن أماكا ترغب فى سماع ما أقول.

* * *

ظلت معدتى غير مستقرة حتى عادت العمة أفيوما من لاجوس. كنا فى انتظارها بالشرفة بالرغم من عودة التيار الكهربائى، وكان من الممكن أن نكون بالداخل نشاهد التليفزيون. لم تطلق الحشرات طنينها حولنا ربما لأن مصباح الكيروسين مطفأ، أو ربما كانت قد انتابها القلق. أحضرتُ أماكا المروحة الكهربائية التى أحدث أزيزها - مع طنين الثلاجة بالداخل - صوتاً موسيقياً. عندما توقفتُ السيارة فى مواجهة الشقة، قفز أوبيورا وركض خارجاً.

- ماما.. كيف جرت الأمور؟.. هل حصلت عليها؟

قالت لحظة دخولها الشرفة:

- حصلت عليها.

- أنت حصلت على التأشيرة؟

صرخ أوبيورا سريعاً، وردد تشيما قوله واندفع يعانق والدته. أماكا وجاجا وأنا لم نقف وقلنا مرحباً للعمة أفيوما وراقبناها عند دخولها لتغيير ملابسها. خرجتُ سريعاً ترتدى دثاراً حول صدرها. جلستُ وطلبت من أوبيورا كأساً من الماء. قال جاجا:

- لا تبدين سعيدة يا عمتى.

- أنا سعيدة.. أتعلم كم من الناس لم يحصلوا عليها؟.. امرأة كانت بجانبى بكت حتى خلتُ الدماء قد غاضت من وجهها. سألتهم: كيف ترفضون منحنى التأشيرة؟.. أطلعتم على ما لدى من مال فى البنك..

كيف يمكنكم القول أنتى لن أعود إلى نيجيريا؟.. لدى عقار هنا.. أنا أملك عقاراً. ظلت تكرر مرات قولها: لدى عقار. أعتقد أنها أرادت حضور زفاف شقيقتها فى أمريكا.

سأل أوبيورا:

- لماذا رفضوا منحها التأشيرة؟

- لا أعلم.. إذا كان مزاجهم معتدلاً سيمنحونك التأشيرة، وإذا لم يكن مزاجهم كذلك يرفضونك. هذا ما يحدث عندما تبدو بلا قيمة فى عين شخص ما.. نحن مثل كرات القدم التى يمكنهم ركلها فى أى اتجاه يريدون.

- متى سنغادر؟

بصوت مرهق سألت أماكا. يمكننى القول الآن أنها لم تهتم بالمرأة التى بكت من قلبها أو بركل النيجيريين أو بأى شىء على الإطلاق. شربت العمة أفيوما كل ما فى الكأس قبل أن تتحدث:

- يجب علينا الانتقال من هذه الشقة فى غضون أسبوعين.. أعلم أنهم فى انتظار ألا أفعّل حتى يرسلوا رجال الأمن ليلقوا بأغراضنا فى الشارع.

فى صيحة حادة، سألت أماكا:

- هل سنغادر نيجيريا خلال أسبوعين؟

- هل أنا ساحرة؟

كان ردها سريعاً وحاسماً وافتقدت نبرة صوتها
حس الفكاهة. لم تشِ نبرة صوتها بأى تعبير سوى
الإجهاد.

- على أن أدبر نقود تذاكرنا أولاً.. ليست زهيدة
الثمن. سأضطر أطلب مساعدة عمكم ايوجين.. لذلك
أفكر فى الذهاب إلى انوجو مع كامبيلى وجاجا ربما
فى الأسبوع المقبل. سنمكث فى انوجو حتى نكون
مستعدين للسفر، وهذا سيعطينى الفرصة لكى
أتحدث مع عمكم ايوجين حول التحاق كامبيلى وجاجا
بالمدرسة الداخلية.

التفتت إلى جاجا وإلى:

- سأقنع والدكما بأية طريقة ممكنة. عرض الأب
أمادى أن يطلب من الأب بينيديكت التحدث إلى
والدكما أيضاً. أعتقد أن أفضل شيء لكما الآن هو أن
تذهبا إلى مدرسة بعيدة عن المنزل.

أومأت برأسى. نهض جاجا وتوجه إلى داخل
الشقة.

فى آخر يوم للأب أمادى قبل رحيله، جاء فى
الصباح مرتدياً ثوبه الكهنوتى تصحبه رائحة الكولونيا
التي اعتدتها حتى فى حالة عدم وجوده، وابتسامة
على وجهه الطفولى. تطلع إليه أوبيورا قائلاً بنبرة
ضاحكة:

- من إفريقيا السوداء الآن يأتي التبشيريون الذين
سيغيرون من أوضاع الغرب!

ضحك الأب أمادى:

- أوبيورا.. مهما يكن من ألقى على سمعك هذه
الهرطقات، عليه أن يتوقف.

ضحكته نفسها أيضاً.. لا شيء يبدو قد تغير
بعكس حياتي الجديدة الهشة التي توشك أن تتهشم
إلى قطع. امتلأتُ بالغضب فجأة.. غضب غريب
وعفى. دققتُ النظر في خطوط شفثيه أثناء حديثه
إلى العمة أفيوما وأبناء عمتي حتى أخفف من غضبي.
أخيراً سألتني أن أرافقه إلى السيارة.

- على الانضمام إلى غداء مجلس الكنيسة الذي
أعد أعضاؤه الطعام من أجلى. تعالى واقضى ساعة
أو ساعتين معي أثناء قيامي بترتيب مكتبي في
الكنيسة.

- لا

توقف عن التحديق في وجهي

- لماذا؟

- لا.. لا أريد ذلك

كنتُ أقف مسندة ظهري إلى سيارته. تحرك نحوى
ووقف أمامي، وقال:

- كامبيلي

أردتُ أن أسأله أن يقول اسمى بطريقة مختلفة لأن
ليس لديه الحق في قوله بالطريقة القديمة. يجب ألا
يكون أى شيء على حاله بعد الآن. كنت أتنفس من
فمى. سألته:

- أول يوم أخذتني فيه إلى الإستاد.. هل طلبتُ
العمة أفيوما منك ذلك؟

- كانت قلقة عليك لعدم استطاعتك إجراء حديث
حتى مع الأطفال في الشقق العلوية، لكنها لم تطلب
منى أن أصحبك.

أمسك بذراعى.

- أردتُ أن أصحبك معى، وبعد ذلك اليوم الأول،
أردتُ أن أصحبك معى كل يوم.

انحنيتُ لكى ألتقط من العشب سيقاناً رفيعة
كالإبر الخضراء. قال:

- كامبيلى.. انظرى إلى

لكننى لم أنظر إليه. ظلت عيناي تنظران إلى
سيقان العشب فى يدي.. ربما تفسر لى لماذا رغبتُ
فى أن يقول لى أنه لم يرد اصطحابى معه إلى الإستاد
حتى أعده مبرراً لكى أكون أكثر غضباً منه، وحتى
لا تستبد بى الرغبة فى البكاء. استقل سيارته وأدار
محركها:

- سأعود وأراك فى المساء

نظرتُ إلى سيارته، وهى تختفى عند المنحدر الذى
يصل إلى إكيجيا نى أفنيو. كنتُ لأزال أحدقُ فى

الفراغ عندما تقدمتُ أماكا منى ووضعتُ ذراعها بخفة فوق كتفى وقالت ضاحكة:

- أوبيورا يرى أن عليك ممارسة الجنس أو شيء قريب منه مع الأب أمادى.. لم يسبق أن رأينا عينيه مضيئتين.

لم أدر ما إذا كانت جادة فى كلامها أو غير جادة، ولم أرد الدخول فى مناقشة غريبة كهذه.

- ربما ونحن معاً فى الجامعة تنضمين إلى فى إثارة نقاش حول جدوى استمرار عزوبية القساوسة؟.. أو ربما حول السماح للقساوسة بممارسة الزنا مرة كل فترة، أو مرة فى الشهر؟

- أماكا.. من فضلك.

استدرتُ عائدة إلى الشرفة.

- أتريدين أن يترك عمله كقس؟

بدا صوتها أكثر جدية الآن.

- لن يتركه أبداً.

هزت أماكا رأسها وهى تفكر، ثم ابتسمتُ وقالت قبل أن تذهب إلى حجرة المعيشة:

- لن يمكنك الجزم بذلك.

كنتُ أكتبُ عنوان الأب أمادى بمفكرتى مرات عديدة وبأنواع مختلفة من الخطوط، واستفرقتنى كتابة اسمه وعنوانه المرة بعد المرة فى مفكرتى فلم أنتبه لعودته، وعندئذ أمسك بمفكرتى وأغلقها. أردتُ

أن أقول له "سأفتقدك". لكن بدلاً من ذلك قلت
"سأكتب لك". قال "سأكتب لك أولاً".

لم أدر أن دموعاً تسلت على خدي إلى أن بسط
يده وجففها وهو يجرى راحة يده على وجهي، ثم
احتوانى بذراعية وعانقنى.

* * *

أعدت العمة أفيوماعشاءً من أجل الأب أمادى،
وتناولنا جميعاً الأرز والفاصوليا على مائدة العشاء
التي حفلت بالضحك والحديث عن الإستاد وبكثير من
الذكريات. لكننى كنت أعلم أن مشاركتى لم تكن
كمشاركته، ربما لانشغالى بإغلاق القليل مما تفتح
داخلى لأن الأب أمادى لن يكون هنا.

فى تلك الليلة جافانى النوم وتقلبت كثيراً فى
فراشى وتسببت فى إيقاظ أماك. أردت أن أخبرها
عن رجل طاردنى فى الحلم فى بداية طريق مكسو
بقطع من أوراق شجيرة الألاماندا. فى البداية كان
الرجل هو الأب أمادى بردائه الكهنوتى يرفرف
خلفه، ثم أصبح الرجل بابا مرتدياً الثوب الذى كان
يرتديه فى أربعاء الرماد. لكننى لم أخبرها. تركتها
تعانقنى وتهدهدنى مثل طفل صغير حتى رحت فى
النوم.

كنت سعيدة عند استيقاظى برؤية ضوء الصباح
بلون البرتقال الطازج من خلال النافذة:

* * *

حزَم الأمتعة كاد أن ينتهى تماماً . بدا مدخل الشقة متسعاً بغير رفوف الكتب، وظلت أشياء قليلة فقط على أرضية حجرة العمه أفيوما، وهى الأشياء التى سنستعملها حتى يوم مغادرتنا إلى أنوجو.. حقيبة أرز وعلبة حليب. الصناديق والكراتين الأخرى والكتب تم التخلص منها. عندما قامت العمه أفيوما بإعطاء بعض الملابس للجيران، أخبرتها المرأة فى الشقة العلوية "لماذا لا تعطينى ذلك الثوب الأزرق الذى ترتدينه فى الكنيسة؟.. على أية حال ستحصلين على الكثير من الملابس فى أمريكا". كشفتُ عينا العمه أفيوما عن ضيقها، ولم أعرف ما إذا كان ضيقها بسبب طلب المرأة للثوب أم بسبب ذكرها أمريكا، لكنها لم تعطها الثوب الأزرق.

شاع جو من القلق بيننا.. ربما لانتهائنا من حزم كل شئ بسرعة كبيرة وعلى نحو جيد، ولأننا نحتاج شيئاً آخر نفعله. اقترحت العمه أفيوما:

- دعونا نخرج فى جولة بالسيارة.. لدينا وقود.

قالت اماكا وعلى شفيتها ابتسامة ساخرة:

- جولة وداع لنسوكا.

تكدسنا داخل السيارة، واختارت العمه أفيوما السير على امتداد الطريق الذى تحده كلية الهندسة. فكرتُ فى الثمن الذى ستحصل عليه العمه أفيوما نظير بيع السيارة لرجل بالمدينة، والذى لا يزيد عن ثمن نصف تذكرة سفر تشيما إلى أمريكا. تملكنى منذ

حلم الليلة الماضية شعور بأن شيئاً كبيراً سيحدث.
ربما يعود الأب أمدى ثانية بسبب خطأ فى يوم
مغادرته أو بسبب تأجيله السفر. طوال قيادة العمه
أفيوما للسيارة كنت أنظر إلى السيارات على الطريق
باحثة عن الأب أمدى وعن تلك السيارة الصغيرة
التويوتا فاتحة اللون.

توقفتُ العمه أفيوما أمام تل أودم، وقالت:

- دعونا نصعد إلى القمة.

دهشتُ لأن العمه أفيوما لم يكن فى خطتها تسلق
التل. ربما قالت ذلك فى نوبة حماس. اقترح أوبيورا
أن نأخذ معنا طعاماً ونمكث لفترة أعلى التل. أثنتُ
العمه أفيوما على الفكرة. وعلى الفور قصدنا المدينة
واشترينا معجنات ومياه وعدنا إلى أسفل التل ثانية.
كان تسلقاً سهلاً بسبب وجود مسارات متعرجة كثيرة
يحدّها من الجانبين العشب الأخضر.

- ذلك الصوت العالى القصير تصدره أجنحة
البعوض.

توقف أوبيورا أمام كثيب كبير قمته حمراء تقيمه
مجموعات النمل على نحو أقرب إلى تصميم هندسى،
أثناء قيامها ببناء مساكن لها، وقال:

- أماكا.. يجب أن ترسمى شيئاً كهذا.

لم تعلق اماكا، وبدلاً من ذلك انطلقتُ تعدو فى
اتجاه أعلى التل، وخلفها ركض تشيما، ثم لحق بهما

جاجا. نظرتُ العمّة أفيوما نحوى قائلة "ماذا تتنظرين؟"، ثم رفعتُ أطراف ثوبها إلى ما فوق ركبتيها وركضتُ خلف جاجا. عدوتُ أنا أيضاً وأنا أشعر بأثر الريح فى أذنى. الركض جعلنى أفكر فى الأب أمادى وأتذكر طريقته فى النظر إلى ساقى العاريتين. عدوتُ وتجاوزتُ العمّة أفيوما وجاجا وتشيما. ثم بلغتُ القمة فى الوقت نفسه مع أماكا. نظرتُ أماكا نحوى، وقالت:

- أنت عداءة إذن!

ألقتُ بجسمها على العشب وهى لا تكاد تلتقط أنفاسها. جلستُ بجانبها وبغير مبالاة أبعدتُ عنكبوتاً صغيراً عن ساقى. كانت العمّة أفيوما قد توقفت عن العدو قبل بلوغ القمة، وقالت:

- سأجد لك مدرباً.. يحصل الرياضيون على أموال كثيرة.

ضحكتُ. بدا لى الضحك الآن أيسر كثيراً مثل أشياء عديدة بدتُ لى سهلة ميسورة. كان جاجا وأماكا يضحكان أيضاً وهما مستلقيان معاً على العشب فى انتظار وصول أوبيورا الذى يصعد ببطء ممسكاً بشيء ما تبين أنه جراد صغير احتفظ به فى تجويف قبضة يده. قال "أشعر بضغط جناحيه" ثم فتح قبضته وراقب الجراد وهو يشرع فى الطيران.

حملنا طعامنا إلى بناء مهدّم على الجانب الآخر من قمة التل، ربما استخدم من قبل كمستودع وتم قصف سقفه وأبوابه أثناء الحرب الأهلية منذ سنوات

وظل على حالته تلك. بدا البناء أقرب إلى بيت أشباح، لذلك لم أرد أن نتناول الطعام فيه بالرغم من قول أوبيورا أن كثيرين يفترشون الحصير ويجلسون يتسامرون في كل وقت. كان يتفحص الكتابات على حوائط البناء وقرأ بعضها بصوت عال "أوبينا يحب نينا إلى الأبد" و"أميكاوا ونوما كانا هنا ومارسا الحب معاً".

قررت العمة أفيوما أن نتناول طعامنا جالسين على العشب في الهواء الطلق طالما ليس لدينا حصير. لاحظتُ سيارة تزحف أسفل التل فدققتُ النظر لكي أرى من بداخلها برغم طول المسافة. رأسه يشبه كثيراً رأس الأب أمادي. فرغتُ من طعامي بسرعة ومسحتُ فمي بظهر يدي ورتبتُ شعري.

تحولتُ الشمس إلى اللون الأحمر واقتربتُ من الأفول، عندما قالت العمة أفيوما، انه يجب علينا المغادرة. ونحن نهبط التل وقد حل بنا الإجهاد، فقدتُ الأمل في ظهور الأب أمادي.

* * *

كنا جميعاً في حجرة المعيشة نلعب الورق عندما دق جرس الهاتف في ذلك المساء. قالت العمة أفيوما برغم كونها الأقرب إلى الهاتف:

- أماكا، من فضلك أجيبي.

- أراهن أنه لك ماما.

قالت أماكا وهي تدقق فى أوراق لعب بيدها .

- إنه أحد هؤلاء الذين يريدونك أن تعطيههم
أطباقنا وقدورنا وحتى ملابسنا الداخلية.

أسرعتُ العمة أفيوما ضاحكة إلى الهاتف. كان
التليفزيون مغلقاً وكنا جميعاً مستغرقين فى لعب
الورق، لذلك سمعتُ العمة أفيوما تصيح صيحة
غريبة، وللحظة قصيرة صليتُ من أجل أن تطفى
السفارة الأمريكية التأشيرة، وسرعان ما عنفتُ نفسى
وسألتُ الرب ألا يقبل صلاتى. اندفعنا جميعاً إلى
داخل الحجره وكانت العمة أفيوما واقفة إلى جانب
الطاولة ويدها على رأسها على نحو يشى بالصدمة.
ماذا حدث لماما؟.. كانت تمسك بسماعة الهاتف. كنتُ
أعلم أنها تريد أن تعطيهما لجاجا، لكننى كنتُ الأقرب
إليها فأخذتها منها. يدى اهتزت كثيراً وانزلقت
السماعة بعيداً عن أذنى.

صوت ماما الخفيض عبر أسلاك الهاتف قلل
بعض الشئ من اهتزاز يدي.

- كامبيلى.. إنه والدك.. تحدثوا إلى من المصنع..
وجدوه ممدداً وميتاً بمكتبه.

ضغطتُ السماعة بقوة فى اتجاه أذنى.

- ماذا؟

- إنه والدك.. تحدثوا من المصنع.. وجدوه ميتاً.

بدتُ ماما مثل جهاز المسجل. تخيلتها تقول الشئ
نفسه لجاجا بالنبرة نفسها.. امتلأتُ أذناى بسائل.

بالرغم من أنني سمعتها جيداً تقول إنه وجد ميتاً
بمكتبه، سألت:

- هل تسلم رسالة مفخخة؟.. كانت رسالة
مفخخة؟

انتزع جاجا السماعة. قادتني العمة أفيوما إلى
السرير. جلستُ وحدتُ طويلاً في حقيبة الأرز
المستندة إلى جانب السرير. حتماً سأذكر دائماً
حقيبة الأرز تلك بالطريقة التي تستند بها إلى السرير
بالقرب من الطاولة. لم يسبق أن فكرتُ أبداً في
احتمال أن بابا سيموت، وأن بابا يمكن أن يموت. هو
مختلف عن إد كوكر وعن الناس الآخرين الذين ماتوا.
كان يبدو لي خالداً لا يموت.

جلستُ مع جاجا فى حجرة المعيشة بمنزلنا نحدِّق فى الخزانة الخشبية التى كانت بها تماثيل راقصات الباليه قبل تهشمها. كانت ماما فى الطابق العلوى تحزم أشياء بابا. عندما صعدتُ لمساعدتها رأيتها تجثو على السجادة ممسكة بمنامته الحمراء وتضغطها إلى وجهها. لم ترفع بصرها عند دخولى وقالتُ وقد خفَّض النسيج الحريرى من صوتها "أذهبى وامكثى مع جاجا".

ينقر المطر فى الخارج النوافذ المغلقة بإيقاع صاخب، وتسقط ثمار الكاجو والمانجو من الأشجار لتفسد بعد ذلك فى الأرض الرطبة مثيرة فى الفضاء تلك الرائحة المزيج بين الحلو والحامض. كانت بوابات منزلنا مغلقة بعد أن طلبت ماما من أدامو ألا يفتح البوابات للذين يريدون مواساتنا، ومنهم أفراد قريتنا الذين جاءوا من أبا وعادوا أدراجهم دون تقديم

العزاء. قال أمادو إنه لم يحدث من قبل أن أحداً أغلق بابيه في وجه المعزين، لكن ماما أخبرته برغبتنا في خصوصية الحزن والحداد، وبأن الآخرين يمكنهم إقامة قداس على روح بابا. لم يسبق أن سمعتُ ماما تتحدث إلى أمادو بتلك الطريقة، ولم أسمعها تتحدث إلى أمادو على الإطلاق.

- قالت المدام، عليكما تناول شراب بورنفيتا

قالت سيسى فور قدومها من حجرة المعيشة حاملة طاولة عليها الأكواب نفسها التي كان يستعملها بابا في شرب شايه. أمكننى أن أشم رائحة الكارى والزعتر الملتصقة بها. كانت سيسى الوحيدة من أهل المنزل التي انخرطت في بكاء طويل، وكان نشيجها يهدأ سريعاً أمام صمتنا المطبق. بعد مغادرتها، التفتُ إلى جاجا وحاولتُ الحديث بعينى، لكن عينيه كانتا خاليتين من أى تعبير مثل نافذة انسدل مصراعها. سألتُ:

- ألا تشرب قليلاً من شراب بورنفيتا؟

- ليس بهذه الأكواب.

هزَّ رأسه وتحرك من مقعده وقال:

- علىّ أن أعتنى بماما.. انظري كيف يرعى أوبيورا أسرته.. أنا أكبر منه فى العمر وعلىّ أن أعتنى بماما.

- الرب يعلم أفضل منا جميعاً.. الرب يسير حياة البشر بطرق تخفى علينا.

فكرتُ فى الزهو الذى كان سيشعر به بابا لو أنه سمع ما قلت. ضحك جاجا وبدت ضحكته مثل حلقات سلسلة من شخير.

- بالطبع، الرب يفعل كل شيء.. انظري ماذا فعل
بابنه.. لكن ألم تتساءلى لماذا؟.. لماذا كان عليه أن يقتل
ابنه حتى ينقذنا؟

أدخلتُ الخف في قدمى بعد أن انتقلتُ برودة رخام
الأرضية إلى قدمى. أردتُ أن أخبر جاجا بالوخز
الخفيف في عيني ودموع تآبى أن تسيل، وبأننى
لأزال أرغب في سماع صوت أقدام بابا على الدرج.
قلت:

- كنيسة سان أجنيز ستمتلئ عن آخرها من أجل
قداس جنازة بابا.

لم يعلق جاجا. دق جرس الهاتف لوقت طويل حتى
أجابت ماما أخيراً، ثم بعد وقت قصير أتت إلى حجرة
المعيشة.

- أجروا تشريحاً للجثة.. وجدوا السم في جسد
والدكما.

بدا قولها وكأن السم في جسد بابا شيء نعلمه
جميعاً. قلت:

- سم؟

أحكمتُ ماما ربط، دثارها ثم ذهبتُ لتحرك ستائر
النوافذ جانباً ولتتأكد من أن عوارضها الخشبية مغلقة
لمنع رد المطر عن دخول المنزل. حركتها هادئة وبطيئة
وعندما تحدثتُ كان صوتها كذلك هادئاً وعلى مهل.

- بدأت أضع السم في شايه قبل قدومي إلى نسوكا. سيسى أتت لي به من عمها الطبيب المشعوز.

ران صمت طويل للحظات لم أستطع خلالها التفكير في شيء. اعتراني ارتباك ففكرتُ في أن أحتسى رشفات من شاى بابا.. رشفات شاى الحب الذى يحرق بحبه لسانى. سألتُ ماما بصوت وجدته مرتفعاً أقرب إلى الصراخ:

- لماذا وضعتِ السم في شايه؟

لم تجب.. ولا حتى عندما وقفتُ وهزرتها إلى أن جذبني جاجا بعنف بعيداً.. ولا حتى عندما لف جاجا ذراعيه حولي واستدار ليحتويها، لكنها تحركتُ بعيداً.

حضر رجال الشرطة بعد بضع ساعات. قالوا إنهم يريدون طرح بعض الأسئلة بعد اتصال شخص بمستشفى سان أجنيز بهم، وأن لديهم صورة من تقرير تشريح الجثة. لم ينتظر جاجا أسئلتهم وأخبرهم أنه استخدم سم الفئران ووضعه في شاى بابا. سمحوا له أن يغير قميصه قبل أن يأخذوه بعيداً.

صمت مختلف الحاضر

الطرق المؤدية إلى السجن مألوفة، أعرف المنازل والمتاجر ووجوه النساء اللاتي يبعن البرتقال والموز قبل أمتار قليلة من السير في الطريق الممتلئ بالحفر والمؤدى إلى ساحة السجن.

- أتريدين شراء برتقال، كامبيلي؟

سأل سيلستاين وهداً من سرعة السيارة، وبدأ الباعة الجائلون يلوحون وينادون علينا. صوته مهذب؛ ولهذا السبب استعانت به ماما بعد أن طلبت من كيفن ذى الندبة الناجمة عن جرح سكين في عنقه أن يذهب.

- ما لدينا فى حقيبة السيارة يكفى.

التفتُ إلى ماما وقلت:

- هل تريدين شراء أى شىء من هنا؟

هزّت ماما رأسها وانزلق الوشاح الذى حاولت تثبيته وضعه لكنه انزلق من جديد. الدثار المتسع حول خصرها والذى تعيد ربطه من وقت لآخر يذكّر بنساء

سوق أوجيت اللاتي يدعن الدثار غير محكم فيمكن لأى شخص رؤية ما يرتدين من ملابس داخلية. يبدو أنه ليس لديها مانع من أن تصبح على هذا الوضع، أو ربما لا يبدو أنها تعى وضعها هذا، فقد أصبحت مختلفة منذ أودع جاجا السجن، ومنذ أن كانت تردد للناس أنها قتلت بابا، وأنها وضعت السم فى شايه، حتى أنها كتبت رسائل إلى الصحف تؤكد فيها اتهامها لنفسها، لكن لا أحد ينصت إليها. الجميع يعتقدون أن شدة حزنها على موت زوجها وسجن ابنها أدى إلى ما وصلت إليه من حال. يدبُّ الهزال فى جسمها وتنتشر بقع بحجم بذور البطيخ فى كل جسمها. ربما بسبب كل هذا يغمرون لها عدم ارتداء اللون الأسود فقط أو اللون الأبيض فقط حداداً لمدة عام. ربما لذلك أيضاً لم ينتقدها أحد لعدم حضورها قداس الذكرى السنوية لزوجها ولعدم قص شعرها.

- حاولى إحكام ربط وشاحك، ماما.

قلت وأنا ألمس كتفها. هزت كتفيها بغير مبالاة دون أن تحولَّ بصرها عن النافذة. ينظر سيلستين إلينا فى المرآة الخلفية بعينين مهذبتين. مرة اقترح أن نأخذ ماما إلى رجل فى قريته الصغيرة خبير فى مثل هذه الأمور. لم أعرف ما إذا كان يقصد بـ"هذه الأمور" أن ماما قد جُنَّتْ، لكننى شكرته وأخبرته أنها لا تريد أن تذهب. أعتقد أنه كان يعنى ذلك جيداً، ففى بعض الأحيان رأيتُ كيف ينظر إلى ماما، وكيف يساعدها

على الخروج من السيارة، وأعلم أنه يرغب في أن تستعيد نفسها.

نادراً ما نأتى ماما وأنا معاً إلى السجن. فى العادة يأخذنى سيلستايين إلى هناك قبل يوم أو اثنين من الموعد الذى يأخذها إليه فى كل أسبوع، وأعتقد أنها تفضل ذلك. لكن اليوم يوم مختلف وخاص، فقد أخطرونا أخيراً وبشكل مؤكد أن جاجا سيتم الإفراج عنه.

بعد وفاة الرئيس النيجيرى منذ شهر.. يقولون إنه لقى حتفه فوق امرأة عاهرة والزيد يخرج من فمه ويرتعد جسده بقوة.. اعتقدنا أن إطلاق سراح جاجا سيتم فى الحال، وأن المحامين سيقومون سريعاً بعمل الإجراءات اللازمة، خاصة وأن الجماعات المناصرة للديمقراطية يخرجون فى تظاهرات ويطالبون بإجراء تحقيق فى ملابسات موت بابا ويصرّون على أن النظام السابق قتله. لكن تمضى أسابيع قبل أن تعلن الحكومة المدنية المؤقتة أنها ستفرج عن كل سجناء الضمير، ويستغرق المحامون أسابيع أخرى لوضع جاجا على قائمة المفرج عنهم، واسمه رابع اسم فى القائمة التى تضم أكثر من مائتين.

بالأمس أخبرنا اثنان من محامينا الكبار فى نيجيريا أنه سيتم إطلاق سراحه الأسبوع المقبل. جاء إلى منزلنا بالأخبار وبزجاجة شمبانيا مثبت بها شريط بنفسجى، وبعد مغادرتهما لم نتحدث ماما وأنا

عما قالاه، لأن كلينا يشعر لأول مرة بالثقة فى أن ما
نصبو إليه سيتحقق، وإن كنا لم نتشارك فى هذا
الشعور معاً.

هناك الكثير جداً مما لا نتحدث عنه ماما وأنا
بشأنه. لا نتحدث عن الشيكات البنكية الضخمة التى
نكتبها كرشاو للمقضاة ورجال الشرطة وحراس
السجن. لا نتحدث عن قدر النقود التى فى حوزتنا
بعد أن آلت نصف عقارات بابا إلى سان أجنيز. ولم
نتحدث أبداً حول التبرعات التى خصصها دون ذكر
اسمه لمستشفيات الأطفال ولدور الأيتام والمعوقان
بسبب الحرب الأهلية. وهناك كثير جداً من الأشياء
التى لا نقولها بأصواتنا ولا نحولها إلى كلمات.

- من فضلك، ضع شريط فيلا فى المسجل،
سيلستايين.

ملاً الصوت القوى - بسرعة - فضاء السيارة.
التفتُ لأرى ما إذا كان لدى ماما مانع، لكنها كانت
تنظر مباشرة وفى خط مستقيم إلى المقعد الأمامى،
وبدا لى أنها ربما لا تسمع شيئاً. فى معظم الأحيان
تأخذ إجاباتها شكل إيماءات وهزات بالرأس وأتساءل
إذا ما كانت تسمع ما يقال. اعتدتُ أن أطلب من
سيسى أن تتحدث إليها أثناء جلوسهما معاً فى حجرة
المعيشة لساعات طويلة، لكنها تقول إن ماما لا تجيبها
وتكفى بالجلوس والتحديث فى الفراغ.

عندما تزوجتُ سيسى فى العام الماضى، أعطتها ماما كراتين تحتوى ما يلزم للعروس من أطباق وآنية صيني، حينئذُ جلستُ سيسى على أرضية المطبخ تبكى بصوت عال بينما ماما تراقبها فى صمت. تأتى سيسى إلينا مرة كل فترة لتعطى تعليمات للمشرفة الجديدة على المنزل "أوكون" ولتسأل ما إذا كانت ماما تحتاج أى شىء. فى العادة لا تقول ماما شيئاً، فقط تهز رأسها وهى تؤرجح جسدها.

الشهر الماضى عندما أخبرتها أننى ذاهبة إلى نسوكا، لم تقل أى شىء، حتى لم تسأل لماذا وأنا لأعرف أحداً فى نسوكا الآن، واكتفتُ بهزة من رأسها. اصطحبنى سيلستين بالسيارة ووصلنا عند الظهر تقريباً، عندما بدأت الشمس تتحول إلى شمس حارقة تكاد تمتص الرطوبة من مخ العظم. تحت هذه الشمس الساطعة فقد تمثال الأسد المعتز بنفسه ألقه وتوجهه.

عندما سألتُ العائلة الجديدة التى سكنتُ شقة عائلة العمّة أفيوما إذا كان فى استطاعتى زيارتها، نظروا إلى بغرابة وقبلوا استضافتى وقدموا لى كوب ماء وقالوا إن الماء ليس بارداً بسبب انقطاع التيار الكهربائى. احتسييتُ ماء الكوب حتى آخر قطرة وأنا أجلس على الأريكة غير المستوية المفتحات عند الجانبين. أعطيتهم الفاكهة التى اشتريتها لهم واعتذرتُ لأن الحرارة فى حقيبة السيارة أفسدتُ قشر الموز وحولته إلى اللون الداكن.

أثناء عودتنا إلى انوجو، ضحكتُ بصوت عالٍ غطى على غناء فيلا.. ضحكتُ؛ لأن طرق نسوكا غير المسفلتة تغطى السيارات بالفبار في وقت هبوب الرياح وبالطين في فصل المطر.. ضحكتُ من الطرق المسفلتة بسبب الكثير من الحفر التي تخبئها كهدايا مفاجئة لقائدي السيارات. داخلني شعور بأن نسوكا يمكن أن تطلق شيئاً عميقاً داخل جوفى ليرتفع إلى حنجرتي ويتحول في فمى إلى أغنية حرية أو إلى ضحكة.

- وصلنا.

أوقف سيلستين السيارة بالقرب من بوابة السجن. الجدران جرداء كئيبة بها رقع قبيحة من فطر يراوح لونه بين الأخضر والأزرق. في الخلف هناك جاجا داخل زنزانته القديمة المتكدسة بالسجناء ولا تتسع إلا للبعض منهم يستلقون على الأرض، والبعض الآخر يظل واقفاً. لكل منهم مرحاض عبارة عن كيس بلاستيك أسود، ويتعاركون فيما بينهم على من يفوز بحمل كل الأكياس في فترة بعد الظهر من كل يوم وإلقائها بعيداً في الخارج، ليتمتع برؤية ضوء الشمس لوقت قصير. أخبرني جاجا مرة أن بعض السجناء الغاضبين لا يهتمون دائماً باستخدام كيس البلاستيك في قضاء الحاجة.. يقول إنه لا يمانع من النوم مع فئران وصراصير لكنه بالقطع لا يحتمل وجود غائط رجل آخر أمام وجهه.

كانت له زنزانة أفضل حتى الشهر الماضى،
خُصِّصَتْ له فيها بعض الكتب وحشية ينام عليها،
بفضل الرشاوى التى يقدمها محامونا الكبار. لكن
حراس السجن نقلوه من تلك الزنزانة الخاصة لأنه
بصق فى وجه حارس بغير أى سبب سوى أنهم نزعوا
عنه ملابسه وضربوه بالسياط. بالرغم من أننى
لأعتقد أن جاجا يمكنه فعل شىء عدائى ضد حارس
السجن إلا أننى لا أملك أية رواية أخرى للقصة بسبب
أن جاجا لن يتحدث إلىّ بشأنها. لم يطلعنى جاجا
على آثار الضرب على ظهره المتورم بحجم النفاق كما
وصفها طبيب السجن لأحد محامينا.

ثلاث سنوات تقريباً أمضاها فى السجن. أحياناً
أنظر إليه وأبكى فيهز كتفيه بغير مبالاة ويخبرنى أن
"أولاديبوبو" زميله بالزنزانة مازال ينتظر محاكمته منذ
ثمانى سنوات. إذن وضع جاجا الرسمى طيلة هذا
الوقت فى السجن هو انتظار المحاكمة.

اعتادتُ أماكا الكتابة إلى مكتب الرئاسة النيجيرية
وإلى مكتب السفير النيجيرى فى أمريكا لتشكو من
عوار النظام القضائى فى نيجيريا. تقول إنها بالرغم
من أن خطاباتها لا تسترعى اهتمام أحد إلا أنها مهمة
لها لشعورها بأنها تفعل شيئاً. لا تخبر أماكا جاجا
عما تفعله فى هذا الشأن فى خطاباتها له. قرأتُ
خطاباتها تلك التى لا تذكر بابا فيها ولا السجن. فى
آخر خطاب لها أخبرته كيف أن أوكبى جاءت فى

تقرير نشرته مجلة دورية أمريكية وحمل شكوك كاتبه فى إمكانية ظهور العذراء مريم المباركة وخصوصاً فى نيجيريا التى تتصف بالفساد والجو الحار. تقول أماكا إنها كتبت إلى المجلة عن رأيها فى هذه المسألة.

تقول أماكا إنها تتفهم لماذا لا يكتب جاجا لها.. فماذا سيقول؟.. والعمة أفيوما لم تكتب لجاجا وبدلاً من ذلك أرسلت له شريط كاسيت مسجلاً عليه أصواتهم جميعاً، يدعى أسمعها أحياناً على المسجل الخاص بى عند زيارتى له. تكتب العمة أفيوما لماما ولى حول عملها فى الكلية وعملها الآخر فى صيدلية، وحول الطماطم كبيرة الحجم والخبز زهيد الثمن، وفى غالب الأحيان تكتب عن أشياء تفتقدها وأخرى تتوق إليها، ودائماً ما تتجاهل ذكر الحاضر الذى يلقى بظلال على الماضى والمستقبل.

فى أحد الخطابات تقول العمة أفيوما إن هناك أناساً يعتقدون أننا لسنا قادرين على حكم أنفسنا لأننا فى بعض الأوقات القليلة حاولنا وفشلنا، وكأن الآخرين الذين يحكمون أنفسهم قد نجحوا منذ محاولتهم الأولى.. وتتعجب العمة أفيوما من أولئك الذين يطلبون من طفل يزحف على الأرض ويحاول السير فيسقط على ظهره بأن يظل على حالة الزحف، وكأن البالغين الذين ينصحون الطفل بالكف عن محاولة السير لم يمروا بحالة الزحف من قبل. ما تكتبه العمة أفيوما فى خطاباتها لى أفكر فيه دائماً

وأثأثر به لدرجة أننى أحفظ عن ظهر قلب معظمه
دون أن أعرف لماذا تخصصنى به .

تقول أماكا فى أحد خطاباتها انه بالرغم من
تواجد التيار الكهربائى بصفة مستمرة وتوفر الماء
الساخن فى الصنابير، إلا أنهم لا يضحكون كما كانوا
من قبل، وتُرجع سبب ذلك إلى أنهم ربما ليس لديهم
الوقت للضحك وإلى أن الواحد منهم لا يرى الآخر إلا
لماً .

خطابات أوبيورا هى الأكثر مرحاً والأقل انتظاماً .
حصل على منحة دراسية فى مدرسة خاصة، ويؤكد
أنه يحصل دائماً على التشجيع وليس العقاب عند
ممارسته هوايته فى تحدى أساتذته .

- دعينى أقوم بذلك .

- شكراً لك .

تنحيتُ جانباً . حمل سيلستايين حقيبة البلاستيك
التي تحوى الملابس والفاكهة والطعام والأطباق من
حقيبة السيارة، ثم توجهنا إلى بوابة السجن وإلى رجل
الشرطة الجالس إلى منضدة عارية إلا من عدة
الهاتف وسجل العمل اليومى وكومة ساعات ومناديل
يد وقلادات .

- كيف حالك يا أختى .

عيناه ثابتتان على الحقيبة فى يد سيلستايين .

- تأتين مع المدام اليوم؟ .. مساء الخير مدام .

يبتسم وتهزُّ ماما رأسها ذاهلة، ويضع سيلستاين الحقيبة فوق الطاولة وبيداخلها مجلة بها مظروف متخم بأوراق نقد نايرا. يقبض الشرطى على الحقيبة ويخفيها خلف منضدة صغيرة، ثم يقودنا ماما وأنا إلى حجرة خالية من الهواء بها مقاعد على جانبي طاولة منخفضة، ويغمغم قبل أن يغادر "ساعة واحدة".

جلسنا على نفس الجانب من الطاولة متجاورين لكن دون أن تلمس إحدانا الأخرى. لم يكن من السهل على رؤيته هنا حتى مع مرور وقت طويل، وسيكون من الأصعب لى الجلوس إلى جوار ماما.

آخر رسالة كتبها الأب أمادى أحتفظ بها مطوية فى حقيبتى: جاجا سيعود إلى المنزل سريعاً.. يجب أن تصدق ذلك. صدقتُ ذلك بالرغم من أننا لم نسمع من المحامين ما يطمئننا. أصدقُ أنا ما يقوله الأب أمادى وأصدقُ خطه المائل الذى يدلُّ على العزم والتصميم: "لأنه قالها وكلمته صادقة".

دائماً أحمل آخر رسالة له معى حتى تأتى الرسالة الجديدة. عندما أخبرت أماكا بذلك، كتبت تمازحنى وتضحكُ من كونى فى حالة حب مع الأب أمادى، ورسمتُ أسفل كلماتها وجهاً مبتسماً. لكننى لا أحمل رسائله معى لأننى فى حالة حب معه، وإن كان هناك القليل من الحب على أية حال. فى رسائله لى لا يذكر شيئاً عن نفسه أكثر من "كالمعتاد"، ولا يجيب أبداً بكلمة نعم أو لا عندما أسأله إن كان سعيداً، ودائماً

يجيب بأنه أينما يوجهه الرب يتجه. يندر أن يكتب عن حياته الجديدة ما عدا كتابة أخبار موجزة حول السيدة الألمانية المسنة التي ترفض مصافحته لأنها لاتعتقد فى أن يصلح رجل أسود ليكون كاهناً، أو الأرملة الثرية التي تصر على أن يشاركها العشاء كل ليلة.

أحملُ رسائله لفترة لأنها طويلة ومسهبة وتخاطب مشاعرى وتذكّرني بجدارتى. يكتب لى منذ أشهر أنه لا يريدنى أن أبحث كثيراً عن الأسباب والدوافع وراء أعمال وتصرفات معينة، أو أن أبحث كثيراً فى الأسئلة الصعبة، لأن هناك بعض الأشياء تحدث من حولنا ولا يمكننا أن نجد لها سبباً أو دافعاً، وربما ليس من الضرورى وجودها. ولم يذكر بابا فى رسائله، ولكننى أعرف ما يقصده من إثارة موضوع أو سؤال أخشى أن أثيره بنفسى.

تمنحنى رسائله امتيازاً. تقول أماكا إن الناس يحبون القساوسة لأنهم يريدون الدخول فى منافسة مع الرب.. يريدون الرب كمنافس.. لكننا لسنا فى منافسة، الرب وأنا، وإنما ببساطة نحن فى شراكة. لم أعد أتساءل إذا كان لدى الحق فى أن أحب الأب أمادى، وإن كنت أواصل حياتى وأحبه. لم أعد أتساءل ما إذا كانت الشيكات البنكية التي أكتبها للآباء التبشيريين رشاوى للرب، بينما أنا مستمرة فى كتابتها.

- هل أحضرنا سكاكين؟

تسأل ماما بصوت عال أثناء وضعها الأرز والدجاج فى دورق الطعام الأسطوانى، وتضع كذلك طبقاً جميلاً وكأنها تعد مائدة فاخرة على النحو الذى اعتادت سيسى أن تفعله.

- ماما، جاجا لا يحتاج سكاكين.

تعلم ماما أن جاجا دائماً يأكل من الدورق مباشرة، ومع ذلك تأخذ طبق العشاء معها فى كل مرة، وتغير لون الطبق وشكله أسبوعياً.

- كان يجب أن نحضرها حتى يمكنه قطع اللحم.

- هو لا يقطع اللحم ويأكل مباشرة.

أبتسمُ إليها وأمدُ يدي لأمس ذراعها لأهدئها. تضع المعلقة والسكين الفضييتين اللامعتين على الطاولة، ثم تميل قليلاً إلى الخلف لكى تلقى نظرة أخيرة على المائدة. يُفتح الباب ويدخل جاجا. قميصه التى شيرت الذى أحضرته له منذ أسبوعين به رقع بنية مثل بقع عصير الكاجو التى لا يمكن إزالتها. بنظونه القصير ينتهى فوق ركبتيه بكثير. أنظر بعيداً عن الجرب فى فخذيهِ. لا ننهض لنعانقه لأنه لا يجب أن نفعل ذلك.

- ماما.. كامبيلى.. مساء الخير.

يفتح دورق الطعام ويبدأ فى الأكل. أشعر بارتعاش ماما بجانبى. ولأننى لا أريد لها أن تنهار، أتكلم بسرعة لعل صوتى يوقف دموعها.

- المحامون سيخرجونك الأسبوع المقبل.

هز كتفيه بلامبالاة. حتى جلد رقبته مغطى
بالجرب الذى يبدو جافاً إلى أن يحكه فيتسرب
صديد إلى الخارج. كل أنواع المراهم أدخلتها إليه ماما
عن طريق الرشوة ويبدو أنها لم تفد فى شىء.

يضع الأرز بأقصى ما يمكنه من سرعة فى فمه،
فيدا خداه المنتفخان المحشوان مثل ثمرتى جوافة
جافتين.

- أعنى سيخرجونك خارج السجن، جاجا، وليس
إلى زنزانة مختلفة.

يتوقف عن المضغ ويحدق فى وجهى فى صمت
بتلك العينين اللتين تزداد قسوتهما قليلاً كل شهر من
الشهور التى أمضاها هنا. الآن تبدو عيناه مثل لحاء
شجرة نخل، حتى أننى أتساءل ما إذا كنا قد تبادلنا
فيما بيننا لغة العيون من قبل أو أننى كنت أتخيل
ذلك.

- ستخرج من هنا الأسبوع المقبل.. ستعود إلى
المنزل الأسبوع المقبل.

أريد أن أمسك بيده، لكن عينيه تمتلئان بإحساس
الذنب لأنه يرانى ويرى انعكاس صورته فى عيني..
صورة بطلى.. الشقيق الذى حاول دائماً أن يحمينى
بأفضل ما فى وسعه. لن يفكر أبداً أنه فعل ما كان
ينبغى، ولن يفهم أبداً أننى لا أعتقد إذا كان عليه أن
يفعل أكثر مما فعل.

- أنت لا تأكل

تقول ماما . يرفع جاجا الملعقة ويستمر فى التهام الأرز ثانية. ران الصمت بيننا، لكنه كان نوعاً مختلفاً من الصمت.. صمت يجعلنى ألتقط أنفاسى. تراودنى كوابيس حول النوع الآخر من الصمت.. ذلك الصمت الذى عايشته عندما كان بابا حياً. فى كوابيسى يمتزج الصمت بالعار والأسى والكثير جداً من الأشياء التى لايمكننى أن أسميها، وتشكل السنة زرقاء من النار تحط فوق رأسى إلى أن أستيقظ صارخة والعرق يبيلنى.

لم أخبر جاجا أننى أدعو فى صلاة القداس كل أحد أن أرى بابا فى أحلامى، وأننى أريد ذلك كثيراً حتى أننى فى بعض الأحيان أصنع أحلامى بنفسى عندما لا أكون نائمة ولا مستيقظة: أرى بابا يبسط ذراعية ليعانقنى وأبسط ذراعى أنا أيضاً لأعانقه، لكن جسمينا لا يلمسان بعضهما أبداً.. ثم يهزنى شىء هزاً عنيفاً، وأدرك أننى لا أستطيع التحكم حتى فى أحلامى التى أصنعها بنفسى.

- احكمى ربط وشاحك جيداً، ماما

أحدق فى استغراب، فلم يسبق أبداً أن لاحظ جاجا ما يرتديه أى شخص. بعجلة أقرب إلى التهور، عدلتُ ماما من ربط وشاحها، وفى هذه المرة قامت بربطه مرتين وأحكمتُ ربطه خلف رأسها.

- الوقت انتهى!

يأتى الحراس إلى الحجرة. لم تلتق عيوننا قبل أن يدع الحراس يقتادونه بعيداً.

- يجب أن نذهب إلى نسوكا عندما يخرج جاجا .

أقول لماما ونحن نغادر الحجره، فيمكننى الآن التحدث عن المستقبل. تهز ماما كتفها بغير مبالاة ولا تقول شيئاً. تسير ببطء ويتحرك جسدها إلى اليمين واليسار مع كل خطوة تخطوها. عند اقترابنا من السيارة تستدير إلىّ وتقول "شكراً لك". إنها مرة من المرات القليلة على مدى السنوات الثلاث الماضية التى تتحدث فيها دون أن تكون هى نفسها من تتحدث إليه. لا أريد التفكير فى السبب الذى تشكرنى من أجله أو فى القصد منه. ما أعلمه فقط هو أننى لن أشم رائحة فناء السجن العطنة الخائقة.

- سنأخذ جاجا إلى نسوكا أولاً، ثم نذهب إلى أمريكا لزيارة العمه أفيوما. وسنزرع أشجار برتقال جديدة فى أبا عند عودتنا. وسيزرع جاجا أيضاً شجيرات الكركديه الأرجوانية، وسأزرع شجرة الاكسورا حتى يمكننا امتصاص عصير زهورها.

أضحكُ. أمد ذراعى وأضعه حول كتف ماما. تميل نحوى وتبتسم. فوقنا سحابات بيضاء متناثرة طافية وقريبة جداً من رأسينا. أشعر أن بإمكانى أن ألمسها بيدي وأعتصر ماءها. الأمطار الجديدة ستهطل سريعاً.

صدر من هذه السلسلة

- ١ - «ملكة الصمت».. للكاتبة الفرنسية «مارى نيميه»
.. رواية .. جائزة ميديسيس.
- ٢ - «فتاة من شارتر».. للكاتب الفرنسى «بيير
بيجى».. رواية .. جائزة إنتر.
- ٣ - «موال البيات والنوم».. للكاتب المصرى «خيرى
شلبى» .. رواية .. جائزة الدولة التقديرية.
- ٤ - «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد
عفيفى مطر» .. سيرة ذاتية .. جائزة سلطان
العويس.
- ٥ - «اللمس».. للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله»..
مسرح .. جائزة أبها.
- ٦ - «عاشوا فى حياتى».. للكاتب المصرى «أنيس
منصور» .. سيرة ذاتية .. جائزة مبارك.
- ٧ - «قبلة الحياة».. للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» ..
رواية .. جائزة التفوق.
- ٨ - «ليلة الحنة».. للكاتبة المصرية «فتحية العسال» ..
مسرح .. جائزة التفوق.
- ٩ - «العاشقات».. للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ..
رواية .. جائزة نوبل.

- ١٠ - نوة الكرم.. للكاتبة المصرية.. «نجوى شعبان»..
رواية.. جائزة الدولة التشجيعية.
- ١١- «الفسكونت المشطور».. للكاتب الإيطالي
«إيتالوكالفينو» رواية.. (عدد خاص).. جائزة
فياريجيو.
- ١٢- القلعة البيضاء.. للكاتب التركي «أورهان باموق»
.. رواية.. جائزة نوبل.
- ١٣ - أين تذهب طيور المحيط.. للكاتب المصري
«إبراهيم عبدالمجيد».. أدب رحلات .. جائزة
التفوق.
- ١٤ - قرية ظلمة.. للكاتب المصري «محمد كامل
حسين» .. رواية.. (عدد خاص).. جائزة الدولة
للأدب.
- ١٥ - الرجل البطيء.. للكاتب الجنوب إفريقي «ج . م .
كوتسى».. رواية .. جائزة نوبل.
- ١٦ - طحالب.. للكاتبة الجنوب إفريقية «مارى
واطسون» .. متتالية قصصية .. جائزة كين .
- ١٧ - شوشا.. للكاتب البولندي «إسحق باشيفتس
سنجر».. رواية .. جائزة نوبل.
- ١٨ - شارع ميجل.. للكاتب من ترينداد «ف. س.
نايول».. رواية.. جائزة نوبل.
- ١٩ - الحياة الجديدة.. للكاتب التركي «أورهان باموق»
.. رواية.. جائزة نوبل.
- ٢٠ - عشر مسرحيات مختارة.. للكاتب الإنجليزي
«هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

- ٢١ - الآخر مثلى.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» .. رواية .. جائزة نوبل.
- ٢٢ - المستبعدون.. للكاتبة النمساوية «إلفريده يلينك».. رواية - جائزة نوبل.
- ٢٣ - الأنثى كنوع .. للكاتبة الأمريكية «جويس كارول أوتس».. قصص.. جائزة بن مالامود.
- ٢٤ - ثلاثة أيام عند أمى.. للكاتب الفرنسى «فرانسوا فايرجان» .. رواية .. جائزة الجونكور.
- ٢٥ - إسطنبول.. الذكريات والمدينة.. للكاتب التركى «أورهان باموق».. جائزة نوبل.
- ٢٦ - الطوف الحجري.. للكاتب البرتغالى «جوزيه سارامارجو».. رواية.. جائزة نوبل.
- ٢٧ - نار وريبة.. للكاتبة الألمانية «بريجيته كروناور» مختارات.. جائزة جورج بوشنر الكبرى.
- ٢٨ - الذكريات الصغيرة.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» .. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.
- ٢٩ - إليزابيث كُستلُو.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج. م. كوتسى» .. رواية.. جائزة نوبل.
- ٣٠ - السيدة ميلانى والسيدة مارتا والسيدة جيرترود.. للكاتبة الألمانية «بريجيته كروناور» .. قصص.. جائزة جورج بوشنر الكبرى.
- ٣١ - حين تقطعت الأوصال .. للكاتبة المكسيكية «أمبارو دابيللا».. قصص.. جائزة بياروتيا.

- ٣٢- مارتش.. للكاتبة الأمريكية «جيرالدين بروكس»
رواية.. جائزة البوليتزر.
- ٣٣ - اغتم الفرصة.. للكاتب الكندي «سول بيللو»..
رواية.. جائزة نوبل.
- ٣٤ - البصيرة.. للكاتب البرتغالي «جوزيه
ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.
- ٣٥ - بريك لين.. للكاتبة الإنجليزية البنغالية..
«مونیکا على».. رواية.. جائزة البوكر.
- ٣٦- بريد بغداد.. للكاتب التشيلي «خوسيه ميغيل
باراس».. رواية.. الجائزة الوطنية للآداب.
- ٣٧ - عن الجمال.. للكاتبة البريطانية «زادى
سميث».. رواية.. جائزة الأورانج.
- ٣٨ - العار.. للكاتب الجنوب إفريقي «ج. م. كوتسى»..
رواية.. جائزة نوبل.
- ٣٩ - قبالات سينمائية.. للكاتب الفرنسى «إيريك
فوتورينو».. رواية.. جائزة الفيمينا.
- ٤٠ - هكذا كانت الوحدة.. للكاتب الإسباني «خوان
خوسيه مياس».. رواية.. جائزة نادال.
- ٤١ - الشلالات.. للكاتبة الأمريكية «جويس كارول
أوتس».. رواية.. جائزة الفيمينا.
- ٤٢ - العشب يغنى.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس
ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.
- ٤٣ - العالم.. للكاتب الإسباني «خوان خوسيه
مياس».. رواية.. جائزة بلانيتا.

- ٤٤ - ميراث الخسارة.. للكاتبة الهندية «كيران ديساي».. رواية.. جائزة البوكر.
- ٤٥ - الطفل الخامس.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.
- ٤٦ - بن يجوب العالم.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.
- ٤٧ - ثورة الأرض.. للكاتب البرتغالي «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.
- ٤٨ - ملك أفغانستان لم يزوجنا.. للكاتبة الفرنسية «إنجريد توبوا».. رواية.. جائزة الرواية الأولى فى فرنسا.
- ٤٩ - الكهف.. للكاتب البرتغالي «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.
- ٥٠ - يوميات عام سيئ.. للكاتب الجنوب إفريقي «ج.م. كوتسى».. رواية.. جائزة نوبل.
- ٥١ - كازانوفافا.. للكاتب الإنجليزي «أندرو ميللر».. رواية.
- ٥٢ - انقطاعات الموت.. للكاتب البرتغالي «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.
- ٥٣ - العم الصغير.. للكاتب الألماني «شيركو فتاح».. رواية.. جائزة هيلده دومين لأدب فى المنفى.
- ٥٤ - اللعب مع النمر.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. مسرح.. جائزة نوبل.
- ٥٥ - فى أرض على الحدود.. للكاتب الألماني «شيركو فتاح».. رواية.. جائزة نظرات أدبية.

- ٥٦ - الإرهابية الطيبة.. للكاتبه الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.
- ٥٧ - المسرحيات الكبرى جـ ١.. للكاتب الإنجليزي «هارولد بنتر» .. مسرح.. جائزة نوبل.
- ٥٨ - المسرحيات الكبرى جـ ٢.. للكاتب الإنجليزي «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.
- ٥٩ - نصف شمس صفراء.. للكاتبه النيجيرية «تشيما ماندا نجوزى أديتشى» .. رواية.. جائزة الأورانج.
- ٦٠ - مذكرات چين سومرز «مذكرات جارة طيبة».. للكاتبه الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.
- ٦١ - مذكرات چين سومرز «إن العجوز استطاعت».. للكاتبه الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.
- ٦٢ - الحوت.. للكاتب الفرنسي «جان مارى جوستاف لوكليزيو».. رواية..جائزة نوبل.
- ٦٣ - رقة الذئاب.. للكاتبه الأستلندية «ستيف بينى».. رواية.. جائزة كوستا.
- ٦٤ - رحلة العم مآ.. للكاتب الجابونى «چان ديفاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لإفريقيا السوداء.
- ٦٥ - مسيرة الفيل.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماچو» رواية.. جائزة نوبل.
- ٦٦ - كرسى النسر.. للكاتب المكسيكى «كارلوس فوينتيس».. رواية.. جائزة سرفانتيس.

- ٦٧ - داي.. للكاتبه الإسكتلندية «أ. ل. كيندى»..
رواية.. جائزة كوستا.
- ٦٨ - الحب المدمر.. للكاتب الأمريكى الكندى «دي
واى بيشارد».. رواية.. جائزة الكومنولث.
- ٦٩ - أين نذهب ياأبا؟.. للكاتب الفرنسى «جون لوى
فورنييه».. رواية.. جائزة الفيمينا.
- ٧٠ - نداء دينيتى.. للكاتب الجابونى «جان ديقاسا
نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لإفريقيا
السوداء.
- ٧١ - صخب الميراث.. للكاتب الجابونى «جان ديقاسا
نياما» رواية.. جائزة الأدب الكبرى لأفريقيا
السوداء.
- ٧٢ - المؤتمر الأخير.. للكاتب الفرنسى «مارك
بروسون».. رواية.. جائزة الأكاديمية الفرنسية
الكبرى للرواية.
- ٧٣ - كتاب الرسم والخط.. للكاتب البرتغالى «جوزيه
ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.
- ٧٤ - كلُّ رجلٍ.. للكاتب الأمريكى «فيليب روث»..
رواية.. جائزة فوكنر.
- ٧٥ - نُريد أن نتحدث عن كيثين.. للكاتبه الأمريكية
«ليونيل شرايفر».. رواية.. جائزة الأورانج.
- ٧٦ - ألم فذ.. للكاتب الإنجليزى «أندرو ميللر»..
رواية.. جائزة جيمس تيت بلاك.
- ٧٧ - أناقة القنفذ.. للكاتبه الفرنسية «موريل
باربرى».. رواية.. جائزة المكتبات للرواية.

- ٧٨ - حزن مدرسى.. للكاتب الفرنسى «دانييل بناك»
رواية.. جائزة روندو.
- ٧٩ - غداً.. للكاتب الألمانى «فالتز، كباخر».. رواية..
جائزة جورج بوشنر الكبرى.
- ٨٠ - الكلمة المكسورة.. للكاتب الإنجليزى «آدم
فولدز».. رواية/ قصيدة.. جائزة كوستا.
- ٨١ - أن نُصبح أ غرباً.. للكاتبة الإنجليزية «لويز
دين».. رواية.. جائزة بيتى تراسك.
- ٨٢ - المرأة المسكونة.. للكاتبة النيكاراجوية «جيوكوندا
بيلي».. رواية.. جائزة كاسا دى لاس أمير كاس.
- ٨٣ - بيتر كامينتسند.. للكاتب الألمانى «هرمن
هيسه».. رواية.. (عدد خاص).. جائزة نوبل.
- ٨٤ - بيت السيد بيسواس.. للكاتب من ترينداد «ف.
س . نايبول».. رواية.. جائزة نوبل.
- ٨٥ - مدريد الأصيلة.. للكاتب الإسبانى «كارلوس
أرنيتشيس».. مسرح.. وسام الاستحقاق.
- ٨٦ - لافينيا.. للكاتبة الأمريكية «أوروسولا كى
لى جوين».. رواية جائزة ديمون نايت التذكارية
الكبرى.
- ٨٧ - أشجار متحجرة.. للكاتبة المكسيكية «أمبارو
دايلا».. قصص.. جائزة بياروتيا.
- ٨٨ - سنوات الهروب.. للكاتب الكولومبى «بلينيو أبوليو
ميندوثا».. رواية.. جائزة بلازا إي خانيس.
- ٨٩ - الباحث عن الذهب.. للكاتب الفرنسى «جان مارى
جوستاف لوكليزيو».. رواية.. جائزة نوبل.

- ٩٠ - جائزة أو. هنرى.. مجموعة من المؤلفين...
 قصص قصيرة.. القصص الفائزة بجائزة أو.
 هنرى ل عام ٢٠٠٧.
- ٩١ - الحيوان المُحتضر.. للكاتب الأمريكى «فيليب
 روث».. رواية.. جائزة بن / نابوكوف.
- ٩٢ - أنشودة ألاباما.. للكاتب الفرنسى «جيل لوروا»..
 رواية.. جائزة الجونكور.
- ٩٣ - إنجيل الابن.. للكاتب الأمريكى «نورمان ميلر»..
 رواية.. جائزة باريس ريفيو (هادادا).
- ٩٤ - الوصمة البشرية.. للكاتب الأمريكى «فيليب
 روث».. رواية.. جائزة فوكنر.
- ٩٥ - ليتنى لم أقابل نفسى اليوم.. للروائية الألمانية
 «هيرتا موللر».. رواية.. جائزة نوبل.
- ٩٦ - حكاية أوزوالد.. للكاتب الأمريكى «نورمان
 ميلر».. لغز أمريكى.. الكتاب الأول. جائزة باريس
 ريفيو (هادادا).
- ٩٧ - حكاية أوزوالد.. للكاتب الأمريكى «نورمان
 ميلر».. لغز أمريكى.. الكتاب الثانى. جائزة
 باريس ريفيو (هادادا).
- ٩٨ - وبنى لها معبداً.. للكاتب الألمانى «سيجفريد
 أوبرماير».. رواية.. جائزة شيلزهايم.
- ٩٩ - جنون المتاهة.. للكاتب الإنجليزى «آدم فولدر»..
 رواية.. جائزة صنداى تايمز لكاتب شاب.
- ١٠٠ - الملك ينحنى ليقتل.. للكاتبة الألمانية «هيرتا
 موللر».. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

- ١٠١ - العبد.. للكاتب البولندي «إسحق باشيفيس سنجر».. رواية.. جائزة نوبل.
- ١٠٢ - الفراشة والديابة.. للكاتب الأمريكى «إرنست همنجواى».. قصص.. جائزة نوبل.
- ١٠٣ - التجمع.. للكاتبة الأيرلندية «آن ريت».. رواية.. جائزة البوكر.
- ١٠٤ - موندو.. للكاتب الفرنسى «ج.م.ج لوكليزيو» قصص.. جائزة نوبل .
- ١٠٥ - الكون فى راحة اليد.. للكاتبة النيكاراجوية «جيوكوندا بيلى».. رواية.. جائزة اتحاد الناشرين.
- ١٠٦ - جزيرة صغيرة.. للكاتبة الإنجليزية «أندريا ليفى».. رواية.. جائزة الأورانج .
- ١٠٧ - حياتى .. للكاتبة الأمريكية «إيزادورا دونكان».. سيرة ذاتية.. جائزة الكتاب القومى .
- ١٠٨ - تيو.. للكاتبة النيوزيلندية «باتريشيا جريس».. رواية.. جائزة ميدالية ديوتيز للرواية وجائزة مونتانا للرواية.
- ١٠٩ - الجولة وحوادث مؤثرة أخرى.. للكاتب الفرنسى «ج.م.ج لوكليزيو».. قصص.. جائزة نوبل.

يصدر قريباً من هذه السلسلة

١ - فوس.. باتريك وايت.. جائزة نوبل للآداب ١٩٧٣ .

٢ - هناك حيث النمورفى أوطانها.. جان مارى بلاس
دو روبليس.. جائزة ميديسيس ٢٠٠٨ .

٣ - البينلوبية.. مارجريت أتوود.. وسام الفنون
والآداب الفرنسى ١٩٩٤ .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

الكاتبة: تشيما ماندا نجوزي أديتشي.

روائية نيجيرية.

• ولدت في نيجيريا عام ١٩٧٧ لأبوين من قبيلة الإيبو النيجيرية.

• نالت درجتها العلمية في الاتصال والعلوم السياسية في جامعة إيسترن كونيكتيكوت عام ٢٠٠١، ودرجة الماجستير في الدراسات الإفريقية من جامعة بال الأمريكية.

• لاقت روايتها الأولى "زهرة الكركديه الأرجوانية" الصادرة عام ٢٠٠٣، أصداء طيبة ووصلت إلى القائمة القصيرة لجائزة الأوراج البريطانية، وفازت بجائزة الكومنولث كأفضل كتاب أول عام ٢٠٠٥.

• كما حصلت روايتها الثانية "نصف شمس صفراء" والتي صدرت أيضًا في سلسلة الجوائز على جائزة الأوراج البريطانية عام ٢٠٠٧.

• قال عنها "شينو أشيبي" الملقب بـ "أبو الأدب الإفريقي الحديث": "أديتشي جاءت كاتبة مكتملة".

الجائزة: جائزة الكومنولث (فرع أفضل كتاب أول).

تأسست جائزة رابطة الكتاب التي تمنحها الكومنولث عام ١٩٨٧. وتهدف إلى وصول الكتاب الفائز إلى جميع دول الكومنولث لضمان تعميم قراءته خارج الإقليم. وكذلك تشجيع أجيال جديدة من الكتاب. ولقرابة ربع القرن من الزمان تمنح الجائزة بفرعها: "أفضل كتاب" و"أفضل كتاب أول" سنويًا وبلا توقف. ويحتفى بها كل عام في إقليم مختلف من أقاليم الكومنولث التي تشمل إفريقيا والكاربيبي وكندا وأوراسيا التي تضم المملكة المتحدة وجنوب شرق آسيا وجنوب المحيط الهادى. ويمنح الفائزون من كل إقليم جائزة خاصة. ثم يتم إعلان اسمى الفائزين من هذه القائمة بجائزة "أفضل كتاب" و"أفضل كتاب أول".

الرواية

شكلت قصص والد "تشيماماندا" عن حرب بيافرا (١٩٦٧ - ١٩٧٠) العمود الفقري لأبحاثها التي قامت بها في مرحلة الإعداد لتأليف رواية تدرك أهمية بيافرا بالنسبة لتاريخ نيجيريا. و"تشيماماندا" نفسها كاتبة الرواية نشأت وكبرت في ظل أجواء النفي والسجن ومشاهد العنف والتسلط فضلا عن مفردات الصراع التقليدي والقبلي من جانب وبين الحداثي والبيروقراطي من جانب آخر. وهو الصراع الذي تشهده نيجيريا وغيرها من دول العالم الثالث.

في روايتها "زهرة الكركديه الأرجوانية" تُسمعنا "تشيماماندا" صوت الثورة والتمرد المفعم بالحوية في نيجيريا، فعلى إثر تورط الأب المنسلط المستبد في مشكلات سياسية ترغمه على إرسال ابنته "كامبيلي" وابنه "جاجا" إلى إحدى المناطق البعيدة، حيث تقيم عمتهما الأرملة وجاهما العجوز، وبعيداً عن سلطة الأب تشعر الابنة بظلة الرواية بالتححرر من القيود المفروضة عليها وتكتشف الحياة الحقيقية للمرة الأولى خارج بطريركية الأسرة الغاشمة وتدهور البيئة التحتية للمجتمع النيجيري القمعي إبان الانقلاب العسكري.

الروائية: تشيماماندا جوزي أديتشي. رواية نيجيرية.
الجائزة: جائزة الكومنولث لأفضل كتاب أول ٢٠٠٥.



الهيئة المصرية العامة للكتاب

ISBN# 9789774481406



6 221149 026803

الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠ جنيهاً